الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر - باتنة

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

قسم أصول الدين

نيابة العمادة لما بعد التدرج

و البحث العلمي

و العلاقات الخارجية

منهج الشيخ إبراهيم بيوض في عرض الإلهيات

من خلال تفسيره في رحاب القرآن

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة

إعداد الطالب:

صالح حمدي

إشراف الأستاذ الدكتور:

لخضر شايب

أعضاء لجنة المناقشة

إسم ولقب الأستاذ	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د. عمار جيدل	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر	رئيساً
أ.د. لخضر شايب	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مقررًا
د. خميس بن عاشور	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوًا
د. العربي بن الشيخ	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوًا

السنة الجامعية: 1426.1427هـ/ 2005.2006م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى والدي العزيزين اللذين غرسا في قلبي حب الله ورسوله، وتلقّيت أُولى دروس الحياة بين أحضا هما، (رب ارحمهما كما ربـــياني صغِيرا)

إلى زوجتي العزيزة التي غمرتني بالسكينة والاطمئنان، وتكبدت معي مشاق البحث، فكانت لي عـونا وسنـدا

إلى إخوتي وإخواني الذين شد الله م أزري، فكانوا لي في الشـدائد مـددا

إلى كل مؤمن غيور، يسعى إلى أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى

إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة هذا العمل

صـالح

المــقـدمــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله.

لكل من عقيدة الإسلام وشريعته أصول وأركان اكتملت بتمام الوحي، وبإقامة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لهذا الدين، لكن الإنسان المؤمن بحكم خلافته لله في عمارة الأرض وسياسة ا تمع، لابد له –وهو يؤدي أمانة الخلافة- من التجديد، وذلك بإقامته أبنية أخرى يبدعها فوق هذه الأصول؛ هي بمثابة الفروع الممتدة منها، كي يواجه ا متغيرات الحياة وتحديا ا المتجددة.

كما أن التجديد إنما ينهض بدوره في الكشف عن جوهر الأصول ومقاصدها حين يعلوها غبار الابتداع، فيطمس معالمها بالزيادة أو الانتقاص أو سوء الفهم وفساد التأويل، والتجديد يطال باستمرار مناهج الفهم والإفهام لهذه الأصول والأركان، بحسب معطيات الواقع وتجدد الآليات والأدوات، والعقيدة من جملة الدين بل هي أساسه، و لا شك أن الإيمان بالله تعالى هو الركن الركين في العقيدة، والمحرك الفاعل لعجلة المؤمن في الحياة.

ولما كانت المعرفة الإنسانية بناء تراكميا؛ يبني اللاحق فيها على موروث السابق ويواصل، فإننا بحاجة أكيدة إلى التعرف على موروثنا الحضاري في مجال الاعتقاد في الله، لنبحث مجالات التجديد فيه.

بيد أن المصدر الأول لمعرفة الله تعالى وتصحيح التصور حوله، وغرس الإيمان به في النفس؛ هو كتابه الخاتم القرآن الكريم، الذي ما فتئ العلماء يعكفون عليه: شرحا وتدبرا وتفسيرا، ومن هؤلاء المفسرين الذين عملوا على إصلاح النفوس وتطهير العقائد بالقرآن: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، وبعد اطلاع متواضع على تفسيره وجدت فيه قضايا علمية وطرق منهجية في العرض؛ جديرة بالبحث والدراسة، ذلك أن تفسير الشيخ هو تفسير اجتماعي إصلاحي، عرضه على شكل دروس شفوية في المسجد، كان يهدف ا إيصال

هداية القرآن إلى كل البيوت، وإلى كافة شرائح ا تمع، ومن القضايا التي أولى ا الشيخ عناية كبيرة في تفسيره، قضايا الإيمان بالله وتوحيده، نظرا لأهميتها.

ولم أجد –في حدود علمي- من بحث هذا الجانب الهام من تفسير الشيخ، فكان ذلك دافعا لي ومحفزا لاختيار هذا الموضوع للبحث، من أجل كشف آراء الشيخ في مختلف مسائل الإلهيات، وبيان منهجه في عرضها، حتى يستفيد منه الباحثون والدعاة في مواجهة تحديات العقيدة، وتيارات الشرك والإلحاد؛ المتجددة في كل عصر ومصر.

هذا وقد سبقت عدة دراسات وأبحاث، تناولت جوانب عدة من فكر الشيخ بيوض – شرعية، اجتماعية، سياسية...- من بينها: كتاب الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، للدكتور محمد ناصر، وكتاب الشيخ بيوض المصلح المربي، للدكتور محمد ناصر بوحجام، كما تناولت الباحثة نادية وزناجي في أطروحتها للماجستير موضوع: منهج الشيخين ابن باديس وبيوض في التفسير.

أما إشكالية هذا البحث فيمكن صياغتها كالآتي: **ما هي مواقف الشيخ بيوض من مسائل الإلهيات التي كان يبحثها من خلال القرآن الكريم؟ وكيف كان منهج عرضه لها؟** وقد حاولت حل هذه الإشكالية من خلال اتباع مناهج متكاملة تفرضها طبيعة الموضوع وهي:

الاستقرائي والوصفي: لتتبع رأي الشيخ في المسألة الواحدة من خلال تفسيره، ثم عرضه ووصفه. **التحليلي**: لتحليل الآراء والمواقف ونقدها. **الاستنتاجي**: لاستخلاص واستنتاج قواعد منهج الشيخ في الموضوع.

وقد قسمت البحث إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، تطرقت في التمهيد إلى سيرة الشيخ بيوض ومميزات شخصيته، ثم تفسيره للقرآن الكريم، وأخيرا مذهبه العقدي، وفي الفصل الأول تناولت البحث العقدي عند الشيخ من خلال مبحثين، الأول لمكانة العقيدة من تفسير الشيخ والثاني لمنهج الشيخ في بحث العقيدة، وفي الفصل الثاني تناولت منهج الشيخ في بيان وجود الله تعالى من خلال مبحثين، الأول لمعرفة الله تعالى عند الشيخ،

والثاني للاستدلال على وجود الله تعالى عند الشيخ، وفي الفصل الثالث تناولت منهج الشيخ في بيان وحدانية الله تعالى، من خلال ثلاثة مباحث، الأول لحقيقة الوحدانية وأركانها عند الشيخ، والثاني لحقيقة الشرك وأقسامه عند الشيخ، والثالث لآثار الإيمان بالوحدانية عند الشيخ، وفي الفصل الرابع تناولت منهج الشيخ في بيان صفات الله تعالى من خلال أربعة مباحث، الأول للصفات الذاتية، والثاني للصفات الفعلية، والثالث للصفات المتشابهة، والرابع لمنهج الشيخ في عرض الصفات.

هذا وقد وضعت في نهاية كل فصل أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم لخّصتها جميعا في خاتمة البحث، وأردفت كل ذلك بأربعة فهارس، فهرس للآيات وآخر للأحاديث وآخر للمصادر والمراجع ثم أخيرا فهرس للمحتويات.

وبما أن كل بحث يعتمد على مصادر ومراجع، فإن المصدر الأساس الذي اعتمدته بعد القرآن الكريم هو تفسير الشيخ بيوض الموسوم بـ: في رحاب القرآن، بيد أنه غير كامل، إذ يعد نصفه الأول مفقودا، أي من سورة الفاتحة إلى الآية 69 من سورة الإسراء، ثم إنني لم أعتمد أساسا إلا على الأجزاء المطبوعة منه، إلى غاية وضع خطة البحث، أي من الجزء الأول الذي يضم تفسير الإسراء –بدءًا من الآية 70-، إلى الجزء الثاني عشر الذي يضم تفسير سورتي السجدة والأحزاب – وهو ما يشكل الربع الثالث من القرآن تقريبا-، ذلك لأن تفسير الشيخ لا يزال في طريق الطبع والنشر، حيث ينشر في كل سنة جزء واحد منه، وآخر جزء طُبع منه لحد الآن هو الجزء الرابع عشر، ويضم تفسير سورتي ياسين والصافات.

إضافة إلى ذلك المصدر الأساس، فقد اعتمدت مصادر ومراجع متنوعة في العقيدة والتفسير، للإباضية –مذهب الشيخ- ولغيرهم، دون أن أُغْفِل الرجوع إلى بعض الموسوعات والمراجع في العلوم الكونية، لتوثيق وتأييد حقائق علمية ذكرها الشيخ في تفسيره.

أما بالنسبة للصعوبات، فلم أُعانِ إلا من عقبة أساسية، وهي عدم اكتمال تفسير الشيخ طباعةً ونشرا –للأسباب المذكورة-، حيث أعتبر هذا الأمر عقبةً في سبيل استكناه صورة واضحة وشاملة لآراء الشيخ، ومنهجه في عرض مسائل الإلهيات من خلال كامل القرآن الكريم، خاصة إذا علمنا أن رحلته مع التفسير استغرقت ما يقارب نصف قرن من الزمان، ولعل الله تعالى يقيض لهذا التفسير بعد اكتمال صدوره، من يواصل دراسة آراء الشيخ بيوض في الموضوع –إن شاء الله-.

وأخيرا إذ أُ ي هذا البحث المتواضع، أحمد الله تعالى حمدا كثيرا على منه وتوفيقه، وأسأله حسن القبول وسعة العفو على كل خطأ وتقصير في عملي، إنه سميع قريب مجيب. وأتقدم بالشكر الجزيل والدعاء الخالص لكل من ساهم في إبراز هذا البحث إلى الوجود، وأخص بالذكر أستاذي الدكتور: لخضر شايب، الذي حاز لي فضل إشرافه على البحث، فلم يدخر جهدا في توجيهي وإرشادي إلى الفكرة السليمة والمنهج السديد، فاستفدت كثيرا من علمه وتجربته، فالله أسأل أن يتقبل منه ويجازيه عني أحسن الجزاء.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

السبت 28 ذي الحجة 1426هـ

28 جانفـ ـي 2006م

صالح محمد

حمدي

تمـهيـد

أولا: سيرة الشيخ بيوض ومميزات شخصيته

ثانيا: تفسيره للقرآن الكريم

ثالثا: مذهبه العقدي

أولا/ سيرة الشيخ بيوض ومميزات شخصيته

1/ سيرة الشيخ بيوض[1]:

* هو إبراهيم بن عمر بن بابه بن إبراهيم بيوض، وأمه: عائشة بنت كاسي أولاد ون، ولد –رحمه الله- يوم 11 من ذي الحجة سنة 1316 هـ/ 21 أفريل 1898م بمدينة القـرارة مـن وادي ميزاب، جنوب الجزائر.

* دخل المدرسة القرآنية في سن مبكرة، واستظهر القرآن الكريم سنة 1911م -ولمـا يتجـاوز الثانية عشرة- عند شيخه: محمد بن الحاج يوسف العطفاوي، والتحق بعد ذلك بحلقة "إيروان"[2]، ثم تدرج في طلب علوم اللغة العربية، وعلوم الشريعة الإسلامية.

* من أبرز مشايخه في مختلف مراحل تكونه، وفي شتى فنون العلم والحياة:

1. الشيخ إبراهيم بن عيسى الابريكي (1273-1329 هـ/1857-1911م)[3].

---

[1] - اعتمدت في الترجمة لحياة الشيخ المراجع الآتية:

* بيوض، إبراهيم بن عمر: في **رحاب القرآن** (**تفسير سورة الإسراء**)، مقدمة المحرر: عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، نشـر: جمعية التراث –القرارة- غرداية، ط2: 1992.

* في **رحاب القرآن** (**الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض**) مهرجان ختم تفسير القرآن الكريم، مقدمة محمد بن صالح ناصر، نشر جمعية التراث –العطف- غرداية، ط: 1989.

* محمد بن قاسم ناصر بوحجام: **الشيخ إبراهيم بيوض (المصلح المربي)**، مكتبة الجيل الواعد، سـلطة عمـان، ط1: 1425 هـ/2004م.

* محمد بن موسى بابا عمي: **الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض**، نشر: الكشافة الإسلامية الجزائريـة –القيـادة العامـة والمحافظة الولائية غرداية، ط: 1417 هـ/ 1996م.

[2] - حلقة "إيروان": هيئة دينية في ميزاب، تندرج ضمن نظام العزابة، وهي هيئة طلبة العلم؛ الحافظين لكتاب الله.

[3] - من علماء القرارة الأعلام، تعلم بمدينة الجلفة، ثم التحق بعهد الحاج محمد الشيخ بلحاج بالقرارة، ثم بمعهد الشيخ اطفـيش ببن يزجن، وعند عودته إلى بلدته القرارة؛ فتح معهدا للدراسات الابتدائية والثانوية، فتخرج منه الجيـل الأول للإصـلاح في القرارة، منهم المشايخ: إبراهيم بيوض وإبراهيم أبو اليقظان وقاسم بن الحاج عيسى الشيخ بلحاج... وقد خلـف الابريكـي شيخه الحاج محمد الشيخ بلحاج –بعد وفاته- في منبر الوعظ بالمسجد، فحارب الجهل والفساد ومختلف البدع.

-بتصرف- عن: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب الإسلامي)** من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، نشر جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، طبع دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2: 1421هـ/2000م، ج2/ص26-27.

2. الشيخ الحاج عمر بن يحي المليكي (1275-1339هـ/1858-1921م)[1].
3. الشيخ عبد الله بن إبراهيم أبو العلا (1300-1379 هـ/ 1882-1960م)[2].

ولم يقتصر الشيخ بيوض على التتلمذ النظري على شيوخه، بل كان كثير الملازمة لهـم، وكـانوا يخصونه بحبهم الشديد، فحظِي بتكوين تطبيقي يعنى بتزكية النفس، وتنميـة القـدرات العقليـة، والجسمية، فجمع بذلك الأسس الثلاثة للتربية الحقة: الروح، والعقل، والجسد.

* حب المطالعة والاعتماد على النفس في توسيع المعارف (العصامية)؛ هما من أبرز سمات الشيخ منذ فُتوته، وقد كان من رواد نادٍ لشيخه الحاج بكير العنق، يجتمع فيه سراة القوم لمطالعـة مـا يصلهم من كتب ومجلات؛ من المشرق خاصة، ومتابعة قضايا العـالم الإسـلامي ومسـتجدات أحداثه، وعنها يقول الشيخ: «هذه ا الس التي كانت تناقش فيها كل مشاكل البلد، وتشرح فيها كل سياسته، فعرفت ما لم أكن أعرف من أسرار ا تمع والإصلاح؛ فثقف عقلي ما أسمـع ومـا أرى، وعلمني أساليب النضال، وأرهف حسي، ورباني تربية اجتماعية ممتازة، وكانت هذه ا الس وخدمة الشيخ وملازمته؛ مدرسة عظمى لي، استفدت منها ما لا أجده في الكتب!»[3]

* وقد تأثر الشيخ في فكره وإصلاحه بشخصيات علمية كثيرة، لعل من أبرزها شخصية الشيخ

---

[1]- تلقى تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه القرارة، ثم انتقل إلى غرداية ودرس عند الشيخ بابكر بن الحاج مسـعود، ثم أكمـل دراسته العليا عند الشيخ امحمد اطفيش بين يزجن، وتخرج سنة 1896م، حيث أسس معهدا لتعليم أبناء القرارة شتى العلـوم، وكان واعظا وإماما له دور في التربية وإصلاح ذات البين، ويعتبر معهد الحياة امتدادا لمعهده، إذ أن مؤسسيه من كبار طلبتـه، وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم بيوض . تولّى مشيخة مسجد القرارة بعد وفاة الشيخ إبراهيم الابريكي سنة 1911م، وكان يرسل إلى شيخه اطفيش بعثات علمية ابتداء من سنة 1907م، وبعد وفاة شيخه توجهت تلك البعثات إلى جامع الزيتونة بتونس، بدءا من سنة 1916م. كان عضوا بارزا في الجمعية السرية بميزاب، التي تعتبر من فروع الجامعة الإسلامية بإستنبول خلال الحـرب العالمية الأولى. من أشهر تلاميذه: المشايخ إبراهيم أبو اليقظان وإبراهيم بيوض وسعيد شريفي (الشيخ عـدون)...وغيرهـم. **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص313-314.

[2]- ولد في القرارة، تتلمذ على يد الشيخ إبراهيم الابريكي، ثم انتقل إلى معهد الحاج عمر بن يحيى، وكان ضمن البعثة الأولى إلى قطب الأيمة الشيخ اطفيش بين يسجن سنة 1910م. خلف الشيخ الابريكي بالمعهد سنة 1911م، ثم خلف الحاج عمر بـن يحيى مدرسا، وبوفاة الابريكي خلفه في الإشراف على تلاميذه النجباء، منهم الشيخ إبراهيم بيوض، وتولّى دروس الـوعظ في المسجد سنة 1921م، وقد ساند الشيخ بيوض في حركته الإصلاحية. **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص264-265.

[3]- دبوز، محمد علي: **أعلام الإصلاح** في **الجزائر**، مطبعة البعث، قسنطينة-الجزائر، ط1: 1394هـ/1974م، ج2/ص153.

امحمد بن يوسف اطفيش (1237-1332 هـ/ 1821-1914م)[1]، فكان يعده آيـة في التحقيـق، ويعتبر العمل التربوي والإصلاحي الذي قام به مكملا لمسيرته، وقد تأثر كذلك بالإمام محمد عبده (1266-1323هـ/1849-1905م)[2]، وتبنى منهجه في التفكير والتفسير.

* كما كانت للشيخ مراسلات مع شخصيات محلية ووطنية وإسلامية، تربطه وإياهم روابـط مختلفة: علمية وفكرية وسياسية. فقد كان يراسل علماء في العالم الإسلامي، منهم: الشيخ مصطفى

1-أشهر عالم إباضي بالمغرب الإسلامي في العصور الحديثة، من عائلة شهيرة بالعلماء من بني يسجن، تلقى مبادئ العلوم من عدة مشايخ في ميزاب، ثم شمر عن ساعد الجد والتحصيل بعزيمة لا تعرف الملل، فنشأ عصاميا، لم يسافر للدراسة خارج موطنه، وجعل دأبه الحرص على اقتناء الكتب واستنساخها، فتجمعت لديه مكتبة غنية، تعتبر فريدة عصرها بالنظر إلى ظروف صاحبها، وبعده عن مراكز العلوم والعمران. وما كاد يبلغ السادسة عشرة، حتى جلس للتدريس والتأليف، ولّما بلغ العشرين أصبح عالِم وادي ميزاب، ثم بلغ درجة الاجتهاد المطلق في كهولته، كما يذكر ذلك بنفسه. أنشأ معهدا للتدريس ببني يسجن، تخرج فيه علماء ومصلحون ومجاهدون، انبثوا في أقطار المغرب والعالم الإسلامي، له منهج في التدريس يعتمد على استغلال الوقت، والتركيز في التلقين. تستمر دروسه طيلة أيام الأسبوع، من الضحى إلى الزوال، إلا يوم الجمعة، ثم يزيد دروسا في المساء بعد العصر. وكان غزير المادة، طويل النفَس، متفانيا في العلم، يدرس أحيانا أحد عشر درسا مختلفا في اليوم الواحد. وبلغ عدد تلاميذه العشرات، من أشهرهم: إبراهيم اطفيش، أبو إسحاق: نزيل القاهرة العالم المحقق، وإبراهيم بن عيسى أبو اليقظان: رائد الصحافة العربية في الجزائر، والشيخ أحمد الرفاعي من المدينة المنورة، وغيرهم كثير ممن بلغ المشيخة.

ومن أهم آثار الشيخ اطفيش تآليفه التي أغنى ا المكتبة الإسلامية، كما ونوعا، فقد عدها بعضهم وقال: إ َا تبلغ الثلاثمائة مؤلف، ما بين كِتاب ورسالة، شملت مختلف فروع المعرفة، في المنقول والمعقول من بينها:

- «تيسير التفسير»: طُبع مرتين، ويعاد طبعه الآن بتحقيق الشيخ إبراهيم طلاي، وهو آخر ثلاثة تفاسير للقرآن؛ أنجزها في حياته وأهمها، إذْ كتبه بعد نضجه العلمي.
- «شرح عقيدة التوحيد»، لعمرو بن جميع، (مط).
- «شرح كِتاب النيل وشفاء العليل»: موسوعة فقهية جامعة لآراء المذاهب الإسلامية، يقارن فيها بين الأقوال بروح متفتحة، ويرجح ما يراه بالحجة والدليل، وأصبح هذا الكِتاب معتمد الإباضية في الفقه، وبواسطته تعرف العالم الإسلامي على الفقه الإباضي، واعتمدته لجان موسوعات الفقه الإسلامي في مصر والكويت. **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص399-405.

2- أحد رجال الفكر الإسلامي النابغين في مصر، وعالم من علماء الأزهر ومفتي الديار المصـرية، كـان خـبيرا بالشـريعة ومقاصدها ودارسا جيدا للقانون، حاول أن يضع تفكير المسلمين في خط انسجام مع المكتشفات العلمية وظـروف العصـر الحديث، وكان يدعو إلى تحرير الفكر من قيود التقليد، كان في صِغره من أتباع المفكر جمال الدين الأفغـاني الـذي نـادى بالصحوة العالمية للقوى الإسلامية، وقد أصدر معه في باريس جريدة العروة الوثقى، وقد اشتغل بالتدريس والتـأليف، مـن مؤلفاته: تفسير غير كامل للقرآن الكريم، رسالة التوحيد، شرح ج البلاغة، الإسلام والرد على منتقديه. وقد جمـع تلميـذه محمد رشيد رضا؛ آثاره في كتاب: تاريخ الأستاذ الإمام. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع: **الموسوعة العربية العالمية**، الرياض-السعودية، ط2: 1419 هـ/ 1999، مج16/ص107.

الزرقاء (الأردن)، والشيخ موسى الصدر (إيران)، والشيخ علي يحي امعمر (ليبيا)، والشيخ حمـزة الرفاعي (المدينة المنورة)، والشيخ عز الدين بليق (لبنان)، والشيخ أحمد حمـد الخليلـي (سـلطنة عمان)، والزعيم سليمان باشا الباروني (ليبيا) ... وغيرهم.

وكانت له مراسلات مع رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مثل رئيسها: الشيخ عبـد الحميد بن باديس، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ البشير الإبراهيمي، وكانت له علاقات حميمـة بالمفكّر الراحل مولود قاسم نايت بلقاسم.

وأكثر اتصالاته –بعلماء ميزاب- كانت بالشيخ عدون (شريفي سعيد)، والشيخ أبي اليقظان[1]، والشيخ محمد علي دبوز[2]، والشيخ عبد الرحمان بكلي، وشاعر الثورة مفدي زكرياء ...

* في سنة 1921م نجا الشيخ من وباء (التيفيس) الذي حصد المئات من الأنفـس في القـرارة، وأصاب الأمة في نخبة من علمائها، فكان من بينهم شيخه الحاج عمر بن يحي؛ الذي لازمه ملازمة مستمرة بعد وفاة شيخه الابريكي، فوجد الشيخ بيوض نفسه في الصف الأول، والمكان شـاغرا، فما كان من ابن العشرين ربيعا فقط؛ إلا أن تحمل الأمانة بإخلاص، وتلقّـف رايـة الإصـلاح بشجاعة، واستطاع لنبوغه أن يدخل عضوا في حلقة "العزابة"[3]، سنة 1922م، ثم انتخِب رئيسا لها بعد ذلك سنة 1940م.

[1]- إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان، (1306-1393هـ/1888-1973م)، من العلماء الأعلام في القرارة بميزاب، وقـف إلى جانب الشيخ بيوض في بداية مراحل حركته الإصلاحية، وعمل على تطوير التعليم بمعهد الحياة في القـرارة. كـان مـن الأعضاء الإداريين المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. يعتبر شيخ الصحافة الجزائرية المجاهدة، أصدر ثمـاني جرائـد وطنية إسلامية باللغة العربية، فيما بين: 1926-1938م، أسقطها الاستعمار الفرنسي الواحدة تلو الأخرى. من آثاره الفكريـة حوالي 60 عنوانا؛ بين كتاب وبحث ورسالة، في مختلف الفنون، من بينها: "سلم الاستقامة" في الفقه، (7أجزاء)، "سليمان باشا الباروني" (جزءان)، "الإسلام ونظام المساجد في وادي ميزاب" (مخ)...وغيرها. **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص27-29.

[2]- محمد علي دبوز (1337-1402هـ/1919-1981م) أديب ومؤرخ، تلقّى تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه "بريان" ثم انتقـل إلى القرارة ليزاول دراسته الثانوية بمعهد الحياة، على يد شيوخه: بيوض وعدون وغيرهما، ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس، وبعد ذلك بجامعة القاهرة بمصر؛ حيث تخصص في دراسة التاريخ والأدب وعلم النفس. عاد إلى ميزاب عام 1948م مدرسا بمعهـد الحياة، الذي قام بتطوير برامجه الدراسية. وقد برز الشيخ في مجال التأليف، ومن أعماله: - تاريخ المغرب الكبير (3 أجـزاء) – نهضة الجزائر الحديثة (3 أجزاء) –أعلام الإصلاح في الجزائر (5 أجزاء). **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص387-389.

[3]- "العزابة" هي الهيئة العليا المشرفة على الشؤون الدينية والاجتماعية في المجتمع الميزابي، وهو نظام خاص بإباضـية المغـرب الإسلامي. وللتوسع في التعريف بحلقة العزابة ودورها؛ انظر: محمد صالح ناصر: **حلقة العزابـة ودورهـا في بنـاء المجتمـع المسجدي**، نشر جمعية التراث – القرارة.

* وما لبث أن برزت شخصيته في هذه الحلقة، حتى كُلّف بمهمة التدريس والوعظ والإرشـاد بالمسجد، ومن ثَم توجه إلى الإصلاح الديني والاجتماعي، فكان على الشاب المُتحمس –الـذي آمن بأفكار محمد عبده الإصلاحية، ورأى مآسي الجمود الفكري، والتزمت المَقيت، والتعصـب الأعمى للآباء والأجداد- أن بدأ بإصلاح الهيئة الدينية، ثم مقاومة التقاليد البالية والخرافات السائدة في مجتمعه آنذاك.

* وقد أدرك الشيخ بِحِسه الإصلاحي، واطلاعه على الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي، أنه لابد من وضع خطّة عملية طويلة النفَس، تحول المسجد إلى منارة إشعاع، وتشد أنظار المسلمين فتجتمع القلوب حولها، لتمِدهم بالنور في جميع مناحي حيا م الدنيوية منها والأخروية، فما كان من الشيخ –كما يصفه محمد ناصر-: «إلا أن حول المسجد إلى (جامعة شعبية)، لا يقتصر فيهـا على الوعظ والإرشاد وحدهما، وإنما يقدم فيه أطايب المعرفة الإسلامية؛ مبسوطة على مائدة القرآن الكريم وسنة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)»[1].

* إلى جانب اهتمام الشيخ بالمسجد؛ اهتم بالتربية والتعليم أيضا، فأعطاهما كل ما يملك مـن جهد ووقت، ولذلك حرص على إنشاء حركة تربوية؛ تجمع إلى أصالة المبادئ، حداثة الوسـائل، فأسس معهد الشباب –معهد الحياة للتعليم المتوسط والثانوي- يوم: 18 شوال 1343 هـ ـ/ 21 ماي 1925م، رفقة أعلام مخلصين، من أمثال: الشيخ أبي اليقظان إبـراهيم (1306-1393 هـ ـ/ 1888-1973م)، والشيخ شريفي سعيد بن بلحاج "الشيخ عدون" (1319-1425 هـ/ 1902-2004م) –الساعد الأيمن للشيخ بيوض-.

وكان من ثمرات هذا المعهد أن تخرج منه –وما يزال- أفواج متعاقبة من الطلاب، فيهم العلماء والأطباء والمهندسون والكُتاب والشعراء والأساتذة الذين انبثوا في أنحاء القطر الجزائري وخارجه.

* ومن بين أهم عوامل تكون الشيخ بيوض؛ تدريسه لعدة كتب في المسجد والمعهد، من هـذه الكتب:

1. رسالة التوحيد، للعلامة محمد عبده.
2. مسند الإمام الربيع بن حبيب في الحديث.

---

[1]- **الإمام الشيخ إبراهيم بيوض،** في **رحاب القرآن (مهرجان ختم تفسير القرآن الكريم)** تقديم: محمد صالح ناصر، نشـر جمعية التراث، العطف – غرداية، 1989، ص 6.

3. فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ لابن حجر العسقلاني، والذي درسه في المسجد لمـدة أربعة عشر عاما، مما كون فيه ملكة حديثية.
4. كتاب طلعة الشمس في أصول الفقه، للعلامة عبد الله بن حميد السالمي العماني، مما مكنـه من معرفة استنباط الأحكام.
5. كتاب النيل وشفاء العليل في الفقه، للشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، مما مكّنه مـن الاطلاع على مختلف أبواب الشريعة.
6. كتاب مغني اللبيب في اللغة، مما قوى فيه رصيده اللغوي، ودربه على توظيف قواعدها في تفسيره لكتاب الله.
7. كتاب دلائل الإعجاز في البلاغة، للشيخ عبد القاهر الجرجاني، لمدة خمس سـنوات، ممـا مكّنه من استخراج وتذوق الأسرار البلاغية في القرآن.
8. كتاب الأمالي في الأدب العربي؛ لأبي علي القالي، لمدة إحدى عشر سنة.
9. كتاب السلم في المنطق؛ للشيخ عبد الرحمن الأخضري، مما كون فيه توظيف العقل المنطقي في تقبل الأحكام وبثها.

* ومن بين عوامل تكون الشيخ بيوض أيضا تتبعه للأحداث عن كثَـب؛ باسـتماعه اليـومي لمختلف الإذاعات، خاصة إذاعة لندن (BBC)، وبواسطة اهتمامه بالصحف والدوريات وا لات المختلفة؛ التي كانت تصدر من الجزائر وتونس ومصر ... ومن بينها:

- الرسالة: للشيخ أحمد حسن الزيات.
- الفتح والزهراء: للشيخ محب الدين الخطيب.
- المنهاج: للشيخ أبي إسحاق اطفيش.
- الفاروق: للشيخ عمر بن قدور الجزائري، وكذا مجلة العربي، ا تمع، الأهرام ... وغيرها[1].

* في سنة 1931م شارك الشيخ بيوض في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانتخـب عضوا في إدار ا، وقد أُسندت إليه مهمة نيابة أمين المال.

* في سنة 1937م أسس "جمعية الحياة"، رائدة النهضة العلمية والإصلاحية الحديثة بالقرارة.

* دخل معترك الحياة السياسية؛ بعد خروجه من الإقامة الجبرية في القرارة، والتي فرضها عليـه المستعمر الفرنسي سنة 1940م، لمدة أربع سنوات، إثر تحريضات من الشيخ؛ شديدة اللهجة ضـد

---

[1]- للتوسع في هذا العامل، انظر: محمد علي دبوز: **أعلام الإصلاح في الجزائر**، ج2/ ص 161-162، ج3/ ص 79-81.

الظلم والظالمين.

* وفي سنة 1948م كان عضوا في لجنة إعانة فلسطين، وكان من بين الأربعة المُمضِـين علـى برقيات ورسائل التأييد -باسم اللجنة-، وهم: الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ إبراهيم بيـوض، الشيخ الطيب العقبي، فرحات عباس.

* وفي ذات السنة، انتخِب نائبا لدائرة غرداية في المجلس الجزائري، وقد تصدى في هذا المجلـس للدفاع عن قضايا الإسلام والعربية والوطن؛ كما أُعيد انتخابه للمنصب نفسه سنة 1951م.

* أسهم بقسط وافر في حرب التحرير الجزائرية، برأيه ومساعيه الحميدة، فكان محور النشـاط الثوري ببلدته يديره بنفسه مباشرة، وبواسطة أبنائه الشباب من تلاميذه، بما في ذلك استقبال جنود جيش التحرير وضباطه، وإيواؤهم، وجمع الأسلحة والتموين، وإيصال ذلك إلى مختلـف مراكـز الثورة في الجبال الشرقية والشمالية.

* وقد قام بدور بطولي فعال في إحباط مؤامرة فصل الصحراء عن الجزائر؛ التي دبرتها فرنسـا لتمزيق الوحدة الجزائرية، فقد وقف الشيخ معارضا لتلك المؤامرة –رغم الإغراءات والتهديدات-، فكان الفضل يعود إليه في الإبقاء على وحدة التراب الوطني، والشعب الجزائري.

* في 19 مارس 1962م، وبعد إيقاف القتال –إثر مفاوضات إيفيان- عين عضـوا في اللجنـة التنفيذية المؤقتة، وأُسندت إليه مهام وزارة التربية، وبقي في هذا المنصب إلى يوم تسـليم السـلط للحكومة في سبتمبر 1962م.

* في سنة 1963م –وبعد مرحلة من الانقطاع- بعث الشيخ "مجلس عمي سعيد"؛ الذي يمثـل أكبر هيئة دينية واجتماعية في وادي ميزاب، يجتمع فيه ممثلو مجالس العزابة لمدن ميزاب وورجلان، للنظر في مستجدات المجتمع، وللإفتاء في النوازل ... وقد انتخِب الشيخ رئيسا لهذا المجلس إلى غاية وفاته.

* من تراثه الأدبي تفسير مسجل لأكثر من نصف القرآن الكريم، في أشـرطة سمعيـة، ودروس قيمة –مسجلة- لمناسبات دينية واجتماعية وسياسية، وفتاوٍ وأجوبة مخطوطة عن أسـئلة فقهيـة وعلمية، إلى جانب مراسلاته ذات الطابع العلمي، ومقالاته الرائعة في صحافة أبي اليقظان علـى الخصوص، والخطب الكثيرة في مختلف المناسبات.

* غربت شمس الشيخ بيوض عن أُفق العالم الإسـلامي؛ مسـاء الأربعـاء 08 ربيـع الأول

1401هـ/ 14 جانفي 1981م، عن عمر يناهز 83 سنة، رحم الله الفقيد رحمة واسعة، وأسكنه فسيح الجنان، آمين.

2/ بعض مميزات شخصية الشيخ بيوض:

لقد اجتمعت في الشيخ بيوض عدة خصائص ومميزات، فطرية ومكتسبة، أهلته لتبوء تلك المكانة العلمية والإصلاحية التي حظِي بها، وجعلته عالما مجِددا بحق مهيبا، مسموع الكلمة، مؤثرا في القلوب والعقول على حد سواء، ولعل أبرز تلك الخصائص ما يلي:

(أ) كان خطيبا فصيح اللسان، سواء كان يخطب بالعربية الفصحى، أم بالعربية الدارجة، أم باللهجة الميزابية المحلية[1].

(ب) حباه الله فطنة شديدة، وذكاء وقّادا، ودقّة في الملاحظة وإدراك خفايا الأمور، تجعله يرى في الكلمة التي يدلي بها الغير -ويحسبها الناس غير ذات قيمة- يرى فيها دلالات جمة[2].

(ج) إلى جانب فصاحته وذكائه، كان ذا حافظة قوية، وخاطرة حاضرة، تغرف في الاستشهاد من معين الكتاب والسنة، وتستمد من الأمثال والحِكَم والأشعار، ومن خلاصة تجاربه في الحياة ومعاشرته للناس، ومطالعاته الكثيرة المتنوعة[3].

(د) كان بارعا في التحليل، والإفاضة في الكشف عما يخفى عن الإنسان البسيط، وكان يقارع الحجة بالحجة، فيتتبع الحجج التي يتمسك بها الرأي الآخر، ويرد عليها بحكمة ومنطق سليم[4]، سواء كان هذا الآخر أضرابه من العلماء -القدامى والمحدثين-، أو المفسدين والمغرضين.

(هـ) كما أوتي قدرة على بسط الموضوع ونشره، وعلى الاسترسال في التفسير والتوضيح[5]، «وقد يستمر به المقام خطيبا أو واعظا، عدة ساعات لا يتلجلج له لسان، أو يضعف له صوت، والناس أمامه يتابعونه بإعجاب لتدفقه البلاغي، وسعة علمه، ووضوح طريقته»[6]، بل قد يستغرق في تحليل الموضوع الواحد؛ أياما عديدة بدروس متواصلة، مثل موضوع الهجرة النبوية ومغازيها، إذ

---

[1]- محمد ناصر: في **رحاب القرآن**، ص 8-9، محمد ناصر بوحجام: مرجع سابق، ص25.

[2]- (م.س)، ص 24، عيسى الشيخ بلحاج: مرجع سابق، ص 26.

[3]- محمد ناصر: في **رحاب القرآن**، ص 9.

[4]- محمد ناصر بوحجام: مرجع سابق، ص 24.

[5]- (م.س).

[6]- محمد ناصر: في **رحاب القرآن**، ص 09.

ألقى فيه حوالي ثمانية دروس، وفي تحليل حادث صلح الحديبية، ألقى ستة عشر درسا –تقريبا-[1].

(و) كان يجمع إلى أصالة مبادئه وثقافته الإسلامية الواسعة، تفتحا وتجديدا في أفكاره، فكان من أبرز صفاته؛ متابعة الأحداث الوطنية والعالمية عن قرب، وذلك بحرصه على قـراءة الـدوريات، واقتنائه لما ينشر في عالم الكتاب، من كتب جديدة[2].

(ي) كما كان يمقُت التعصب المذهبي[3]، ويدعو إلى وحدة المسلمين وتكاتفهم في خدمة مبادئ دينهم وأصوله، وإن تعددت مذاهبهم في الفروع، يقول محمد ناصر: «وأحسب أن حرص الشيخ بيوض أن يجعل من المسجد مدرسة؛ تربي المسلم الصحيح، وتنقي عقيدته من التعصب المَقيـت، والنظر الضيق، هو الذي دفع به إلى شرح صحيح البخاري في مدى أربعة عشر عاما، فقدم بذلك الدليل العملي، حين تجاوز بعض الذين يقفون عند حدود الكتب المذهبية لا يتعدو ا»[4].

ثانيا/ تفسيره للقرآن الكريم

1/ رحلته مع التفسير:

كانت للشيخ بيوض رحلة –روحانية وعلمية- متميزة مع القرآن الكريم، فقد أتم حفظه وهـو ابن الثانية عشر، وجلس للناس يفسره –معتمدا على تفسير البيضاوي بداية- وهو ابن العشـرين ربيعا[5]، وعاش مع تفسيره زهرة شبابه، وتمام نضج عقله وتجربته، حتى اختتم رحلته المباركة عنـد خريف العمر؛ قُبيل وفاته ببضعة أشهر فقط.

ولْنترك قلم محمد صالح ناصر[6]؛ يصف لنا بوصف بليغ وموجز، رحلة شيخه بيوض مع التفسير، حيث يقول: «كان اللقاء الأول للشيخ مع كتاب الله مفسرا سنة (1921م) وهو ما يزال شابا في

---

[1]- محمد ناصر بوحجام: مرجع سابق، ص 24-25.

[2]- محمد ناصر: في **رحاب القرآن**، ص 09.

[3]- محمد ناصر بوحجام: مرجع سابق، ص 26.

[4]- محمد ناصر: في **رحاب القرآن**، ص 07.

[5]- محمد بابا عمي: مرجع سابق، ص 16.

[6]- «الدكتور محمد صالح ناصر، أحد تلاميذ الشيخ البارزين، ومن رواد الأدب العربي المعاصر، ومؤسس جمعية التراث، درس في معهد الحياة بالقرارة وفي جامعة الجزائر، وفي معهد القضاء الشرعي بسلطنة عمان، له عدة مؤلفات ودراسات»، المرجـع: محمد بابا عمي: (م.س)، هامش ص 16، محمد ناصر بوحجام: مرجع سابق، هامش ص 13. والدكتور محمد صـالح ناصـر يدرس حاليا في كلية المنار للدراسات الإسلامية بالجزائر العاصمة.

العشرين من عمره، حين جلس إلى الناس يفسر القرآن، معتمدا في ذلك على تفسير البيضاوي، ثم انتقل في أواخر العشرينيات إلى تفسير الشيخ "محمد عبده" الذي كان يعجب بمنهجه الإصــلاحي إعجابا كبيرا، فاعتمد تفسيره لجزء "عم يتساءلون"، ولم تكن طريقته عندئذ واضحة متسلسلة، إذ كان مشغولا بالعمل الإصلاحي، وبالتعليم وإعداد الجيل لتحمل رسالته الإصلاحية والتربوية.

حتى إذا كان يوم السبت فاتح المحرم الحرام من سنة (1353 هـ) الموافق للسادس من ماي سنة (1935م)، قر منه العزم على بداية التفسير من أول (البقرة) بطريقة متسلسلة، منتظّمة، متتابعة.

وكان تفسيره عبارة عن دروس عامة تلقى في مسجد (القرارة)[1]، أمام عامة النــاس أســاتذة وطُلابا، مثقفين وأميين، رجالا ونساء، صغارا وكبارا، وكان الوقت المُخصص لهذه الدروس مــا بين العصرين، يلقيها باللغة العربية الفصحى مع شروح تداخلها اللّهجة الميزابية المحليــة أو اللغــة العربية الدارِجة، رغبةً منه في إيصال رسالة القرآن إلى كل قلب، وإبلاغ إشعاع الهدى الرباني إلى كل بيت.

وبما أن مدينة القرارة –وهي تحت الاحتلال الفرنسي مثل بقية القطر الجزائري- لم تعرف النور الكهربائي إلا في سنة (1958م)، وبما أن الناس لم يتفطنوا إلى الآلات الكهربائية فإن الدروس التي ألقاها قبل سنة (1961م) لم تحظ بالتسجيل الصوتي، لأن الناس لم يعرفوا آلات التسجيل، أو هم لم يهتدوا إليها إلا في هذا التاريخ.

ومن هنا، فإننا نسجل –والأسف مِلْء الجوانح- أن تفسير الشيخ من أول سورة البقرة إلى قوله تعالى: (ولَقَد كَرمنا بِني ءَادم وحملْناهم فِي الْبر والْبحرِ) الآية سبعين من سورة الإسراء، يعــد مفقودا فقدانا كليا، اللهم إلا ما سجله بعض الطلاب متناثرا في دفاترهم هنا وهناك، وهو لا يقدم صورة حقيقة عن تفسير الشيخ على كل حال.

وهكذا فبداية من يوم السبت 23 صفر 1381 هـ الموافق للخامس من شهر أوت 1961م، بدأ التسجيل الصوتي لتفسير الشيخ؛ بداية من قوله تعالى "ولقد كرمنا بني آدم" ...

وهكذا دأب الشيخ على التفسير مجتهدا، مواظبا، لا يثنيه عنه إلا عائق من ســفر، أو مــرض، أو

---

[1]- القرارة –مدينة الشيخ ومسقط رأسه- هي إحدى مدن وادي ميزاب السبع، تقع جنوب الجزائر، وتبعد عن غرداية عاصمة ميزاب ومقر الولاية بـ 116 كلم، ويذكر المؤرخون أن تاريخ نشأة القرارة يعود إلى سنة 1040 هـ.
-أما المدن الأخرى فهي: العطف، مليكة، غرداية، بني يسجن، بنورة، بريان.

انشغال بمهمة من مهمات البلاد والعباد، وحفّت به عناية الله تكلؤه قرابة ستين سنة، وهو يحلـق في رحاب القرآن الكريم، ويغوص في بحار علومه اللّدنية، واعظا مرشدا، موجها مربيـا، جامعـا موحدا، إلى أن ختمه بسورة الناس بعد صلاة العشاء، من يوم الثلاثاء 26 ربيع الأول 1400 هـ الموافق لـ 12 فيفري 1980م.

وقد أقامت الجزائر حكومة وشعبا؛ مهرجانا عظيما بمدينة القرارة، تتويجا لهذه المسيرة النورانية، وتخليدا لهذه المناسبة العظيمة التي حضرها جمع غفير من العلماء والفضلاء، وكان ذلك يوم الجمعة التاسع من رجب سنة 1400 هـ، الموافق لـ 23 ماي من سنة 1980م. وكان المهرجان مشـهدا عظيما، يكرم فيه كتاب الله وحملة كتاب الله، ومفسر كتاب الله[1].

وكأن الله قدر أن ينهي مسيرة الشيخ الدنيوية بهذا الإكرام، فلم يعش بعدها سوى سبعة أشهر، أسلم الروح عندها لبارئها حتى تلقى الجزاء الأخروي الخالد في جنات النعيم برحمته ورضـاه إن شاء الله»[2] إ هـ كلام محمد ناصر.

بعد هذه الرحلة المباركة للشيخ بيوض مع القرآن، قيض الله لتفسيره المسجدي الشفوي؛ مـن يحمل -بإخلاص- هم إخراجه من الأشرطة السمعية وتحريره في دفاتر مقروءة، ومنها عرف طريقه إلى الطباعة منذ سنة 1992م أجزاء متتابعة بدءا من تفسير سورة الإسراء، وآخر جزء نشرته جمعية التراث بالقرارة هو الجزء الثالث عشر الذي يضم تفسير سورتيْ: سبأ وفاطر، وذلك في رمضـان 1425هـ/2004م، والمحرر لهذا التفسير هو أحد تلاميذ الشيخ النجباء: الشيخ عيسى بـن محمـد الشيخ بلحاج[3] –حفظه الله- أستاذ اللغة العربية بمعهد الحياة.

2/ خصائص منهجه في التفسير:

لقد تضافرت في شخصية الشيخ بيوض وتفسيره عدة خصائص منهجية، جعلت منه مفسـرا متميزا، ومؤثرا في بيئته المحلية الميزابية، والوطنية عموما، ويمكن أن نجمل أبرز الخصائص في النقاط

---

[1]- وقد طبعت جمعية التراث كتابا يحوي بين دفتيه الكلمات التي ألقيت بالمناسبة، تحت عنوان: "في **رحاب القرآن**"، إعـداد: محمد صالح ناصر.

[2]- تفسير سورة الإسراء، مقدمة محمد صالح ناصر، ص 6-8، وللتوسع في رحلة الشيخ مع تفسير القرآن انظر: دبوز: **أعـلام الإصلاح** في **الجزائر**، ج3/ ص 124 وما بعدها، وكذا كتابه: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، المطبعة العربية، غرداية – الجزائر، ط1: 1969م، ج3/ ص 71 وما بعدها.

[3]- لمعرفة مراحل إعداد هذا التفسير محررا، انظر: مقدمة **تفسير سورة الإسراء**: ص8-21.

الآتية:

***الخاصية الأولى:**

كان الشيخ رجلا قرآنيا بحق، أحب كتاب الله، وحفظه في صدره حفظا راسخا منذ طفولته، لا يظفر بسعادته إلا في تلاوته؛ ولذا داوم عليه العمر كله: قراءة وتدبرا؛ اتباعا وتبليغا، يقول تلميذه المؤرخ؛ محمد علي دبوز عنه: «كان الشيخ بيوض قرآنيا، لا يجد نشوة نفسه، و جة خاطره إلا في القرآن، إذْ كان يتلوه ويتدبر معانيه. وكان يتلوه من المصحف، ويتلوه من حافظتـه، ويتلـوه في مجلس التلاوة في المسجد، وكان يفزع إلى القرآن في وحدته في مرضه، فيتلوه من حافظته، فتطول تلاوته، لا يتعب ولا يمل، لانتشائه به»[1].

فبامتزاج القرآن بعقل الشيخ ووجدانه –حيثما حل وفي أي وقت كان- أُوتيَ سـجِية وقـوة ذهنية على استحضار الآيات المناسبة، في الوقت المناسب، للموضوع الذي هو بصدده، سواء كان في درس تفسيره أو غيره، لغرض الاستشهاد، واستقراء الباحث لتفسير الشيخ أحسن دليل علـى ذلك.

وقد وصف محمد علي دبوز أثر تلك الخاصية على الشخصية العلمية لشيخه بقوله: «إنه لـولا حفظه للقرآن كله، وتدبره الدائم له، ما عرف معانيه، وما تداعت آياته في نفسه؛ فيتذكر الآيات الكثيرة في موضوع ما يفسره»[2].كما أوعز محمد دبوز الاستعداد النفسي عند شيخه لتفسير كلام الله، إلى أدواته الفطرية والمكتسبة التي أهلته لذلك، فقال: «وكان الشيخ بيوض بفصاحته النادرة، وذكائه الوقّاد، وطبعه الأدبي، وسعة علمه في العربية والشريعة، ومعرفتـه بـا تمع وأمراضـه، وبالنفس البشرية وخصائصها، كان ذه القوى و ذه الأدوات مستعدا كل الاسـتعداد لتفسـير كتاب الله»[3].

***الخاصية الثانية:**

كان الشيخ قد رسم هدفا واضحا محددا، لتفسيره كتاب الله تعالى –وهـو مقصـد القـرآن ومنهجه- وهو هداية النفوس، كما جاء في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: (ونزلْنا علَيك الْكِتـاب

---

[1]- دبوز: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 131.

[2]- دبوز: **ضة الجزائر الحديثة**، ج3/ ص 76. وانظر أيضا: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 131.

[3]- دبوز: **ضة الجزائر الحديثة**، ج3/ ص 72.

ِتبيانا لكُل شيءٍ وهدى ورحمةً وبشرى لِلْمسلِمِين) (النحل: 89).

فمن منطلق القرآن؛ لم يكن الشيخ يفسره تقليدا للعلماء، ولا مفاخرة للناس، إنما كان يقصـد ذيب النفوس بأخلاق القرآن، وتطهيرها من العقائد الزائغة، وترسيخ العقيدة الصـحيحة فيهـا، وإصلاح ا تمع ونظُمه، ثم تثقيف العقول بثقافة القرآن وعلومه[1].

يقول الشيخ بيوض عن مقصد القرآن –الذي انتهجه هو في تفسيره-: «والقرآن كمـا هـو معروف عنه؛ أنه كتاب هداية وإرشاد، و ذيب للنفوس، ودعوة للناس إلى ما يسعدهم في الـدنيا والأخرى، وهذا هو المقصد الأول من القرآن الكريم، وما قصص القـرآن وأحكامـه وأوامـره ونواهيه، إلا وسائل لتحقيق هذا»[2].

ويقول محمد دبوز عن مقصد شيخه: «إن غرض الشيخ من التفسير؛ هو مراد الله من كتابـه: إصلاح النفوس، وتثقيف العقول، وتنظيم ا تمع، وخلق النهضة الصحيحة في المسلمين!»[3].

وكان من أهداف الشيخ من تفسيره؛ محاربة الأعداء الذين يتربصون به وبحركة الإصلاح، دوائر السوء، سواء منهم المستعمرون أو أذنا م من العملاء المفسدين، أو الجامدون –من أبناء جلدتـه- الذين قبعوا على ميراث الأجداد، وناوءوا كل تجديد وكل ذلك من أجل ألا تغتر م العامة، يقول محمد علي دبوز عن شيخه أنه «يرى القرآن أكبر سلاح يجهز به على خصوم النهضـة وأعـداء الدين ... وكان الشيخ في درس التفسير، يهجم على الجامدين أعداء النهضة فيبين بـدعهم الـتي تضر الدين، وجمودهم الذي يضر المسلمين، وينقض على الاستعمار وأذنابـه، ويـبين إلحـادهم وعدوا م للدين، وإضرارهم بالمسلمين، فتراهم العامة على ضوء القرآن في نكرهم؛ فتنبذهم –وقد كانت م مغترة- فينضم المترددون إلى زمرة الإصلاح، ويكونون من حزب الله»[4].

***الخاصية الثالثة:**

كان الشيخ –رحمه الله- يرى أن فهم القرآن وتدبره حقّا وواجبا على عموم النـاس، ولـيس حِكْرا على العلماء أو الطبقة المثقفة فحسب، لأجل ذلك كان تفسيره في شـكل دروس شـفوية

1- دبوز: ضة الجزائر الحديثة، ج3/ ص 73-74.

2- تفسير سورة القصص: ص 92.

3- دبوز: ضة الجزائر الحديثة، ج3/ ص 75.

4- (م.ن)، وانظر أيضا دبوز: أعلام الإصلاح، ج3/ ص 124.

يلقيها في المسجد –بيت الله- يتحدث فيها بلغة وبلهجة خطابية يفهمها كل عمار المسجد ورواده، صغارا وكبارا، رجالا ونساء، مثقفين وأميين، رغبةً منه في «إيصال الفهم إلى جميع طبقات المجتمع، وهو عبء ثقيل جدا، وبه امتاز عن سائر المفسرين الذين يخاطبون طبقة معينة من الطلبة في حلقات التدريس، أو الذين يجلسون إلى مكاتبهم يخاطبون بكتابهم العقول المثقفة المتعلّمة»[1].

فكان درس تفسير الشيخ ثلاثي اللغة، يلقيه بالعربية الفصحى، ممزوجة باللهجة الميزابية المحلية، وبالعربية الدارجة. ويتفاوت استعماله للميزابية؛ حسب تفاوت الموضوعات، خاصة الاجتماعية والخُلُقية التي هي ألصق بالمجتمع من غيرها[2].

كما كانت لهجة خطابه قوية رائعة، يشعر فيها المستمع حرارة وجدانه المتقد، واهتمامه الشديد بما يقول، أضِف إلى ذلك تدفق حديثه أثناء الدرس –من غير توقّف ولا تعثّر- لقوة فصاحته من جهة، وحسن إعداده للدرس من جهة أخرى، كل أولئك عوامل جعلت النفوس تصغي إليه في خشوع، والعقول تنتبه إلى منطقه؛ متيقظة لا تغفل[3]، وعن هذا الأثر يقول محمد دبوز: «فترى السكون سائدا في المسجد المكتظ، لتأثر الناس بالدرس وحسن استماعهم إليه ... وكأن المسجد ليس فيه إلا الشيخ الذي يجلجِل صوته الرخيم القوي في جنبات المسجد»[4].

***الخاصّية الرابعة:**

أما مرجعية الشيخ في إعداد دروس تفسيره؛ فتتمثل أساسا في كتاب الله تعالى –قراءة وتدبرا- قبل أي مرجع آخر، وفي هذا يقول الشيخ: «لقد أغناني كتاب الله عن كل كتاب في الوعظ والإرشاد! إنني أتخلص في درس التفسير بسهولة إلى المواضيع الاجتماعية التي أريد التحدث فيها، ومن درس القرآن بإمعان وجد فيه كل شيء، وأغناه عن كل شيء»[5]، وما فسر القرآن مثل القرآن.

ثم لم يستنكف الشيخ بعد ذلك عن العودة إلى بعض المصادر المهمة في التفسير، خاصة تفسير

1- **تفسير سورة الإسراء**، مقدمة المحرر: عيسى محمد الشيخ بالحاج، ص 31.

2- (م.س)، ص 32.

3- دبوز: **نهضة الجزائر الحديثة**، ج3/ ص 74.

4- (م.ن).

5- دبوز: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 125.

المنار –للشيخين محمد عبده، ومحمد رشيد رضا- اللّذين تأثر الشيخ بيــوض كــثيرا بمنــهجهما الإصلاحي، وحسن توظيفهما لمكتشفات العلوم الحديثة في بيان إعجاز القرآن وأســراره، يقــول محمد دبوز: «والشيخ بيوض يعتقد عقيدة الشيخ محمد عبده وتلاميذه في المشــرق والمغــرب: أن العلم قد ترقى في هذا العصر، فيجب أن ننتفع في تفسير القرآن بما وصل إليه العلم في هذا العصــر ... فنأتي بالجديد في التفسير، ونساير العصر المترقّي في العلم والحضارة، ونبين معجزة القرآن، وأنه كتاب الدهر، يليق لكل زمان ومكان»[1].

وبعد تجاوز الشيخ لتفسير سورة يوسف –حيث انتهى تفسير المنار- صار يعتمد على تفسيرين: روح المعاني للألوسي[2]، والتفسير الكبير للفخر الرازي، وقلما يعود إلى تفسير آخــر، إلا إذا أراد أحيانا معرفة قول الإباضية في بعض الأحكام الشرعية الواردة في الآية، فيرجع إلى كتاب: تيســير التفسير، للشيخ امحمد بن يوسف اطفيش. ولما طُبع تفسير: في ظلال القرآن، لسيد قطب، صــار الشيخ يرجع إليه مع المصدرين المذكورين سالفًا، وفي أواخر السبعينيات –تقريبا- وصل إلى الشيخ بيوض –من مصر- تفسير القرطبي[3]: الجامع في أحكام القرآن، وقد بلغ الشيخ حينها في التفسير؛ منتصف سورة الأحزاب، فاعتمده الشيخ ضمن قائمة مراجعه[4].

***الخاصية الخامسة:**

كان الشيخ في دروس تفسيره يتبع –غالبا- خطوات منهجية متسلسلة؛ هي غاية في الأهمية، تتمثل

---

[1]- دبوز: **نهضة الجزائر**، ج3/ ص 77، وانظر أيضا: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 125-126.

[2]- الألوسي، أبو الثناء محمود بن عبد الله (1217-1270هـ/1802-1854م)، فقيه ومفسر ومحدث، ولد في بغــداد وتلقّــى العلوم على شيوخ عصره، كان شديد الحرص على التعلم، اشتغل بالتدريس والتأليف في سن مبكّرة، فــذاع صــيته وكثُــر تلاميذه، تولّى منصب الإفتاء وبقي فيه حتى سنة 1263هـ، له عدة كتب قيمة، أبرزها تفسيره الكبير «روح المعاني في تفســير القرآن العظيم والسبع المثاني». **الموسوعة العربية العالمية**، مج2/ص629.

[3]- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (600-671هـ/1204-1273م)، فقيه مفسر وعالم باللغة، ولد في قرطبة ورحل منها بعد سقوطها إلى الإسكندرية ثم إلى صعيد مصر حيث استقر فيه، كان القرطبي عالما كبيرا منقطعا إلى العلم، وقد خلّــف 13 كتابا مابين مطبوع ومخطوط، أبرزها تفسيره الكبير «الجامع لأحكام القرآن الكريم»، وهو تفسير كامل عِني فيــه بالمســائل الفقهية، إلى جانب العلوم الأخرى، وكتاب: التذكرة بأحوال الموتى، والتقريب لكتاب التمهيد ... **الموسوعة العربية العالمية**، مج18/ص163.

[4]- دبوز: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 126، وانظر أيضا: **نهضة الجزائر**، ج3/ ص 76-77.

في النقاط الآتية:[1]

1. يبتدئ درسه دوما بدعاء مأثور، يتضرع فيه إلى خالقه بأن يكرمه بنور الفهم، ويفتح عليـه من حكمته وخزائن علمه.

2. يتولى أحد الطلبة تجويد الآيات التي يريد الشيخ تفسيرها، أو يتولى قراء ا بنفسه.

3. يذكر سبب نزول الآية في عصر النبوة، ومطابقتها لمختلف العصور.

4. يربط الآية بالتي قبلها، وكذا السورة بالتي قبلها، مبررا لطائف وأسرار هذا الربط، وأوجـه المناسبة، مما يؤكد إعجاز القرآن.

5. يشرح المفردات اللغوية، ويتوقف أحيانا عند النكت البلاغية، مبديا إعجابه ا –بما أوتي من حِس فني مرهف- ومذيقًا حلاو ا لمستمعيه.

6. يستحضر ما ورد في نفس الموضوع، من آيات مختلفة، ويقارن بينها لتكتمل الصـورة، لأن الآيات يكمل بعضها بعضا –كما يذكر الشيخ ذلك مِرارا-.

7. يذكر ما ورد في تفسير الآية عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) –إن وجد وصح-.

8. يعرض آراء بعض المفسرين الواردة في الموضوع، ويناقشها: موافقًا، أو مفَنـدا، أو مبـدِعا لرأي جديد.

9. يعرض على الآية قضايا ا تمع المعاصرة: التربوية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسـية –حسب موضوع الآية- التماسا لعلاج القرآن.

10. يتوجه إلى النفس البشرية بالعبرة والذكرى والموعظة الحسنة.

11. يستعمل في درسه أسلوب الحوار، ولفت الانتباه –حفاظا منه على تركيز المستمع وحضور ذهنه– فكثيرا ما يردد –مثلا- عبارات: "وانتبهوا جيدا"، "تذوقوا حلاوة المعنى"، "هل فهمتم؟"، "يجب عليكم أن تدركوا هذا" ...

12. يختم –عادةً- درسه بمحصلة للموضوع، ثم بدعاء الختام.

***الخاصية السادسة:**

إن المطلع على تفسير الشيخ بيوض، يلحظ فيه سمة أساسية وهي سمة الإبداع والتجديد، وقـد أشرنا إلى بعض ملامحها سابقًا، ولكن نزيد هنا إبراز أهمها في النقاط الآتية:

---

[1]- **تفسير سورة الإسراء**، مقدمة المحرر: عيسى محمد الشيخ بالحاج، ص 31-32.

1. قوة حاسته النقدية، وجرأته في الصدع بالحق، والإفصاح عن رأيه بجلاء دون وجل ولا تردد[1]، فكان بذلك يمقت التعصب المذهبي، وتكرار آراء المفسرين أو تقليدها عن غير بصيرة، يقول محمد دبوز: «والشيخ بيوض لا يقلّد غيره في التفسير ولا يتعصب لمذهبه، بل هو يتزود لدروسه من أحسن المراجع لكل المذاهب الإسلامية، فيطلع على أقوالها، فيقرر ما يراه موافقا، وقد ينبذها كلها، فيبين ضعفها، فيأتي هو بالشيء القوي الجديد من عنده»[2].

2. وتبعا لما سبق؛ كان الشيخ لا يعنى كثيرا بالخوض في المباحث الكلامية أو اللغوية، ولا الخلافات المذهبية في مسائل العقيدة أو الفقه[3]، لأن كل ذلك مخالف لغرضه من التفسير، ولوسائل تحقيق هذا الغرض، الذي يقول عنه الشيخ بنفسه: «إن غرضي من تفسير القرآن، هو تربية الناس بالقرآن، وتثقيفهم ووعظهم، ومعالجة أمراض النفوس كلها بالقرآن، فإنه شفاء لها كلها»[4]، ويقول عن وسائله وسبيله إلى ذلك: «لهذا أركّز الحديث على معاني القرآن، واستخراج الأسرار من الآيات الكونية التي ذكرها القرآن، والقصص الواردة فيه، لا أتعرض للنحو والإعراب -كما يفعل القدماء- إلا قليلا ...»[5].

3. وقد وفق الشيخ أيما توفيق في تحقيق غرضه، بعرض ا تمع ونفوس أفراده على علاج القرآن، فكانت الثمرة أن «رأى الناس في أنوار القرآن الكشافة؛ أمراض نفوسهم فتابوا منها، فازدادوا صلاحا واستقامة وحبا للخير ... وصارت القرارة هي حاملة لواء الإصلاح في جنوب الجزائر، ومعقلا عظيما من معاقله، ومن المنابع القوية للنهضة الإسلامية الجزائرية الحديثة، التي أورثت الجزائر حريتها واستقلالها»[6].

4. قدرة الشيخ على إسقاط سنن الأنفس وا تمع، على أحداث عصره، وبعد نظره في تحليلها واستشراف مآلها، على ضوء تلك السنن القرآنية، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر، من ذلك مثلا عمق تحليله لقصة ياجوج وماجوج الواردة في موضعين: سورة الكهف، وسورة الأنبياء،

1- **تفسير سورة الإسراء**، مقدمة المحرر، ص 31.

2- دبوز: **ضة الجزائر**، ج3/ ص 76.

3- مقدمة المحرر: ص 30.

4- دبوز: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 129.

5- (م.ن).

6- دبوز: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 124.

فبمناسبة تفسيره لقوله تعالى: (حتى إِذَا فُتِحت ياجوج وماجوج وهم من كُل حدبٍ ينسِلُونَ) (الأنبياء: 96)، وبعد تحليل الشيخ للقصة، أخذ يربطها ويفسرها بأحـداث وقعـت في التـاريخ الإسلامي، وهي الحملات التتارية والصليبية على بلاد المسلمين[1]، ثم زاد الشيخ فربطها بأحـداث عصره هو، وفسرها بما تنبأ حدوثه في المستقبل –وصدق حدسه في ذلك-؛ وهو ما نعيشه نحن، في واقعنا المعاصر على مشارف الألفية الثالثة، من الآثار السيئة للعولمة المتعددة الجوانـب، أو النظـام العالمي الجديد.

يقول الشيخ في هذا الشأن: «والعالم يتأثر بعضه ببعض، لأنه أصبح كدار واحـدة، أو غرفـة صغيرة، أو كحوض ماء صغير، تسقط فيه حصاة صغيرة، فتحدِث تموجات في كل أطرافـه، ولا يوجد تفسير للتموج، كحالة العالم اليوم، لأنه لم يعد هناك من يقول: "أنا في برج عاجي، لا أتأثر بما يقع من حولي" لا يقول هذا إلا غافل جاهل»[2]. ثم أعطى الشيخ مثالا قريبا جدا –من حيـث الزمن- من متابعة الناس للمستجدات اليومية لأحداث الوطن –تأكيدا وتوضيحا لفكرته- وهـو حادث التصحيح الثوري سنة 1965م، فقال: «وبالأمس فقط وقع انقلاب في الجزائر، فتحـدثت عنه صحف العالم كلها، لأن كل دولة تتأثر من قريب أو بعيد ذا الانقـلاب، فتعيـد نظر ـا وسياستها مع هذه الدولة، بحسب الوضع الجديد الذي طرأ فيها، وكأن الآية تشير إلى كسر جميع الحواجز، حتى يصبح العالم كله دارا واحدة»[3].

5. السمة الأخرى التي ميز الله تعالى الشيخ وحباه ا، هو ما يفتح عليه من أنـوار حكمتـه، ويلهمه إياه أثناء درس التفسير من معان لم تخطر بباله من قبل[4]، ويصرح –غالبا- بتلك الإلهامات في حينها، ويعبر عنها بعبارات مختلفة، فيقول: هذه بنت اللحظة، أو: في هذه اللحظـة بـدت لي ملاحظة، أو: هذا المعنى لم يخطر على بالي من قبل أبدا، أو: يبدو لي ... وهذه النكتة لم تخطـر لي إلا في هذه اللحظة[5]، هذه الميزة جعلت الأستاذين: محمد بابا عمي ومصطفى شـريفي –اللـذين يتابعان طبع أجزاء تفسير الشيخ، ويتكفّلان بوضع فهارسه- يخصصان فهرسا كاملا لكل جـزء،

---

[1]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 264.

[2]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 264.

[3]- (م.ن).

[4]- مقدمة المحرر، ص 29.

[5]- انظر مثلا: **تفسير سورة مريم**: ص 8، 17، 37، 50، **وتفسير سورة طه**: ص 274، 299، 313، 321 ...

باسم: "فهرس المسائل التي صرح فيها الشيخ برأيه أو أ ا بنت اللحظة".

ومرد هذه الميزة عند الشيخ، هو صِدق توجهه إلى الله تعالى، وتضرعه إليه أن يفتح عليه قبـل كل درس؛ بدعاء يستهلّ به حديثه، ويؤمن الناس على دعائه من بعده، يقول الشيخ: «إنني أحمـد الله تعالى على هذا الفتح في وقت الدرس، إنني أستعد لدرس التفسير من قبل على قدر الاستطاعة، وأبذل كل الجهد في ذلك، وأتوجه إلى الله بالدعاء في أول الدرس ليمِدني، وهذا الدعاء أرى أثره كثيرا في الإلهام، وما أجده في وقت الدرس ... وأنا لا أستطيع أن أعد المرات التي تصل المئـات، وهي التي أحِس فيها بمددٍ عظيم في الدرس لا أعرف سببه، وإنما هو من قِبل الله تبارك وتعالى»[1].

ثالثا/ مذهبه العقدي (المذهب الإباضي)

كان الشيخ إبراهيم بيوض –رحمه الله- إباضي المذهب، والمذهب الإباضي من أول المـذاهب نشوءا في التاريخ الإسلامي، بالنظر إلى التأثير العلمي والروحي الذي كان عند العلمـاء والأئمـة الأوائل في أوساط المسلمين، فقد كان إمام المذهب الأول: جابر بن زيد[2]؛ من كبار التابعين الذين نشروا الثقافة الإسلامية في القرن الأول الهجري، وقد عاش هذا الإمام ما بين سنتي 21-96هـ[3].

وأغلب القضايا العقدية التي اختلفت فيها الأمة، نشأت في الثلُثين الأخيرين من القـرن الأول الهجري، وقد حصر العلامة الشهرستاني هذه القضايا المختلَف فيها، في أربعة أصول كبرى[4]:

---

[1]- دبوز: **أعلام الإصلاح**، ج3/ ص 126-127.

[2]- أبو الشعثاء، الأزدي العماني (18-93هـ/639-711م)، ولد بقرية "فرق" بعمان، ولمّا بلغ أشده قصد البصرة، وهي يومها من بين عواصم البلاد الإسلامية في العلم والأدب والسياسة، واتخذها دار مقام ومدرسة علم. كان يتنقّل بينـها وبـين الحجاز، لاستزادة معرفة أو لتحقيق مسألة أو لملاقاة شيخ. روى الحديث عن ثُلّة من خيرة الصحابة منهم: عائشة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود ...ψ، ومن تلامذته: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وضمام بن السائب وقتـادة شيخ البخاري وعمرو بن دينار... كان جابر إماما في التفسير والحديث والفقه، ترك موسوعة علمية نفيسة تعرف بـ"ديوان جابر" في سبعة أحمال، وهو أول من جمع الحديث في ديوان، ومن أوائل المؤلّفين في الإسلام، إلا أن ديوانه ضاع وبقيت بعض فتاواه. ورواياته وآراؤه منتشرة في جلّ مصادر الشريعة، وبخاصة في المصادر الإباضية. وجابر هو إمام أهل الدعوة والاستقامة، وواضع قواعد الاجتهاد للمذهب الإباضي. **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص108-109.

[3]- علي يحي امعمر: **الإباضية** في **موكب التاريخ**، الحلقة الأولى: نشأة المذهب الإباضي، مكتبة الاستقامة –سـلطنة عمـان، ط2: 1989، ص 59.

[4]- الشهر ستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: **الملـل والنّـحل**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار صـعب، بـيروت، ط: 1986، ج1/ ص 14-15.

1. الصفات والتوحيد فيها.
2. القَدر والعدل.
3. الوعد والوعيد.
4. السمع والعقل والرسالة والإمامة.

وقد درس الإباضية –وفي مقدمتهم إمامهم: جابر بن زيد- قضايا الاختلاف تلك، كما درسها غيرهم من علماء الإسلام، وانتهوا فيها إلى الرأي والمذهب الذي اقتنعوا بصحته، مما يوافق كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) [1]، ويتماشى مع روح الإسلام وقواعده.

وقد اتخذ الإباضية الأصل الأول لمذهبهم -فيما يتعلّق بالبارئ سبحانه وتعالى- تنزيهه تعالى عن مشابهة الخلق؛ استنادا إلى الآيات المحكمات من كتاب الله[2]، فقد عرف الإمام السالمي[3] –مـثلا- التوحيد بأنه: «إفراد المعبود بالعبادة –بمعنى وحدته- والتصديق بها ذاتا وصفاتا وأفعـالا، فلـيس هناك ذات تشبه ذاته تعالى، ولا تقبل ذاته الانقسام، لا فعلا ولا وهما ولا فرضا، ولا تشبه صفاته الصفات، ولا يدخل أفعاله الإشراك، فإن الفعل له سبحانه خلقًا، وإن ينسب إلى غيره كسبا»[4].

---

[1]- علي يحي امعمر: **الإباضية في موكب التاريخ**، ص 60.

[2]- (م.ن).

[3]- الإمام عبد الله بن حميد السالمي (1286-1332هـ)، تلقى تعلمه في بلدته "الحوقين" بعمان، وقد حفظ القرآن على يد والده، وتعلم على يد الشيخ راشد بن سيف اللمكي،كما أنه تنقل إلى الشرقية سنة 1308هـ، فالتحق بحِلَق الأمير صالح بن علي الحارثي، فكان ذلك الالتحاق من مرحلة التنظير والدرس إلى مرحلة التطبيق والميدان، فقام السالمي مع شيخه صالح ومع معاصريه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالإصلاح في جميع الميادين، ولا أدل على ذلك من أن الإمامة قامت على أكتافهم، وقويت بتأييدهم. يعد السالمي علما بارزا في مسيرة النهضة العلمية والإصلاحية في عصره، فهو لا يعد مصلحا إجتماعيا على مستوى وطنه عمان فحسب، بل على مستوى العالم الإسلامي في بداية القرن الرابع عشر الهجري.كانت له علاقات مع كثير من علماء عصره، منهم الشيخ اطفيش الجزائري. كان همه الكبير هو قيام الدولة الإباضية والإمامة في عمان. ترك الإمام السالمي آثارا علمية قيمة في علوم الشريعة واللغة العربية والتاريخ، وما يزال بعضا منها مخطوطا، من آثاره المطبوعة: -تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، في التاريخ. -شرح الجامع الصحيح (مسند الإمام الربيع) في الحديث. -مشارق الأنوار، شرح أرجوزته المسماة "أنوار العقول في علم الكلام". جمعية التراث: **معجم أعلام إباضية المغرب والمشرق الإسلاميين وخراسان وخوارزم والهند والسند** (**معجم أعلام المشرق**)، برنامج كمبيوتر، إصدار 2005م.

[4]- السالمي، أبو محمد عبد الله بن حميد: **مشارق أنوار العقول**، مطابع العقيدة، سلطنة عمان، ط2: 1398ه/1978م، ص150

أما ما ورد في القرآن والسنة من نصوص يوهم ظاهرها التشبيه والتجسيم، فقد سلك الإباضية تجاهه مسلكا واضحا، وهو مسلك التأويل بما يقتضيه المعنى من سياق النص، وبما يحويه رصيد اللغة من المجازات والاستعارات والكنايات[1]، بناء على أن القرآن نزل بلسان العرب، وعلى سبيل المثال: تأويل الاستواء بالاستيلاء، واليد بالقدرة والنعمة، وما إلى ذلك.

وفي مسألة القَدر، فإن الإباضية –كما سلكت كثير من الفرق- اتخذت موقفا وسطًا، وهو أن الالتجاء إلى تحديد جِهتين للفعل الواحد: الخلق لله، والكسب للإنسان، ليس من قَبيل الشـركة، وإنما هو مخرج من الإشكال، إذ لم تزلْ المسألة من غوامض علم الكلام، لذا طغت على الفكـر الإباضي نسبة الاقتراب من الجبر حينا، كما طغت عليه نسبة الاقتراب من الاختيار حينا آخـر[2]، «إلاّ أن النزعة التي بقيت طاغيةً عند الإباضية عامة، هي تقوية نسبة الاختيار، حتى يتحمل الإنسان مسؤوليته، وتتجلّى الحكمة في الأمر والنهي، في ما يترتب عنهما من الثواب والعقـاب، وتتميـز حركات الاختيار عن حركات الاضطرار، مع اعتقاد أن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير»[3].

وفي مسألة الوعد والوعيد، يرى الإباضية أن أصحاب الكبائر –مشركين كانوا أم موحـدين- مخلدون في النار دائما، وأهل الطاعة مخلدون في الجنة دائما، بناءً على أن الله تعـالى صـادق في وعده ووعيده، وتبعا لذلك ذهب الإباضية إلى أن الشفاعة المحمدية لا تعني إخراج عصاة الموحدين من النار بعد أن يدخلوها -بوساطة النبي ρ-، وإنما هي شفاعة خاصة بالمؤمنين المُوفين بدينـهم، وتكون بزيادة درجاتهم في الجنة[4].

وقد استقرت آراء الإباضية في أكثر مسائل الخلاف، على الأصول المسـتمدة مـن الكتـاب والسنة، وقد عاصر إمام المذهب الأول: جابر بن زيد، عددا غفيرا من الصحابة، الذين رجع إليهم في كثير من مسائل الخلاف، باعتبارهم أساتذته الذين عرفوا من أسرار الإسلام وروحـه، مـا لم

---

[1]- الجعبيري، فرحات: **البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية**، نشر: جمعية التراث –القرارة، ط: 1987، ج1/ص274.

[2]- (م.س)، ج2/ص483.

[3]- (م.ن).

[4]- انظر: السالمي: مصدر سابق، ص 294 وما بعدها، واطفَيش، امحمد بن يوسف: **شرح عقيدة التوحيد**، تحقيق: مصـطفى بن الناصر وينتن، نشر جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، ط1: 1422هـ ـ/2001م، ص 532-539، وعلي يحي امعمـر: **الإباضية (دراسة مركزة** في **أصولهم وتاريخهم)**، المطبعة العربية، غرداية، ص 60.

يفهمه غيرهم، كأمثال عبد الله بن عباس، وعائشة أم المؤمنين، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر ψ وغيرهم[1].

وقد اعتبر الشيخ علي يحي امعمر؛ المذهب الإباضي أولَ المذاهب المعتدلة نشوءا، وأقر ـبها إلى عصر النبوة، وأفهمها لروح الإسلام، وأسرار التشريع، ذلك باعتبار أن آراء الإباضية اسـتقرت، قبل أن تتكون المذاهب الأخرى وتنتشر في أقطار العالم الإسلامي بمدة تطول أو تقصر[2].

---

[1]- علي يحي امعمر: **الإباضية** في **موكب التاريخ**، ص 60-61.

[2]- (م.س)، ص61. وللتوسع أكثر في تاريخ المذهب الإباضي، وتراثه وتطوره الفكري، انظر: الموسوعة التاريخية للشيخ علـي يحي امعمر بعنوان: **الإباضية** في **موكب التاريخ**، ج1: نشأة المذهب الإباضي، ج2: الإباضية في ليبيا، ج3: الإباضية في تونس، ج4: الإباضية في الجزائر.

الفصل الأول

البحث العقدي عند الشيخ بيوض

- المبحث الأول: مكانة العقيدة من تفسير الشيخ بيوض
  - **أولا/ الاهتمام بالحقيقة الشرعية للإيمان**
  - **ثانيا/ الاهتمام بالآثار العملية للإيمان**
- المبحث الثاني: منهج الشيخ بيوض في بحث العقيدة
  - **أولا/ تفسير القرآن بالقرآن**
  - **ثانيا/ التعامل مع الروايات**
  - **ثالثا/ العقل والتأويل**

أولا/ الاهتمام بالحقيقة الشرعية للإيمان

من المسائل الكبرى التي شغلت الشيخ بيوض في تفسيره، وتوقف عندها في كثير من المواضـع بالتحليل والتقرير؛ مسألة: حقيقة الإيمان، لكو ا شرط الفلاح في الدنيا والآخرة، ونظرا لاختلاف المدارس العقدية حولها.

1/ آراء المدارس العقدية في مدلول الإيمان:

اختلفت المدارس العقدية في مدلول الإيمان إلى أربعة آراء :

* **الرأي الأول:** الإيمان هو المعرفة بالقلب: وهو قول الجهم بن صفوان وأبو الحسن الصالحي. ولا يخفي فساده؛ لأن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، ولم يكونوا مؤمنين به.

* **الرأي الثاني:** الإيمان هو الإقرار الفرد باللسان: وهو قول الكرامية، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان، ولكنهم يقولون بأ م يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به. وقولهم أيضا ظـاهر الفساد.

* **الرأي الثالث:** الإيمان هو التصديق بالقلب: وهو قول أبي حنيفة، وأبي منصـور المـاتردي، والأشاعرة.

* **الرأي الرابع:** الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وهـو قـول مالك والشافعي، وأحمد، وسائر أهل الحديث والإباضية والمعتزلة[1].

وقد اتفق الرأيان الأخيران على أن أصل الإيمان هو التصديق بالقلب، وإنما اختلفـا في تسـمية الإقرار والعمل بالأركان إيمانا، مع اتفاقهما على وجوب جميـع الطاعـات المفروضـة، وعلـى استحباب النوافل المشروعة[1].

---

[1] -انظر: محمد بن أبي العز الدمشقي: **شرح العقيدة الطحاوية**، تح: عبد الله التركي، وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط8: 1416هـ/1995م، ص2/373، والباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، ط3: 1414هـ/1993م، ص388-390، واطفَيش: **شرح عقيدة التوحيد**، ص540-548.

2/ رأي الشيخ بيوض في مدلول الإيمان:

يرى الشيخ بيوض رأي مذهبه في مفهوم الإيمان، فيقول: «إن كل ما ورد في القرآن من أوامر ونواه وأحكام، وكل ما جاء في السنة التي هي الأصل الثاني للدين، يدل دلالة صريحة واضحة يقينية على أن الإيمان عقيدة وقول وعمل، والمجموع كل لا يتجزأ»[2]. وقد استدل الشيخ على صحة ما قرره بمجموعة من الأدلة؛ منها:

*** الدليل الأول:**

من أدلة الشيخ على ما ذهب إليه؛ اجتماع الصفات العملية التي علق عليها الفلاح للمؤمنين، وميراث الفردوس، في أوائل سورة المومنون: (قَد اَفْلَح اَلْمومِنونَ اَلذِين هم في صلاَتِهم خاشِعونَ والذِين هم عنِ اللغوِ معرِضونَ والذِين هم لِلزكَاةِ فَاعِلُونَ والذِين هم لِفُروجِهم حافِظُونَ إِلا علَىآ أَزواجِهِم, أَو ما ملَكَت اَيمانهم فَإِنهم غَير ملُومِين فَمنِ ابتغىا وراَءَ ذَالِك فَأُولَئِك هم الْعادونَ والذِين هم لأَماناتِهم وعهدِهِم راعونَ والذِين هم علَىا صلَواتِهم يحافِظُونَ أُولَئِك هم الْوارِثُونَ الذِين يرِثُونَ الْفِردوس هم فِيها خالِدونَ) (المومنون:1-11)، قال الشيخ في تفسيرها: «فالذين اجتمعت فيهم هذه الصفات هم المفلحون، والذين لم تجتمع فيهم هذه الصفات ولو كان بعضها، فهم الخاسرون، لأن الدين إما أن يأتي كله أو يذهب كله»[3]. ووجه الاستشهاد من الآيات، هو أن «الله تعالى لم يقل من فعل كذا فقد أفلح، بل قال: قد أفلح المؤمنون الذين من صفاتهم كذا وكذا»[4].

انطلاقا من الآيات المستدل بها على مفهوم الإيمان، قد يظن المرء صعوبة في تحقيق صفات الإيمان بكاملها، أو يتساءل عن إمكان تساوي كل الناس فيها، فينفي الشيخ هذا الإشكال ببيان أن هناك حدا أدنى لكل صفة من تلك الصفات، يجب أن تتوفر لدى الإنسان، حتى يطلق عليه "مؤمن"؛ حيث لا يمكن أن يسمى ما دونه إيمانا، وبعد وجود هذا الحد الضروري، يمكن أن يتفاوت الناس في مراتب الإيمان، وهو ما يسمى في كتب العقيدة: بزيادة الإيمان ونقصانه، وهو عند الشيخ

---

[1]- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر: **الفرق بين الفرق**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت- لبنان، د.ت، ص351.

[2]- **تفسير سورة المؤمنون**: ص 15.

[3]- (م.س)، ص 6.

[4]- (م.س)، ص 7.

بيوض: «باعتبار قوة الاجتهاد في عبادة من العبادات، أو الزيادة من النوافل أو عددها، وتفاوت درجات الإخلاص»[1].

ولكي يوضح المعنى أكثر، نجده يضرب مثالا على مسألة الخشوع في الصلاة، وهو شرط لقبول الصلاة وتوفر الإيمان، فلابد من تحقيق الحد الأدنى منه؛ وإلا فلا صلاة ولا إيمان، ذلك أن الخشوع تتفاوت درجاته بين الناس؛ فليس خشوعنا كخشوع النبي صلى الله عليه وسلم أو خشوع الصحابة وبعض الزهاد والعباد من السلف رضي الله عنهم؛ هؤلاء الذين يجب على المؤمن أن يتشبه بهم ولو لم يصل إلى درجتهم[2].

*** الدليل الثاني:**

ومما استشهد به الشيخ على حقيقة الإيمان: المزاوجة التي أقامها القرآن بين الإيمان والعمل، مزاوجة تدل على التلازم وعدم الفكاك بينهما، حيث ذكر الشيخ في المسألة بعض الآيات؛ مصنفا إياها صنفين[3]:

أ- صنف يبدأ بذكر الإيمان ثم يعطف عليه العمل، كقوله تعالى: (إِلا الذِين ءَامنوا وعمِلوا الصالِحاتِ وذَكَروا اللهَ كَثِيرا وانتصروا مِنم بعدِ ما ظُلموا) (الشعراء:227).

ب- وصنف يبدأ بالعمل الصالح ويثني عليه بالإيمان، كقوله تعالى: (ومن يعملْ مِن الصالِحاتِ وهو مومِن فَلاَ يخاف ظُلْما ولاَ هضما) (طه:112)، (من عمِلَ صالِحا من ذَكَرٍ اَو اُنثَى وهو مومِن فَلَنحيِينه حياةً طَيِبةً ولَنجزِينهم أجرهم بِأحسنِ ما كَانوا يعملُونَ) (النحل:97).

من النظر في تلك الآيات، بين الشيخ أننا لا نجد أي جزاء على إيمان بدون عمل، أو على عمل بدون إيمان، فلا يتحقق الإيمان إلا إذا كانت له ثمرة، وكل من يدعي الإيمان بقلبه وهو لا يعمل العمل الصالح، فهو كذاب عند الله وعند الناس، لأن العمل هو الذي يثبت حقيقة الإيمان[4].

3/ تصحيح التصورات حول حقيقة الإيمان:

[1]- **تفسير سورة المؤمنين**: ص 15.

[2]-(م.ن).

[3]- **تفسير سورة الأنبياء**: 218-219. [4]- (م.ن).

كان الشيخ في كثير من المواضع في تفسيره يصحح التصور الخاطئ لبعض الناس في موضـوع الإيمان؛ وهو الأمر الذي لاحظه في المحيط الذي عاش فيه؛ والمتأثر بالغزو الفكري علـى المسـلم المعاصر - بعد الغزو الاستعماري - حيث اتخذ كثير من شباب الإسلام؛ حضارةَ أوربا وجهةً لهم، تلك الحضارة التي حصرت الدين في العقيدة وحدها ثم نبذته، وتناولت أمور العلـم والسياسـة والاقتصاد بروح علمانية تبعدها إبعادا كاملا عن إطار الدين[1].

إضافة إلى ذلك الواقع؛ التخلف الذي أصاب الأمة في عقيد ا، حتى أفرغتها مـن مضـمو ا الحقيقي، وصارت مجرد كلمة تنطق باللسان، أو على الأكثر شعائر تعبدية اعتبروها أقصـى مـا تتحقق به كلمة التوحيد في واقع الحياة[2].

فبمناسبة تفسير الشيخ لقوله تعالى: (أطلَع الْغيب أَمِ اتخذَ عِند الرحمنِ عهدا) (مـريم:78) رد على الذين يزعمون أن لهم عند الله الدرجة الرفيعة دون عمل –موضحا لحقيقة العهد بـين المـرء وربه- : «وليس العهد الذي تتخذه عند الرحمن، هو انتسابك إلى نبي أو ولي، وإنما العهـد هـو الإيمان الصحيح الراسخ في القلب، الذي يثمر القول الصادق في اللسـان، والعمـل الصـالح في الأركان»[3].

وتصحيحا للتصورات حول حقيقة الإيمان أيضا، كان الشيخ يلفت النظر كثيرا إلى ما ينـاقض هذه الحقيقة؛ وهي: ظاهرة النفاق العملي، كلما أشارت إليها أو نطقت ا آية من الآيات الـتي يتعرض لتفسيرها.

ففي تفسيره قوله تعالى – في شأن المنافقين- : (ويقُولُونَ ءَامنا بِاللهِ وبِالرسولِ وأَطَعنا ثُم يتولىا فَرِيق منهم من بعدِ ذَالِك وماۤ أُولَئِك بِالْمومِنين) (النور:47)، بين الشيخ أن الآية تتحـدث عـن طائفة من الناس يزعمون الإيمان، لكن أعمالهم تخالف أقوالهم، ومن صفا م أ م لا يرتضون حكم الله ورسوله، ويحتكمون إلى الشيطان وإلى أهوائهم وغرائزهم، والمراد بتوليهم في الآية –كما بـين الشيخ- ليس هو إنكارهم الإيمان بألسنتهم، وإنما توليهم بأعمالهم المخالفة لحكم الله ورسوله[4].

---

[1]- محمد قطب: **لا إله إلا الله (عقيدة وشريعة ومنهاج حياة)**، دار الشروق، بيروت-لبنان، ط2: 1414هـ/1993م، ص10.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة مريم**: ص 175-176.

[4]- **تفسير سورة النور**: ص 372 وما بعدها.

ويأتي الشيخ إلى ذيل الآية (وما أُولئك بالمومنين) فيصفه أنه حكم واضح، صرح القرآن به حتى لا يضل أحد في التأويل، فيحصر كلمة النفاق في من أضمر الشرك فحسب –وهو المنافق نفاق شرك- دون الذين خالفت أعمالُهم أقوالَهم، -وهم أصحاب نفاق العمل- «فكل من خالفت أعمالُه أقوالَه، فهو منافق كما دلت على هذا؛ الآيات والأحاديث»[1].

ثانيا/ الاهتمام بالآثار العملية للإيمان

انطلاقا من مذهب الشيخ بيوض في الحقيقة المزدوجة للإيمان -أي باعتباره تصديقا وعملا- يهتم في تفسيره اهتماما بالغا بالآثار والمقاصد العملية لأركان الإيمان؛ وبالجانب العملي والخلقي لشريعة الإسلام عموما، فعند تطرقه إلى مسألة من مسائل الإيمان بالله أو ملائكته أو كتبه أو رسله أو اليوم الآخر، يربط حديثه عنها –في كل مرة- بثمارها الخلقية في الواقع الذي يعيشه الفرد والمجتمع، والحياة اليومية التي يتبادلان فيها التأثر والتأثير، وفيما يلي بعض النماذج عن اهتمام الشيخ بآثار الإيمان العملية.

1/ أثر حسن الظن بالله تعالى:

بمناسبة قوله تعالى: (ومِن الناسِ من يعبد اللهَ علَىا حرفٍ فَإِنَ اَصابه, خير اِطْمأَن بِهِ وإِنَ اَصابته فِتنةٌ اِنقَلَب علَىا وجهِهِ خسِر الدنيا والاَخِرةَ ذَالِك هو الْخسرانُ الْمبِين) (الحج: 11) تطرق الشيخ

---

[1]- (م.ن). وانظر أيضا في تحليل الشيخ لمسألة النفاق العملي: تفسيره للآيتين: 57-58 من سورة الأحزاب، ص 598-605، وتفسيره للآية: 11 من سورة الحج، ص 352-366.

هذا ونشير إلى أن مصطلح المنافق قد تضاربت حوله الآراء، بين من يحصره في المشرك المظهر للتوحيد -وهو رأي المعتزلة وإباضية المشرق- وبين من يحصره في الموحد المرتكب للكبائر –وهو رأي إباضية المغرب- ؛ وبين من يجعله شاملا للمعنيين؛ فيحصل عنده قسمان للنفاق: نفاق اعتقاد ونفاق عمل، والرأي الأخير هو للشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، حيث يقول في المسألة –بعد عرض الآراء المختلفة-:

«والتحقيق أن النفاق يطلق أيضا على إسرار الشرك وإظهار التوحيد وعلى عمل الموحد الكبيرة؛ خلافا للمعتزلة في ذا، ويرد عليهم قوله ρ: «النفاق أن تقر بالإسلام ولا تعمل به»... وقوله تعالى: (يحذَر الْمنافِقُونَ أَن تنزلَ علَيهم سورةٌ) (التوبة:64)، ولو لم يعرفوا الوحي ويثبتوه ما حذروه، وإرادة النبي ρ الصلاة على عبد الله بن أبي، وقد عَلِمه منافقا، فلو كان نفاقه شركا ما أراد الصلاة عليه...». اطفيش، امحمد بن يوسف: **الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص**، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، دار البعث، قسنطينة-الجزائر، ط2: 1400هـ/1980م، ص26-27.

وانظر في المسألة أيضا: اطفيش: **شرح عقيدة التوحيد**، ص467، والجيطالي، أبو طاهر إسماعيل بن موسى: **كتاب قواعد الإسلام**، تصحيح وتعليق: عبد الرحمن بن عمر بكلي، المطبعة العربية، غرداية-الجزائر، ط1: 1977م، ج1/ص36-39.

في تفسيرها لمسألة: سوء الظن بالله تعالى؛ من قبل ضعيف الإيمان، ثم أشار بالمقابل إلى حسن ظـن المؤمن بربه، وأثر ذلك في سلوكه، فقال في هذا الشأن: «والمؤمن الحقيقي لا يتزلزل إيمانـه، ولا يسيء الظن بربه مهما اشتد به بلاء الفقر، أو وصل به بلاء الغنى»[1]، فإن يسر الله له في الـرزق أكثر من غيره، لم يتغير إيمانه، ولم يبطره الغنى فيظلم أو يجور، بل يثبت علـى امتثـال الأوامـر واجتناب النواهي، يصلي كما يصلي الفقراء، ويحضر مجالس الذكر والخير كما يفعل البسطاء[2].

2/ أثر الإيمان بعلم الله تعالى:

وبمناسبة قوله تعالى: (قُل لو كَانَ الْبحر مِدادا لكَلِماتِ ربـي لَنفِد الْبحر قَبلَ أن تنفَد كَلِمات ربـي ولَو جِئْـنا بِمِثْلِهِ مددا) (الكهف: 109)، بين الشيخ سعة علم الله تعالى، وذكر أن الحكمة من هذا الوصف لعلم الله، هو أن تتصاغر نفوس البشر وتحتقر علمها بالنسبة لعلم الله تعالى، فـلا تطغى ولا تغتر إذا تعلمت شيئا، «على أن هنالك علماء حقيقيين، أوصلهم علمهم إلى التواضـع، وأصبحوا يعتقدون في نفوسهم أ م أقل مما يتصورهم الناس، وكلما ازدادوا درجة في العلم كلمـا تبين لهم جهلهم ...» [3].

3/ أثر الإيمان بالبعث:

بعد تفسير الآيات الخمسة الأولى من سورة الحج؛ وهي قوله تعالى: (يآأيها الناس اتقُواْ ربكُم, إِن زلْزلَةَ الساعةِ شيءٌ عظِيم يوم ترونها تذْهلُ كُل مرضِعةٍ عمآ أَرضعت وتضع كُل ذَاتِ حمـلٍ حملَها وترى الناس سكَارىا وما هم بِسكَارىا ولَكِن عذَاب اللهِ شدِيد ومِن الناسِ من يجادِلُ في اللهِ بِغير عِلْمٍ ويتبِع كُل شيطَانٍ مرِيدٍ كُتِب علَيهِ أنه من تولاه فَأنه يضِله, ويهدِيهِ إِلىَا عذَابِ السعِير يآ أيـها الناس إِن كُنتم في ريبٍ من الْبعثِ فَإنا خلَقْناكُم من ترابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ ثُم مِن علَقَةٍ ثُـم مِن مضغةٍ مخلقَةٍ وغَير مخلقَةٍ لنبين لَكُم ونقِر في الاَرحامِ ما نشآءُ إِلىَآ أجل مسمى ثُم نخرِجكُم طِفْلاً ثُم لِتبلُغواْ أَشدكُم ومِنكُم من يتوفىا ومِنكُم من يرد إِلىآ أَرذَل الْعمرِ لِكَيلاَ يعلَم مِنم بعـدِ عِلْمٍ شيئًا وترى الاَرض هامِدةً فَإِذَآ أنزلْنا علَيها الْمآءَ اهتزت وربت وأَنبتت مِن كُل زوجِم بهِيجٍ) (الحج: 1-5) -وهي في موضوع البعث بعد الموت- تعرض الشيخ إلى الوظيفة الاجتماعية لهـذه

---

[1]- **تفسير سورة الحج**، ص 359.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة الكهف**، ص 438 وما بعدها.

الآيات، فقال: «فلو آمن أهل الأرض جميعهم، حكاما ومحكومين بالبعث، واعتقدوا أنهم سيحاسبون وسيجازون عن كل مال حرام أكلوه، وكل قطرة دم سفكوها، وكل جريمة ارتكبوها؛ لقلت الشرور في العالم، ولما كانت بالجملة، كالهجوم على الشعوب الآمنة، وقتلهم بالآلاف والملايين»[1].

نلاحظ الشيخ في تحليله هذا، يعرض المجتمع على القرآن، وذلك بإسقاط آياتٍ -في عقيدة البعث- على واقع الإدارة والسياسة العالمية، الموبوءة بالظلم والاستبداد، وانتهاك الحقوق والحريات، ووجه الربط بين ذلك الواقع وتلك الآيات يكمن في الإشارة إلى أثر الابتعاد عن عقيدة البعث في انحراف السلوك، والعكس بالعكس. وفي هذا يقول الشيخ: «هذه قيمة عقيدة البعث، وهي مهمة جدا في تقويم سلوك الفرد، وعلى قدر تمكنها من القلب واستشعارها في كل حين يزداد المرء صلاحا وتقوى، وعلى قدر ضعفها واستبعادها يزداد المرء فسادا و شقاءً»[2].

4/ الآثار الإيمانية لقصص القرآن:

والجانب المهم الآخر الذي أولاه الشيخ بيوض حظه الوافر من التفسير والتركيز، هو قصص القرآن[3]؛ حيث كان في مواضع كثيرة في تفسيره يذكر بالمقصد منها، وهو أن الله تعالى لا يقص أخبار الرسل والأمم الماضية للتسلية والتفكه أو لسد الفراغ، وأن القرآن ليس كتاب تاريخ، بل هو كتاب هداية وإرشاد، وعلاج لأمراض النفوس، يأخذ من تواريخ السابقين ما فيه عبرة وموعظة، داعيا الناس إلى النظر فيما خلا من القرون، وكيف أهلك الله الظالمين، ونجى المؤمنين، لأن حكمه واحد لا يتبدل، والعزة والعاقبة للمتقين[4]. فكان الشيخ كلما تطرق إلى قصة نبي من أنبياء الله تعالى أو ولي من أوليائه، إلا وأردفها ببيان رسوخ إيمانهم وشدة صلتهم بربهم، وحسن توكلهم عليه؛ مما أثمر فيهم سلوكا قويما، وفيما يلي أمثلة على ذلك.

أ/ مثال قصة سليمان υ:

---

[1]- **تفسير سورة الحج**: ص326 ، وانظر في المسألة أيضا: **تفسير سورة المومنون**: ص242، و**تفسير سورة الفرقان**: ص58-60.

[2]- **تفسير سورة الحج**: ص 326.

[3]- سيأتي الحديث عن منهج الشيخ في بحث قصص القرآن –بالتفصيل- في المبحث الثاني من هذا الفصل، في مسألة: التعامل مع روايات الأخبار، ص 20 وما بعدها.

[4]- **تفسير سورة طه**: ص 372، **تفسير سورة الكهف**: ص 78.

بمناسبة قوله تعالى –على لسان سليمان υ-: (وقَالَ رب أَوزِعنِي أَنَ أَشكُر نعمتك الَتي أَنعمت علَي وعلَى والِدي...) (النمل: 19)، عدد الشيخ نعم الله تعالى على النبي الملك سليمان، من تسخير الجن والإنس والطير له، وتعليمه منطلق النمل والطير، ثم ذكر الموقف الذي يصدر ممن أوتي شيئا من هذا الملك -من الملوك الطغاة- وهو الاغترار والتجبر، وبالمقابل بين الموقف الإيماني لسليمان –الذي ظهرت عصمته في رسالته وملكه- وهو موقف التواضع والخضوع لله تعالى والاعتراف بفضله؛ فلم يعجب سليمان بعلمه ولا ملكه، بل تضرع إلى ربه أن يلهمه الشكر لنعمه في كل حين[1].

ب/ مثال قصة سحرة فرعون:

وبمناسبة حديث الشيخ عن قصة سحرة فرعون مع موسى υ؛ لحظةَ استعراض سحرهم أمام الملأ، وإلقاء موسى عصاه المعجزة، التي تلقفت ما صنعوا، بين الشيخ كيف أثرت المعجزة في قلوب السحرة المستعدة للإيمان، ولم تؤثر في قلب فرعون المطموس بطغيانه، مشيرا إلى أن هذا هو الفرق بين قلب المؤمن وقلب الكافر في كل زمان ومكان، ومشِيدا بإيمان السحرة الذين «آمنوا بهذه السرعة؛ حتى إنه لم يلتفت أحد إلى الآخر، فيقول له: ماذا ترى، أنؤمن؟ أنتبع موسى؟ وإنما انكبوا بصفة جماعية، بل ما شعروا حتى وجدوا رؤوسهم معفرة في التراب، ساجدين لله، وألسنتهم تنطق: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون»[2].

ج/ مثال سِير الصحابة ψ:

يندرج ضمن اهتمام الشيخ بقصص القرآن واستنطاق العبر منها، اهتمامه بسِير الصحابة ψ ومناقبهم، كلما أتى على آية تتحدث عن شخصية صحابي أو طائفة من الصحابة، أو كان هؤلاء سببا لنزول قرآن يتلى، فيربط تلك الأحداث والخصال بتغلغل الإيمان في قلوبهم، وقوة إخلاصهم ويقينهم، وشدة حبهم لله ورسوله ولدينه[3].

---

[1] - **تفسير سورة النمل**، ص 51.

[2] - **تفسير سورة طه**، ص 317-318، وانظر كنموذج لتوجه الشيخ إلى الاعتبار بالقصص أيضا: **تفسير سورة الشعراء**، ص 384-385.

[3] - انظر: شرح حديث أم محجن؛ مثالا لهذه الفكرة من تفسير الشيخ لسورة الروم، ص 322-326.

ففي سورة الأحزاب -مثلا – يسرد الشيخ مناقب مجموعةٍ من الرعيل الأول، بمناسبة تفسيره لآيات غزوة الخندق، وتحليله لحادثة إبطال التبني، وإباحة الزواج بزوجة المُتبنى، التي نزلت آيا ا في شخص النبي ρ ومتبناه زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش ψ[1]. لأن هؤلاء وأمثالهم هم الذين فسروا لنا القرآن، وترجموا لنا السنة بأعمالهم، وذلك هو التفسير الحقيقي –كما يرى الشيخ-، «حتى لَكأننا إذا اطلعنا على سِيرهم نرى بوضوح المعاني التي أرادها الله تعالى في كتابه الكريم، ويكونون لنا بأعمالهم قدوة، فنتأسى م، ونرى كيف كانوا يتسارعون إلى القيام بما أمر به الله ورسوله»[2].

هذه هي مكانة العقيدة من تفسير الشيخ بيوض رحمه الله، هي حاضرة في جل دروس تفسيره التي كان يلقيها لكافة الناس في بيت الله تعالى، فمهما كان موضوع الآيات التي يغوص في تحليلها، تشريعا أو تربية أو تاريخا ... لا يمضي معه دون أن يحكم صلته ومرجعيته الإيمانية، وإذا كان الموضوع عقيدة اعتصر منه آثاره العملية، فالقضية الإيمانية عند الشيخ بيوض هي المحور الذي منه ينطلق الإنسان المؤمن وإليه ينتهي، حتى يحقق خلافة الله له في الأرض، ويفوز بالجنة والرضوان في الآخرة.

---

[1] - انظر تحليل الشيخ لهذه المواضيع في محلها من تفسير سورة الأحزاب.

[2] - تفسير سورة الأحزاب، ص 361.

المبحـث الثانـي: منهـــج الشيخ بيوض في بحث العقيــــدة

أولا/ تفسير القرآن بالقرآن

سلك الشيخ بيوض في بحثه للعقيدة من خلال تفسير القرآن؛ جملة من الضوابط، رأينا التزامـه المتكرر ا، وهي تشكل في مجموعها القواعد الكبرى لفهم القرآن الكريم –عموما- فهما سليما.

ويمكن اعتبار تفسير القرآن بالقرآن؛ أول هذه الضوبط وأهمها عند الشيخ في تفسـير القـرآن بكامله –والعقيدة هي ركيزته- فطالما كرر هذه القاعدة: «ما فسر القرآن مثل القرآن» أو بمـا يشا ها من العبارات[1]، عندما يأتي إلى موضع أو أية يحتـاج في فهمهـا وتجليـة مقاصـدها إلى استحضار نظائرها من القرآن الكريم.

وقد سمى الشيخ محمد الغزالي، هذا الضابط بالنظرة الشاملة والموضوعية للقرآن، عندما بين أن الرؤية القرآنية لا يمكن إلا أن تكون حضارة كاملة، فمن سوء الفهم أخذ جانب من القـرآن وإهمال الجوانب الأخرى، كأن يؤخذ مثلا على أنه مجموعة من القصص فقط[2].

فالأحكام الفقهية، والآيات الكونية، وآيات العقائد، وما إلى ذلك مـن التعـاليم الإسـلامية «متماسكة في عصارة واحدة، تجمعها من أولها لآخرها، ومن المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية التي تجعلني أعيش في جانب منه وأنسى الجانب الآخر»[3] -كما يقول الشيخ الغزالي-.

ومن الغريب أن نجد الشيخين: إبراهيم بيوض ومحمد الغزالي يتفقان في تأصيل هـذا الضـابط وتطبيقه، وإن اختلفت عبارا ما؛ فبينما يسميه الأول تفسير القرآن بالقرآن، يسميه الآخر التفسير الموضوعي، بل ويتفقان في تقسيمه إلى شِقين:

***الأول:** تفسير الموضوع الواحد بجمع متفرقاته في القرآن، أي كل الآيات التي تتحدث عنه.

***الثاني:** تفسير السور بالوحدة الموضوعية، أي باعتبار كل سورة لها موضوع مستقل.

---

[1]-كقول الشيخ: «القرآن يفسر بعضه بعضا»، **تفسير سورة الإسراء**: ص59، وقوله: «فأولى ما يفَسر القرآن بالقرآن»، **تفسير سورة القصص**: ص351، وقوله:«وأحسن تأويلات القرآن وتفسيراته ما كان يؤخذ منه، بتقابل الآيات في موضوع واحد، فتظهر المعاني، وتظهر الحِكم والأسرار»، **تفسير سورة لقمان**: ص182.

[2]- محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، د.ت، دار الرجاء، عنابة-الجزائر، ص 71.

[3]- (م.ن).

يقول الشيخ الغزالي في تأصيل هذا الضابط: «التفسير الموضوعي بشِقيه، وهو مثلا: النبـوة في القرآن، المال في القرآن، العدالة في القرآن، ربما كان إنشاء تفسير موضوعي من هذا النوع يكـون فيه معالجة لهذا الواقع، ومنطلق ثقافي لرؤية قرآنية شاملة ومتوازنة ... يضاف إلى ذلك أن النظـرة الموضوعية للسورة كاملة ومعرفة الأغراض التي تدور حولها، يمكن أن تساهم أيضا بتكوين المنطلق الثقافي للرؤية الشاملة»[1].

وقد أفرد الشيخ الغزالي لكل شِق من شِقي التفسير الموضوعي كتابا مستقلا لأجل تطبيق ذلك الضابط، فخصص للأول كتابه: المحاور الخمسة في القرآن الكريم[2]؛ وكتابه: نظرات في القـرآن[3]، وخصص للشق الثاني كتابه: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم[4].

نعود إلى الشيخ بيوض؛ لنتساءل عن كيفية تجسيده لهذين الشقين للتفسير الموضوعي أو لتفسير القرآن بالقرآن؟

1/ الشق الأول: تفسير الموضوع الواحد بجمع متفرقاته في القرآن

يقول الشيخ مؤصلا لهذا الشق: «والقرآن يفسر بعضه بعضا، وأحسـن تـأويلات القـرآن وتفسيراته، ما كان يؤخذ منه، بتقابل الآيات في موضوع واحد، فتظهر المعاني وتظهـر الحكـم والأسرار»[5].

وتجسيدا لهذا الشق أو الأسلوب، نجد الشيخ يوظفه في تعيين المراد من المصطلح أو اللفظ القرآني المتكرر، وطريقة القرآن في استعماله.

- فعند بحث الشيخ عن *الحكمة من وصف الشرك بأنه ظلم عظيم* في قوله تعالى -على لسان لقمان-: (يا بـني لاَ تشرِك باللهِ إن الشرك لَظُلْم عظِيم) (لقمان: 13)، رأى ضرورة العودة إلى القرآن لبحث طريقته في استعمال كلمة الظلم؛ فوجد أنه بالرغم من استعمال اللفظ في التعـدي على حقوق الغير، في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، إلا أن استعماله في ظلم الإنسان لنفسـه -بارتكاب المعاصي- هو الأكثر والغالب، إذ يسمى المعاصي كلها ظلما، سواء كانت شركا أو ما

---

[1]-(م.ن)، ص 73.

[2]- محمد الغزالي، **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، دار القلم، دمشق، ط3: 2000م.

[3]- محمد الغزالي، **نظرات في القرآن**، دار الكتب الحديثة، ط3: 1962م.

[4]- محمد الغزالي، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، دار بغدادي للطباعة والنشر، الرويبة-الجزائر، ط:2000م.

[5]- **تفسير سورة لقمان**: ص182.

دو ا من السيئات، ومن ذلك استعماله لكلمة الظلم في إهلاك الأمم التي كفرت برسلها[1]، (وما ظَلَمناهم ولَكِن كَانوا هم الظَالِمِين) (الزخرف: 76)، ثم يعلل الشيخ تسمية المعاصي بالظلم؛ بأن العاصي ظلم نفسه ودساها، وأها ا وعرضها للبلاء؛ فالشرك بالتالي هو أعظم أنواع الظلم[2].

- إضافة إلى توظيف الشيخ لهذا الأسلوب في تعيين المراد من اللفظ المتكرر، كان يستعين به في *حل الإشكالات العقدية المطروحة حول بعض الألفاظ، كلفظ الروح*، الواردة في قصة حمل مريم بعيسى (υ)، فما مدلول الروح المنفوخة في مريم؟ هذه القصة المذكورة في ثلاث مواضع؛ جمعها الشيخ وأخذ يحلل ويقارن بينها، فوجد أن سورة مريم لم تذكر سوى الحمل والانتباذ والولادة (فَحملَته فَانتبذَت بِهِ مكَانا قَصِيا فَأَجآَءها الْمخاض إِلَىا جِذْعِ النخلَةِ...) (مريم: 22-23).

أما سورتا التحريم والأنبياء فقد ورد فيهما نفخ الروح في مريم[3]، ففي سورة التحريم قال تعالى: (ومريم ابنت عِمرانَ الِتي أَحصنت فَرجها فَنفَخنا فِيهِ مِن روحِنا ...) (التحريم: 12). وفي سورة الأنبياء قال تعالى: (والِتي أَحصنت فَرجها فَنفَخنا فِيها مِن روحِنا...) (الأنبياء: 91). والنافخ في الروح هو الله تعالى، بقدرته وكما يليق بجلاله، من غير تشبيه بخلقه. وقد ذكر الشيخ هاهنا أن المراد من الروح في سورة مريم هو جبريل (υ)؛ الذي أرسله الله إلى مريم لبشار ا بالغلام الزكي، (فَأَرسلْنآ إِلَيها روحنا فَتمثلَ لَها بشرا سوِيا) (مريم: 17).

بعد ذلك استشكل الشيخ المراد من الروح في آيتي التحريم والأنبياء؟[4]. ولحل الإشكال أخذ يستحضر بعض مواضع الروح الواردة في القرآن؛ وبداية ذكر الآية المحكمة في المسألة وهي قوله تعالى: (ويسأَلُونك عنِ الروحِ قُلِ الروح مِن أَمرِ ربِي ومآ أُوتِيتم من الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً) (الإسراء: 85)، وبين أن إضافة الروح إلى الله تعالى دليل على أ ا من خصوصياته، ولا أحد يدرك حقيقتها.

---

[1]- **تفسير سورة لقمان**: ص182 وما بعدها.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة مريم**: ص61-63.

[4]- (م.ن).

لكن الشيخ استدرك بأن استعمال القرآن لكلمة الروح في مواطن أخرى يوضح شيئا ما حقيقتها، وتلك هي الروح التي نفخها الله في آدم، بعد أن سواه، وقد قال تعالى مخاطبا ملائكته: (فَإِذَا سويته ونفَخت فِيهِ مِن روحِي فَقَعوا لَه ساجِدِين) (ص: 72)

فبين الشيخ أن التسوية هي إكمال بنية الجسم، والروح هي التي تبث الحركة والحياة والنمو فيه، وهي من نفخ الله تعالى، ثم قاس الشيخ على هذه الروح –التي جعلت من آدم المخلوق من طين؛ بشرا سويا حيا- الروح المنفوخة في مريم فولد منها عيسى (u)، فوجدها الشيخ سواء، مدعما رأيه بقوله تعالى: (إِن مثَلَ عِيسىا عِند اللهِ كَمثَلِ ءَادم خلَقَه, مِن ترابٍ ثُم قَالَ لَه, كُن فَيكُونُ) (آل عمران: 59).

وقبل أن يلخص الشيخ النتيجة التي توصل إليها، حذر من مغبة البحث عن كيفية النفخ في الروح؛ لأنه يؤدي إلى تشبيه الله تعالى، ووصفه بما لا يجوز؛ ثم انتهى من بحثه بقوله: «فالمراد بالروح في آية التحريم والأنبياء هي المنفوخة في مريم، وليس جبريل، كما أغرق في ذلك كثير من المُولَعين؛ مما لا يقبله العقل والدين، ولا يليق بجلال الله تعالى وقدرته، وصفاته، وتنزيهه»[1].

- ويوظف الشيخ أيضا أسلوب تفسير الموضوع بجمع متفرقاته؛ في توضيح مشاهد الحدث الواحد حتى تكتمل صوره ولا تتناقض في الذهن.

فبمناسبة تفسيره لقوله تعالى: (ويوم يقُولُ نادوا شركَآئِي الَّذِين زعمتم فَدعوهم فَلَم يستجِيبوا لَهم وجعلْنا بينهم موبِقًا) (الكهف/52)، بين أن الله تعالى أمر نبيه (ρ) أن يذكر المشركين باليوم الذي ستنقطع فيه الصلة بينهم وبين معبوداتهم، فلا ينقذوهم ولا يستجيبون لهم[2]، ثم ذكر الشيخ إشكالا عقديا في الآية، وهو أن الله تعالى قال: (فَدعوهم فَلَم يستجِيبوا لَهم) فالكفار دعوا شركاءهم وآلهتهم، فلم يكن منهم جواب؛ لكن آيات أخر تدل على وقوع مجادلة بين هؤلاء وهؤلاء؛ فما الحكمة من ذلك التعبير؟[3]

---

[1]- **تفسير سورة مريم**، ص 63.

[2]- **تفسير سورة الكهف**، ص 230.

[3]- (م.س)، ص 232.

ثم أجاب الشيخ أولا ببيان منهجه في رفع الإشكال؛ والتعارض الظاهري بين الآيات؛ وفي فهم القصة مكتملة المشاهد فقال:[1] «... الله تعالى يورد المعنى الواحد، أو القصة الواحدة في مـواطن متعددة من القرآن بألفاظ مختلفة، وبصور مختلفة، إذا جمِع بعضها إلى بعض تكتمـل الصـورة أو القصة. وعلى الإنسان أن يستحضر الحالة من أولها إلى آخرها، من أول طور في القصة إلى آخـر طور؛ ومن أول الحوار إلى آخره. وللقصص والحوار أطوار تمر عليه وأدوار، تبتدئ بكيفية وتنتهي بكيفية أخرى، وفي كل آية ذكر الله تعالى فيه هذا المعنى يفرغه في قالب غير الذي أفرغه في آيـة أخرى»[2].

بعد بيان الشيخ للمنهج، جسده في حل الإشكال الوارد –سالفا- بنظْم طائفة مـن الآيـات الواردة في الموضوع، في بعضها نداء الله للمشركين يوم القيامة بدعوة شركائهم الـذين كـانوا ينازعو م فيه تعالى؛ وفي بعضها إثبات المخاصمة بين الفريقين، وفي البعض الآخر إجابة المعبودات للذين عبدوهم بأجوبة مختلفة تبرأ فيها البعض من البعض[3]؛ ثم يخْلُص الشيخ إلى النتيجـة التاليـة: «فلا تعارض إذن بين هذه الآيات، إنما المراد بعدم الاستجابة، أ م لم يستجيبوا للإعانة والنجدة، أما الجمع بينهم في صعيد واحد، حتى يقيم الله الحجة عليهم بعضهم على بعـض، فهـذا أمـر ثابت»[4].

2/ الشق الثاني: تفسير السور بالوحدة الموضوعية

كما وجدنا الشيخ بيوض يرى إلى القرآن على أن بعضه يفسر البعض الآخر، لأنـه يشـكل وحدة متكاملة[5]؛ وجدناه –إضافة لذلك- يرى أن كل سورة قرآنية تشكل وحـدة متماسـكة وموضوعا واحدا،[6] وإن تعددت الأغراض التي تخدم الموضوع، فلا يمكن لأحد أن يفهم آيات الله

---

[1]- وانظر أيضا في هذه المسألة المنهجية: **تفسير سورة القصص**، ص 336.

[2]- **تفسير سورة الكهف**، ص 232-233.

[3]- **(م.س)**، ص 233-234.

[4]- (م.س)، ص 235.

[5]- **تفسير سورة المؤمنون**، ص 152.

[6]- **تفسير سورة الأنبياء**، ص 227.

فهما حقيقيا، إلا في موقعها وسياقها من السورة، بالنظر إلى ما سبقها وما تلاها، لأن كـل آيـة شديدة المناسبة لما قبلها[1]، وما بعدها، ولموضوع السورة ككل.

وفي تجسيد الشق الثاني من تفسير القرآن بالقرآن، لم نجد الشيخ يلتزم منهجا واحدا في جميـع السور، ففي سورة القصص وسورة النور وسورة الأحزاب؛ استهل تفسير كل منها ببيان المحـور العام أو المحاور الكبرى التي تدور حولها السورة.

فقد افتتح الشيخ بيوض تفسيره لسورة القصص –على سبيل المثال- بمقدمة مستفيضة، بين فيها الموضوع الرئيس للسورة، والغرض منه فقال: «فسورة القصص لها موضوع ومحور هـام تـدور عليه، شأ ا شأن كل سور القرآن، فهي في أغلبها تبين بيانا شافيا بالدليل القاطع والبرهان الساطع ... أنه ليس في الكون قوة تتصرف إلا قوة الله تعالى، وكل قوى البشر وكل قـوى المخلوقـات الأخرى، لا تعد شيئا بالنسبة لقدرة الله، وكل جبار طغي وتجبر، فإن ناصيته بيد الله وعاقبتـه إلى الدمار، سواء من طغى بالعزة أو السلطان أو الأعوان والجنود، أو لمن طغى بالعلم والمال، وهـذان متمثلان في فرعون وقارون»[2].

وجه الشيخ في هذه المقدمة، العقول إلى تدبر المحور الذي تدور حوله السورة؛ مستنتجا إياه، مما جاء فيها من آيات؛ خاصة قصتي فرعون وقارون –اللتين استغرقتا حيزا لا بأس به من السـورة- هذا المحور هو موضع الاعتبار والادكار، إنه ترسيخ الإيمان بالقدرة الإلهية ونفوذهـا المطلـق في الكون، والتذكير ذه الوحدة الموضوعية للسورة؛ له أثر بالغ في إجلاء وتثبيت قضـايا العقيـدة، وقضايا الإسلام –بصفة عامة-.

وعند تفسير الشيخ لسورة النور؛ بدأ بذكر موضوعها الأساس وهو: «الأصول الكبرى للسلوك التي تحفظ نفس الزوجين: الذكر والأنثى، واللذين يكونان الخلية الأولى للأمة»[3]، ثم أتبعه بالمحاور الفرعية للسورة التي تخدم الموضوع الأساس[4]، وذات المنهج اتبعـه في مقدمـة تفسـيره لسـورة الأحزاب[5].

1- **تفسير سورة المؤمنون**، ص 152.

2- **تفسير سورة القصص**، ص 225.

3- **تفسير سورة النور**، ص 8.

4- (م.س)، ص 10-17.

5- انظر **تفسير سورة الأحزاب**، ص 133-137.

أما سائر السور -التي بحثنا تفسير الشيخ لها- فلم يلتزم فيها بذلك المنهج، أي بيان موضوعها، والمحاور الكبرى لها في المقدمة، بل كان يذكر ذلك في ثنايا تفسيرها؛ إما ببيان التناسب بين أجزاء السورة وموضوعها الأساس، وإما ببيان التناسب بين أوائل السورة وأواخرها.

أ/ بيان التناسب بين أجزاء السورة وموضوعها الأساس:

هذا البيان يأتي على شكل تلخيص للخطوط العريضة للسورة؛ والتي تقَدم تفسيرها؛ وغـرض الشيخ من ذلك -كما نرى- هو بيان العلاقة بين أجزاء السورة، وإبقاء ذهن المستمع للتفسـير؛ حاضرا في جو السورة وهدايتها.

فقبل تفسير الشيخ -مثلا- لقوله تعالى: (ألَم ترَ إلىَا ربك كَيف مد الظل ولَو شآءَ لَجعلَـه, ساكِنا) (الفرقان/45)، قال ملخصا ما سبق من تفسير السورة، وموضحا موقع هذه الآية منـها: «وبعدما تقدم من أول السورة مما ذكره الله تعالى، من كفر الكفرة به، واتخاذهم شـريكا لـه، وسخريتهم بالقرآن الم ل والنبي المرسل، صرف الكلام إلى سياق جديد للتنويع، يشـير فيـه إلى بعض آياته في الكون، مما لو تدبره أولئك الكفرة لآمنوا»[1].

ب/ بيان التناسب بين أوائل السورة وأواخرها:

هذا البيان يأتي على شكل ربط بين أواخر السورة وخواتمها وبين أوائلـها؛ تأكيـدا لوحـدة موضوعها. فبمناسبة تفسير الشيخ للآية الأخيرة من سورة الشعراء (...وسيعلَم الذِين ظَلَموٓاْ أي منقَلَبٍ ينقَلِبونَ) (الشعراء/227)، قال عن موقع الآية من السورة وصلتها بأولها: «إ ا خلاصـة السورة كلها؛ التي تذكر الظالمين والمظلومين، وهي تتضمن الغرضين اللذين نزلت مـن أجلـهما السورة: تبشيرا للنبي ρ وتسلية وتصبيرا له ولأمته، وإنذارا للكفرة والمكذبين. فهو يقول للظلمة: لا يغرنكم سلطانكم ولا استقامة أحوالكم، إن هي إلا أيام قليلة إذا بالأمر ينقلب عليكم وتكونون في شر منقلب، ويقول للمسلمين: لا تقلقوا، فالذين ظلموكم واضطهدوكم، وكفروا بربكم ... إن هي إلا أيام قلائل إذ م في وعيد الله. أو ليس هذا عود على بدء، وفي أول السـورة يقـول: (لَعلك باخِع نفْسك ألا يكُونواْ مومِنين) (الشعراء: 3) »[2].

---

[1]- **تفسير سورة الفرقان**، ص 152. وانظر في هذه المسألة أيضا: **تفسير سورة العنكبوت**، ص 184-185.

[2]- **تفسير سورة الشعراء**، ص 489-490. وانظر في هذه المسألة أيضا: **تفسير سورة العنكبوت**، ص 270.

إن هذه النظرة الموضوعية المتكاملة للقرآن؛ من قبل الشيخ، -وإن تعددت تعابيره عنها- نرى أنها تهدف إلى إحداث مثل هذا التكامل والانسجام في شخصية الفرد المسلم والمجتمع المسلم؛ بين ما يحمل في قلبه من قيم ومبادئ وما يصدر عنه من سلوك ملتزم في واقع حياته، فلا يقع في شراك النفاق والانفصام بين العقيدة والسلوك.

كما أنها تهدف إلى حسن الفهم والتصور لقضايا العقيدة، فهما منسجما مع روح الدين وقواعده، وإلى الحفاظ على وحدة النصوص من التناقض والتضارب في الفهم والاعتقاد.

ثانيا/ التعامل مع الروايات

1/ تأسيس العقيدة على اليقين:

لما كان الإيمان هو التصديق بالقلب لمضمون العقائد؛ الثابتة بالخبر الشرعي. ولما كانت العقيدة هي أساس الدين، فإن التصديق بها تصديقا جازما لابد أن ينبني على اليقين، وصفة اليقين تكتسب من قوة الدليل من حيث ثبوته ودلالته.

وقد اتفق العلماء على الاحتجاج بالقرآن في الاستدلال على العقائد؛ لثبوت نصه بالتواتر، وكذا اتفقوا على الاحتجاج بالنسبة المتواترة، بعد قطعية دلالتهما، بينما اختلفوا في حديث الآحاد، «إذ قال البعض بصحة الاحتجاج به، إذا كان صحيحا دون النظر إلى تواتره، وقال البعض الآخر بعدم الاحتجاج به. وجاء موقف الإباضية موافقا لمن اعتبر الآحاد في العقيدة ظني الدلالة لا يفيد يقينا، ولا يثبت به الاعتقاد»[1].

وقد تبنى الشيخ بيوض موقف مذهبه؛ فقال عن أساس العقيدة ومستندها: «... لا تبنى إلا على خبر حقيقي يقيني، من القرآن الكريم، أو من المعصوم ρ، ولا شيء وراء هذا»[2].

ففي صدد حديثه عن عدد الأنبياء، رد علمه إلى الله تعالى، ثم ذكر ورود خبر أحادي في تعيين عددهم، وهو مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، أما عدد الرسل فهو: ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا، لكن الشيخ عقب بأن «الإيمان بهذا العدد لا يجوز، ما لم يكن هناك نص قطعي من قرآن أو سنة صحيحة متواترة، إذ يمكن أن يكون العدد أقل أو أكثر، ولا يجوز أن نبني الاعتقاد على

---

[1] - مصطفى وينتن: مرجع سابق، ص 86.

[2]- **تفسير سورة الكهف**: ص 226. وانظر ذات الموقف عند: البوطي، محمد سعيد رمضان: **كبرى اليقينيات الكونية**، تصوير عن ط8: 1423هـ/2002م. دار الفكر، سوريا، ودار الفكر، لبنان، ص 35-36.

الظنيات ...»[1]، وبرر الشيخ حكمه هذا بناء على صفة الظنية في خبر الآحاد؛ فإذا اعتقد أحد هذا العدد؛ وكان عدد الأنبياء في الواقع أكثر؛ يكون كافرا إذ لم يؤمن برسول، أو كان عددهم في الواقع أقل؛ فيكون قد آمن بمن ليس نبيا أو رسولا[2].

2/ وجه الاعتبار من أخبار القرآن:

يعتبر قصص القرآن الكريم وأخباره من المحاور التي يرتكز عليها الشيخ بيوض في تقرير قضايا العقيدة، كما ذكرنا سالفا[1]؛ وهو في شرحه للقصص يعتمد منهج القرآن في العرض؛ أي التركيز على روح القصة ومواطن العبرة والاقتداء في جوانبها، سواء كانت إيمانية أو أخلاقية أو تشريعية.

فكان الشيخ في غالب تفسيره لآيات القصص، يذكر الناس بهذا المنهج، فيبين تميز أسلوب القرآن، ومغايرته لأسلوب المؤرخين والقصاص، حيث يبدأون القصة من أول حوادث فيها، ثم يتتبعون تفاصيلها بالتسجيل والتدوين، حسب تسلسل أحداثها حتى يأتوا إلى آخرها.

لكن القرآن الكريم لما كان غرضه الذكرى، فإنه ينتقي فترات ومراحل معينة من تواريخ الأنبياء والأمم، ولأجل ذلك لا يلتزم بسرد الأحداث سردا متسلسلا، بل قد يبدأ من وسط القصة، أو من آخرها، وقد يذكر جزءا من القصة في سورة، والجزء الآخر في سورة أخرى، حسبما تقتضيه الحكمة[2].

ويبدو أن الشيخ يذكر بمنهج القصص القرآني في كل مرة، حتى ينفي من ذهن المستمع –أو القارئ للتفسير- انتظار معرفة كل جزئيات الأحداث وتواريخها وشخصياتها –التي اعتاد ذكرها في قصص البشر- ويضعه في الجو الروحاني والإيماني للقصة.

وقد أفلح الشيخ في تطبيق هذا المنهج القرآني؛ في تفسيره وتحليله القصص، في كثير من المواضع؛ فبعد شرحه –مثلا- لقصة السيدة مريم وولادتها لابنها عيسى υ، وما فيها من عبر، قال معقبا: «... قد رأينا في مطاويها حِكما وأسرارا عظيمة، ومن تتبعها باهتمام، يستفيد علما، ويزداد إيمانا وتقوى، وليست الحكمة في أن نعلم شيئا نجهله فقط، وإنما الحكمة في جني ثمرة هذا العلم»[3]. ومن

---

[1]- **تفسير سورة المؤمنون**، ص 136.

[2]- (م.ن)، وانظر في هذه المسألة أيضا: **تفسير سورة الإسراء**: ص 48 ؛ عند تطرق الشيخ إلى الاختلاف الوارد حول تفضيل الملائكة على بني آدم أو العكس.

العلم الذي يستفيده المؤمن منها؛ تقرير قواعد الدين وأسسه، كوحدانية الله تعالى، وإحاطة علمه بكل شيء[4].

3/ الروايات المخالفة للشرع:

دفاعا عن منهج القرآن في عرض الأخبار، كان الشيخ بيوض يرد كثيرا على الرواة والمفسرين الذين ضمنوا تفاسيرهم روايات في أخبار الأمم والرسل لا أساس لها من المنقول والمعقول.

إنما أضافوا إلى قصص القرآن، كما يقول الشيخ محمد عبده: «ما شاءوا من كتب التاريخ والإسرائيليات، ولم يعتمدوا على التوراة والإنجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم، بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين، ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل»[5].

وكان الشيخ يذكر تلك الروايات الباطلة في تفسيره؛ لأجل أن يرد عليها وينزه التفاسير عنها؛ ويبين بطلانها للناس[6]، حتى لا يغتروا بها، وحتى يحافظوا على سلامة اعتقادهم.

ويمكن تصنيف تلك الروايات –بحسب نوع بطلانها- إلى ثلاث أنواع:

*** النوع الأول:** روايات تحكي تفاصيل القصص التي لم يذكرها القرآن؛ وهي شكليات وظواهر لا علاقة لها بروح القصة، كذكرهم لتواريخ الأحداث وأسماء الأشخاص، والأماكن، وأعداد الأشياء وأحجامها ومقاديرها ... مما لا أساس له من خبر صحيح.

وغالب تلك الشكليات التي يذكرها هؤلاء المفسرون إنما ليكملوا بها حلقات القصة، ويكشفوا عما سكت عنه القرآن منها –بلسان حالهم- ولم يبينه. وفيها مبالغات وغرائب كثيرة، وتعلق بخوارق الأمور والعادات. لكن الشيخ بيوض يرد عليهم، بأن تلك الجزئيات، لو كان في

---

[1]- راجع: المبحث الأول، ص 5.

[2]- انظر: **تفسير سورة الكهف**، ص 78، **تفسير سورة الأنبياء**، ص 44.

[3]- **تفسير سورة مريم**، ص99. وانظر في هذه المسألة أيضا: تعقيبه على قصة موسى والخَضِر، في **تفسير سورة الكهف**، ص416.

[4]- **(م.ن).**

[5]- محمد رشيد رضا: **تفسير المنار**، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط2: د.ت، ، ج1/ص18.

[6]- انظر مثلا: **تفسير سورة الحج**، ص 513-515، و**تفسير سورة الأحزاب**، ص 661.

ذكرها حكمة وعبرة وفائدة للمؤمن لما سكت عنها القرآن؛ ولو ذكرها لوجب الوقـوف عنـد حدود ما ذكر[1].

فبمناسبة تفسير الشيخ –مثلا- لقوله تعالى عن أصحاب الكهف[2]: (ونقلـبهم ذات اليمين وذات الشمال) (سورة الكهف/18)، ذكر ما ورد من روايات غريبة في هذا التقليـب خـلال نومهم، فقال: «ذهب بعض المتنطعين المتكلفين إلى الكلام عن عدد المرات التي قُلبوا فيها، والمـدة بين تقليبة وأخرى، فقال بعضهم: يقلبون مرة كل سنة، وقال آخرون: بل تقليبتان في العام ...»[3].

ثم برر الشيخ ذكره لهذه الأقوال؛ بتبيين غرابتها وبطلا ا، لأ ا من أحاديث القُصاص الذين لا سلطان لهم عليها ولا حجة ولا دليل[4]. وبعد ذلك ذكر بالقدر الذي اكتفى به القـرآن –وهـو تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال- ووجوب الالتزام به، معتبرا البحث عن عـدد التقليبـات أو مد ا تكلفا، لا معنى له ولا فائدة فيه. وختم المسألة بالإشارة إلى موطن العبرة من الآية وما سبقها قائلا: «إن الذي يفهم من مجموع هذه الآيات، إ ا هو تعبير عن كمال عناية الله، بأوليائه وأحبائه وأصفيائه»[5].

وبمناسبة تحليله لقصة رحلة موسى υ مع الخضر وما صاحبها من حوادث، أشار الشيخ إلى ما أُضيف إليها من غرائب فقال: «وقد أضاف القُصاص خرافات كثيرة، إلى هذه الوقـائع، سـواء السفينة، أو الغلام، أو الجدار. ومن أغرب ما قيل في الجدار، أن طوله خمسمائة ذراع، وعرضـه خمسون ذراعا، وعلوه عشرون ذراعا، ولكن لماذا كل هذا؟ القُصاص مولوعون بالغرائب ولابد أن يقولوا، وقولهم هذا باطل»[6].

* **النوع الثاني:** من الروايات الباطلة التي يذكرها الشيخ في تفسيره لنقضـها، هـي روايـات متطاولة على الغيب الذي أستأثر الله تعالى بعلمه.

---

[1]- **تفسير سورة لقمان،** ص 98.

[2]- وانظر في هذه المسألة أيضا: **تفسير سورة النمل،** ص 45، **تفسير سورة لقمان،** ص 98.

[3]- **تفسير سورة الكهف،** ص 108.

[4]- (م.ن).

[5]- (م.ن).

[6]- (م.س)، ص 322.

- ومن ذلك رده للأقوال الواردة في توقيت قيام الساعة، بمناسبة تفسيره لقوله تعالى: (يسأَلُك الناس عنِ الساعةِ قُل ِانما عِلْمها عِند اللِهِ...) (بسورة الأحزاب/63)، فبعد ذكره لتلك الأقـوال وبيان بطلا ا وعدم جواز العمل ا –لعدم استنادها إلى الكتاب والسنة-؛ يوجه الشيخ خطابه إلى أولئك الرواة، في صيغة سؤال استنكاري: «... فالله تعالى يقول في كتابه: لا يعلم زما ا إلا هو، وإليه منتهى علمها، فلماذا تتعبون أنفسكم وتضللون الناس؟ »[1].
- ومن ذلك أيضا استغراب الشيخ من الروايات التي بحثت الكيفية التي تشكل ا جبريل υ، حين بعثه الله تعالى إلى السيدة مريم ليبشرها بحملها عيسى υ، وذلك على أعقاب تفسيره لقولـه تعالى: (فَأرسلْنآ ِإليْها روحنا فَتمثلَ لَها بشرا سوِيا) (سورة الأنعام: 17)، حيث ذكر الشيخ بعض الإشكالات التي طرحها الذين يريدون الخوض في كل شيء؛ ومنها: «لَما تشكل جبريـل علـى شكل بشر سوي، ترى أين بقيت أجزاء جسمه العظيم؟. وقالوا: إذا كان أصله جسمانيا، كيـف يمكن له التشكل؟. وقال آخرون: أصله روحاني، وروحه تتشكل في أي صورة شاءت. ودخلوا في هذا الباب وبدأوا في المقال والجواب، والاعتراض والرد»[2].

ثم يعلق الشيخ على هذه المباحث مبينا الموقف الصحيح منها؛ والعبرة الإيمانية المستخلصة منها: «... كل هذا لا يعنينا، والذي نعتقده أن قدرة الله صالحة لكل شيء، وأنه أعطى لمخلوقاته مـن الملائكة والجن، القدرة على التشكل في أي صورة كانت، ونحن لا نعلم ما هي الصورة الحقيقية، وما هي الصورة المتمثلة ...»[3]، ثم دعا الشيخ إلى عدم تضييع الوقت في هذه الأبحاث التي لا طائل منها؛ وليس للعقل فيها حظ من النظر[4].

*** النوع الثالث:** من الروايات الباطلة، هي روايات تصادم أصول الدين ونصوصه الصـريحة؛ فإذا تطرق الشيخ إلى قصة ذكر المفسرون فيها روايات من هذا النوع لم يتوان في نقضها –بعـد ذكرها- وبيان فسادها، ومخالفتها لقواعد الشرع ومبادئ العقل.

---

[1] - **تفسير سورة الأحزاب**، ص 661.

[2] - **تفسير سورة مريم**، ص 59.

[3] - (م.ن).

[4] - (م.ن).

• من ذلك مثلا، رده الطويل على الرواية التي تناقلها المفسرون في تفصيل نوع الأذى الذي آذى به بنو إسرائيل نبيهم موسى υ، عند تفسيره لقوله تعالى: (يآ أيـها الذِين ءَامنوا لاَ تكُونـوا كَالذِين ءَاذَوا موسىا فَبرأه الله مِما قَالُوا وكَانَ عِند اللهِ وجِيها) (سورة الأحزاب: 69). فتساءل الشيخ أولا عن هذا الأذى الذي برأ الله منه نبيه؟ إذ لم يذكره القرآن، فأجاب بأن المفسرين قـد نقلوا عن بعضهم رواية باطلة في تفسيره، وتأسف لروايتهم لها بدون نقد، حتى من قبل مشـايخه الذين سمعها منهم، يحكو ا وكأ ا قضية مسلم ا[1].

وملّخص الرواية أن موسى υ كان رجلا حيِيا شديد التستر، يتوارى بعيدا إذا أراد الاغتسال، حيث لا يراه أحد، وا م بنو إسرائيل موسى بأنه أبرص أو آدر[2]، لأنه لم يكن يغتسل معهم، كما يغتسلون عراة يرى بعضهم بعضا. وذهب مرة ليغتسل ووضع ثيابه على صخرة، ولما عاد إليهـا، فرت بثيابه فلحِقَها حتى توقفت عند ملأ من بني إسرائيل؛ فرأوا موسى مكشوفا سالما مـن كـل آفة[3].

---

[1]- **تفسير سورة الأحزاب،** ص 668 وما بعدها.

[2]- الأُدرة: انتفاخ في الخِصية. شركة البرامج الإسلامية الدولية: **موسوعة الحديث الشريف،** الإصدار الثاني، (1991-1997). معجم المعاني.

[3]- **تفسير سورة الأحزاب**: ص670-671، وانظر نص الرواية عند: اطفيش، امحمد بن يوسف: **تيسير التفسير**، تحقيق: إبراهيم محمد طلاّي، المطبعة العربية، غرداية، ط1: 1422هـ/2001م، ج11/ص356. والرواية أخرجها البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخَضِر مع موسى، رقم 3152، «...عن أَبِي هريرةَ رضِي الله عنه قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله علَيهِ وسلم إِن موسى كَانَ رجلًا حيِيا ستِيرا لَا يرى مِن جِلْدِهِ شيءٌ استِحياءً مِنه فَآذَاه من آذَاه مِن بنِي إِسرائِيلَ فَقَالُوا ما يستتِر هذَا التستر إِلا مِن عيبٍ بِجِلْدِهِ إِما برص وإِما أُدرةٌ وإِما آفَةٌ وإِن الله أَراد أَنْ يبرئَه مِما قَالُوا لِموسى فَخلَا يوما وحده فَوضع ثِيابه علَى الْحجرِ ثُم اغْتسلَ فَلَما فَرغَ أَقْبلَ إِلَى ثِيابِهِ لِيأْخذَها وإِن الْحجر عدا بِثَوبِهِ فَأَخذَ موسى عصاه وطَلَب الْحجر فَجعلَ يقُولُ ثَوبِي حجر ثَوبِي حجر حتى انتهى إِلَى ملَإٍ مِن بنِي إِسرائِيلَ فَرأَوه عريانا أَحسن ما خلَق الله وأَبرأَه مِما يقُولُونَ وقَام الْحجر فَأَخذَ ثَوبه فَلَبِسه وطَفِق بِالْحجرِ ضربا بِعصاه فَواللهِ إِن بِالْحجرِ لَندبا مِن أَثَرِ ضربِهِ ثَلَاثًا أَو أَربعا أَو خمسا فَذَلِك قَولُه يا أَيها الذِين آمنوا لَا تكُونوا كَالذِين آذَوا موسى فَبرأَه الله مِما قَالُوا وكَانَ عِند اللهِ وجِيها»، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى، رقم 4373، ورواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب ومن سورة الأحزاب، رقم 3154. **موسوعة الحديث الشريف.**

ثم أخذ الشيخ في نقد تلك الرواية؛ التي لم يشفع فيها –عند الشيخ بيوض- اتفاق الشـيخين: البخاري ومسلم على روايتها في صحيحيهما، أو تصحيح الإمام الترمذي لها[1]، لما كـان متنـها يخالف أصول العقيدة ومبادئ الدين، إما من جهة النبي موسى υ، أو من جهة قومه، فمن جهـة قومه، بين الشيخ أنه قد يكون منهم فُجار يغتسلون بتلك الطريقة المكشـوفة، أمـا أن تكـون طريقتهم المشروعة هي كشف العورات إلا موسى الحَيِي، فلا توجد شريعة تبيح ذلك. ومن جهة موسى υ، تساءل الشيخ: أفمِن أجل مة مرض بدني، يهين الله تعالى نبيه الوجيه عنـده، فيمـر مكشوفا أمام الملأ ليرى سالماً ؟ ومما علم من الدين بالضرورة، عصمة الأنبياء والرسل[2]. ثم يحكـم الشيخ على الرواية صراحة: «إن هذا لعمري من أكاذيب الإسرائيليات، ولا يجوز أن يـروى إلا للرد عليه وبيان بطلانه، وأنه كذب وافتراء»[3].

ووجدنا الشيخ في موضع من تفسيره، عند تطرقه لرواية إسرائيلية مناقضة للعقيدة، يحذّر الناس وينبههم إلى غرضها الدفين وهو إفساد الإسلام والكيد له؛ من قبل بعض الرواة المدسوسين الذين أرادوا إدخال تلك الخرافات في الدين؛ فوجدوا في بعض الشخصيات من الصحابة أو التابعين مـا يسندون إليها تلك الأخبار؛ كذبا وزورا[4]. وقد تكرر من الشيخ ما يشبه هذا التحذير من خرافات الإسرائيليات، ومن الروايات الموضوعة من قبل الزنادقة والطاعنين في الإسلام ورسالته[5].

4/ الروايات غير المخالفة للشرع:

رأينا سالفا أن الشيخ يتعامل مع الروايات المخالفة للدين بالرد والنقض والتحذير منها، أمـا إذا بحثنا تعامله مع الروايات غير المخالفة، فإن الأمر يختلف، وقد صرح بمنهجه في التعامل مع النوعين من الروايات في قوله: «أما كتب تاريخ البشر، ففيها الغث والسمين، وفيها الصدق والكذب، فما

---

[1] - قال الترمذي: «هذَا حدِيثٌ حسن صحِيح وقَد روِي مِن غَير وجهٍ عن أَبِي هريرةَ عن النِبي صلى الله علَيه وسلم وفِيه عن أنسٍ عن النِبي صلى الله علَيه وسلم». (م.ن).

[2] - تفسير سورة الأحزاب، ص 668 وما بعدها.

[3] - (م.س)، ص672.

[4] - **تفسير سورة الكهف**، ص 390-391.

[5] - انظر مثلا: **تفسير سورة الحج**، ص 513.

وجد فيها مخالفا لكتاب الله فهو باطل قطعا ويقينا، وما كان موافقا له، أو كان غير مناقض لـه، فهو حق، لهذا قال النبي ρ: «إذا حدثكم أهل الكتاب، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[1].

بين الشيخ أولا موقفه من الروايات التاريخية في تفسير القصص القرآني، وهو: عـدم القبـول المطلق، ولا الرفض المطلق، بل هو موقف التمحيص والنقد والعرض على كتاب الله تعالى، فمـا كان منها مخالفا له؛ فحكمه البطلان يقينا -وهو ما تطرقنا إليه في النوع الأول من الروايات-. أما ما كان موافقا لما ذكر في القرآن أو كان غير مناقض له؛ حكم عليه الشيخ بأنه حق، اسـتنادا إلى الحديث السابق.

لكن الشيخ لم يذكر حكم ما كان من الروايات مسكوتا عنه؛ وهو ما تطرق إليـه الحـديث؛ الذي يفهم منه حكم التوقف عن التصديق والتكذيب لتلك الروايات، وجواز نقلها مع عدم الجزم ا[2]، وعندما أتى الشيخ إلى التطبيق –أي خلال تحليله للقصص والأخبار- سلك حكم الحديث، فكان كثيرا ما يورد الروايات المختلفة في الحدث الواحد –مما سكت عنه القرآن- استئناسـا، لا اعتمادا عليها أو اعتقادا بما فيها؛ ويعقب عليها غالبا بعبارات تفيد الظن وعدم التحقق؛ كقولـه: «... لا ندري مبلغها من الصحة»[3]. وقوله: «لم يرد خبر صحيح نعتمد عليه» [4].

فعند تفسير الشيخ -مثلا– لقوله تعالى: (...وأَصحاب الرس وقُروناً بين ذَٰلِك كَثِيرا) (الفرقان: 38) تساءل عن أصل أصحاب الرس؛ ثم ذكر اختلاف المفسرين فيهم، بما لا يوصل إلى اليقين في حقيقتهم فقال: «قيل أصحاب الرس هم قوم لهم ماء، فجاءهم رسول فوقع ما وقع، ولكن هـذا تخمين لا دليل عليه، فلا نعلم بالتحديد من هم أصحاب الرس، وليس هناك شيء نتوقف فيـه أو نشتبه فيه، وكل ما في الأمر أن أصحاب الرس هم قوم من الناس، كبقية الأمم، أرسل الله إلـيهم

---

[4]- **تفسير سورة** طه، ص 375-376. والحديث أخرجه أبو الحسن الهيثمي بلفظ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، فإن كان حقا لم تكذبوهم وإن كان باطلا لم تصدقوهم»، **موارد الظمآن،** باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، ج1/ص58، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **المكتبة الألفية للسنة النبوية،** الإصدار 1.5، 1419هـ/1999م، الأردن.

[2]- انظر ما قاله ابن تيمية في المسألة: محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ج1/ص8.

[3]- **تفسير سورة القصص،** ص 321.

[4]- **تفسير سورة الفرقان،** ص 133.

رسولا، فكفروا به، فأهلكهم الله كما أهلك غيرهم. وقيل: إن أصحاب الرس هم طائفة من قوم شعيب ... ولكن لم يرد خبر صحيح نعتمد عليه»[1].

هذا بالنسبة للروايات المختلفة؛ التي لا يجد الشيخ من القرائن والحجج ما يرجح به إحداها على الأخرى، أما إذا توصل إلى ذلك فإنه يبدي رأيه بصراحة؛ في ترجيح الرواية الأقوى من حيث الحجة؛ مع ذكر القرينة المناسبة وعدم القطع بما توصل إليه لاحتمال غيره. فقد تكون القرينة مراعاة أحكام الشريعة؛ كما رجح بذلك اختلاف المفسرين حول الحكمة من اعتزال السيدة مريم لأهلها واحتجا ا عنهم؛ والتي لم يذكرها القرآن في قوله تعالى: (واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتبذَت مِن أهلِها مكَانا شرقِيا) (مريم: 16).

فبينما يذكر الإمام فخر الدين الرازي وجوها خمسة لتلك الحكمة أو الغرض، ويصفها بأ ـا كلها محتملة، وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها[2]، نجد الشيخ بيوض يرجح الرواية التي تبين أن مريم لم تعتزل أهلها ولم تخرج من محرا ا إلى مكان شرقي، إلاّ لتقضي فيه أيام حيضها، ثم تعود إلى محرا ا بعد طهرها؛[3] وقرينة الشيخ في ترجيحه، هي مراعاة أحكام الطهارة – كما وردت في الشرع- فمريم أرادت ألا تدنس محرا ا.

وقد تكون قرينة الترجيح عند الشيخ مراعاة سياق النص؛ كما رأينا ذلك عند بحثه في شخصية لقمان المذكور في قوله تعالى: (ولَقَد ـ اتينا لُقْمانَ الْحِكْمةَ أَنُ اشكُر لِلـهِ...) (لقمان: 12)؛ والذي اختلف الرواة في كونه نبيا أم عبدا صالحا، أما الشيخ فقد صرح برأيه –من غير قطع- قائلا: «ويبدو لي بحسب ما أتلمسه من الآية، أن أرجح كون لقمان غير نبيء»[4]، ثم ذكر سبب الترجيح أو قرينته وهي مراعاة سياق النص؛ ذلك أن الله تعالى أراد أن يجعله في الصنف الذي يقابل به الكفرة الذين يكفرون بنعمة الله، ولا يشكرونه عليها، وقد أشارت إليهم الآية السابقة للآية 12، (هذَا خلْق اللهِ فَأَرونِي ماذَا خلَق الذِين مِن دونِهِ بل الظَالِمونَ فِي ضلاَلٍ مبِينٍ) (لقمان:11)، ثم قابلهم الله تعالى «بعبد من سائر العباد، ليس بنبيء ولا رسول، ولكنه وفّقه وهداه

---

[1]- (م.ن).

[2]- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط3: د.ت، ج21/ص196.

[3]- **تفسير سورة مريم**، ص 52-53.

[4]- **تفسير سورة لقمان**، ص 88.

وآتاه الحكمة، فكان ينطق ا ويعمل ا، ويوصي ا، ولو كان نبيئا ورسولا لـذكره في جملـة الرسل، كما ذكر الذين أراد أن يقصهم علينا»[1].ويبدو أن الشيخ راعى في ذات المسـألة أيضـا عنصر الاقتداء؛ الذي يبرز في عبد من سائر العباد، أكثر مما يبرز في نبي من الأنبياء.

هكذا هو منهج الشيخ بيوض في تعامله مع الروايات الواردة عند المفسرين في تفسـير آيـات الأخبار والقصص، فما كان منها مخالفا للشرع –في إحدى أصوله أو فروعه- يذكره لبيان بطلانه وتصحيح الأفكار والاعتقادات حوله، وما كان منها غير مخالف للشرع، فإما أن يكون موافقا له فيحِقه، وإما أن يكون مسكوتا عنه فيذكره استئناسا؛ مع توقفه عن تصديقه أو تكذيبـه، وقـد يرجح بالقرائن عند اختلاف الروايات؛ مع عدم الجزم لما توصل إليه؛ ومع إيمانه العميق بأن قصص القرآن أهم وسيلة لتقرير العقائد وتثبيتها وإصلاح النفوس من خلالها، إلى جانب ذلـك قناعتـه الراسخة بأن القرآن لا يتناول من الأخبار إلا ما فيه العبرة، فالأفضل لدى المؤمنين به عدم الخوص فيما سكت عنه.

ثالثا/ العقل والتأويل

بعد تطرقنا لآلية النص، ودورها في فهم العقيدة وعرضها عند الشيخ بيـوض -وذلـك مـا وضحناه في تفسيره للقرآن بالقرآن، واستئناسه بروايات الأخبار غير المخالفة للشرع-، بقـي أن نتساءل: ما هو موقف الشيخ من الآيات والقضايا العقدية التي لم ترد في بيا ا نصوص أخرى؟ هل يعمل العقل فيها أم يهمله؟ وإذا كان يرى للعقل فيها دورا، فما هي حدوده؟ ذلك ما سـنتعرف عليه من خلال بحث موقفه من تأويل المتشابه، ومن النظر في المسائل المُغيبة عن العقل.

1/ موقف الشيخ بيوض من تأويل المتشابه:

من المعلوم أن نصوص القرآن العقدية تنقسم من حيث وضوح دلالتها، إلى قسمين: نصـوص محكمة ونصوص متشا ة، فالنص المحكم هو ما علق حكمه بظاهره، أو ما كان تأويله ت يله، فهو يعرف عند سماعه ولا يحتمل وجهين، ويدل على معناه بوضوح؛ لا خفاء فيه. والنص المتشابه هو النص الذي يخلو من الدلالة الراجحة على معناه[2].

---

[1]- (م.س)، ص 88-89.

1- صبحي الصالح: **مباحث في علوم القرآن**، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط21: 1997م، ص 282، واطفيش: **شامل الأصل والفرع**، د.م، د.ت، ج1/ص48.

فالنص المحكم لا خلاف في موقف العلماء منه ولا في فهمه، ومأتى الخلاف في موقفهم من المتشابه؛ حيث انقسموا فريقين:

الفريق الأول: وهم السلف، الذين يرون أن الآيات المتشابهة لا تدل بنفسها على المراد منها، ولم يفسر الله تعالى ما أراده منها؛ فهو أعلم بمراده؛ وبالتالي فهم يؤمنون بالمتشابه، ويفوضون علمه إلى الله وحده.

الفريق الثاني: وهم الخلف، يرون أن المتشابه، يعلم تأويله الراسخون في العلم[1]، ومثال المتشابه: الحروف المقطعة في أوائل بعض السور، والآيات التي يوهم ظاهرها تشبيه الخالق بخلقه[2].

ومنشأ اختلافهم قوله تعالى: (هو الذِي أنزلَ علَيك الْكِتاب مِنه ءَايـات محكمـات هـن أُم الْكِتابِ وأُخر متشابِهات فَأَما الذِين في قُلُوبِهم زيغٌ فَيتبِعونَ ما تشابه مِنه ابتِغاَء الْفِتنةِ وابتِغاَء تاوِيلِهِ وما يعلَم تاوِيلَه, إِلا اللهُ والراسِخونَ في الْعِلْمِ يقُولُونَ ءَامنا بِهِ كُل من عِندِ ربنا وما يذكر إِلآ أُولُواْ الاَلْبابِ) (آل عمران: 7)، يكمن اختلاف العلماء في فهم هذه الآية، في أن «من جعل الوقف على لفظ الجلالة، قال: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله، فنؤمن به ونفوض علمه له ولا نبحث في تأويله، ومن جعل الوقف على: (والراسِخونَ في الْعِلْمِ)، قال: «لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» فهم يعلمون تأويله بإرادة معنى يحتمله اللفظ ...»[3].

* فما هو موقف الشيخ بيوض من تأويل المتشابه، في معترك هذا الخلاف؟ لكن قبل ذلك ما هو مفهوم المتشابه عند الشيخ بيوض؟ وما هو مفهوم التأويل عنده؟

أ/ اختلاف العلماء في مفهوم المتشابه:

بداية نود أن نشير إلى أن العلماء اختلفوا في معنى المتشابه إلى أقوال: فمنهم من يرى أنه ما يصرف عن ظاهره كالآيات الموهمة للتشبيه، ومنهم من يرى أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة والحروف المقطعة في أوائل بعض السور، ومنهم من يرى أن المتشابه ما لم يتضح معناه، ومنهم من يرى أنه ما يحتمل وجهين فما فوق، ومنهم من يرى أنه ما لم يعقل معناه كأعداد

---

[1]- عبد الوهاب خلاف: **أصول الفقه**، ص 176.

[2]- (م.س)، ص175-176.

[3]- (م.س)، ص 176.

الصلوات واختصاص الصوم برمضان، ومنهم من يرى أن المتشابه ما لا يستقل بمعناه بل يـرد إلى غيره، أي إلى المحكم ... وغيرها من الأقوال[1]، التي تدل في اية الأمر على خفاء دلالة المتشـابه؛ وبالتالي صعوبة إدراكه أو استحالته.

ب/ مفهوم المتشابه عند الشيخ بيوض:

في ما اطلعنا عليه من تفسير الشيخ بيوض؛ لم نقف على تعريف اصطلاحي محـدد للمتشـابه، ومن خلال استقرائنا لبعض المواضع التي تعامل فيها الشيخ مع آيات متشا ات –بالمعنى العقدي- وجدناه يرى أن المتشابه يشمل أغلب المعاني-السالفة الذكر- التي ذهب إليها العلماء، ومؤداهـا خفاء حقيقة اللفظ أو النص المتشابه.

ويمكن أن نحدد مواصفات المتشابه عند الشيخ –كما استنتجناها- في النقاط الآتية[2]:

أ) هو ما يتعلق بشأن من شؤون الله تعالى.

ب) ما استأثر الله تعالى بعلمه.

ج) ماله وجوه متعددة، يحتملها اللفظ.

د) ما لا يتعلق به تكليف في العقيدة ولا في العبادة ولا في السلوك.

هـ) ما لم يبين الشارع المراد منه، ولم يرد دليل صحيح عن النبي ρ في تفسيره.

و) ويشمل المتشابه عند الشيخ –أيضا- ما يقتضي ظاهره إشكالا وتعارضا مع نصوص أخرى.

ج/ مفهوم التأويل عند الشيخ بيوض:

التأويل عند الأصوليين والمتكلمين هو: «صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه لقرينة[3] اقتضـت ذلك الصرف».

والقرآن الكريم يستعمل التأويل –كما ذكر الراغب الأصفهاني- بمعنى رد الشـيء إلى الغايـة المرادة منه، علما كان أو فعلا، ويستعمله بمعنى البيان كما في قوله تعالى: (هلْ ينظُرونَ إلا تاويلَـه

---

[1]- اطفيش: **شامل الأصل والفرع**، ج1/ص49.

[2]- انظر: **تفسير سورة السجدة**: ص 36-37، **تفسير سورة طه**: ص 215-216، **تفسير سورة لقمان**: ص 17-19.

[3]- السالمي، أبو محمد عبد الله بن حميد: **كتاب شرح طلعة الشمس علمى الألفية**، وزارة التراث القومي، عمان، ط3: 1413هـ/1993م، ص169.

يوم يأتي تأويله) (الأعراف: 53)، أي: بيانه، وكما في قوله تعالى: (ذَلِكَ خير وأحسن تـأويلاً) (النساء: 59)، قيل في معناها: أحسن معنى وترجمة[1].

ولما عدنا إلى ما في أيدينا من تفسير الشيخ بيوض، لم نقف فيه على تعريف محدد للتأويل –كما في المتشابه-، إنما وجدناه يرى أن الأصل في كل ما استعمله القرآن والحديث من ألفاظ أن تحمل على معناها الحقيقي الظاهر، إلا إذا تعذر حملها على ذلك، فإنه يلتمس لها تأويل، وضرب مثالا لما ذهب إليه؛ الآيات الموهمة لتشبيه الخالق –تبارك وتعالى- بالمخلوق[2].

فمفهوم التأويل عند الشيخ مطابق لتعريف الأصوليين والمتكلمين له.

د/ موقف الشيخ بيوض من تأويل المتشابه:

نقرر بداية أن الشيخ يصنف المتشابه ضمن أصعب مواضيع القرآن بحثا ومعالجة فيقول: «إنه لمن أخطر المواضيع التي يصعب الحديث فيها: التي تتعلق بشأن من شؤون الله تعـالى الخاصـة بـه، والصعوبة تأتي من حيث إن الخوض فيها، أو في الآيات المتشا ة مزلة أقدام، لأنه سـير في أوعـر الطرق، إذِ الإنسان لا يملك الحرية التامة المطلقة في التأويل والتفسير، فيذهب يمينا وشمـالا كمـا يصنع بكلام البشر، فيقول الشاعر ما لم يقل، والكاتب ما لم يكتب –وإن كـان لم يقصـده-، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للمواضيع التي تتعلق بشؤون الله الخاصة التي لا يمكن الوقوف على حقيقتها»[3].

فالشيخ لم يغلق باب التأويل، لكنه دعا إلى الحذر والتورع عند ولوجه، مبينا وجه الخطورة فيه، وهو كون الإنسان –في تلك المواضيع المتعلقة بالغيب- مقيدا بما أخبر به الشارع؛ وليست له حرية تفسيرها، كما في كلام البشر.

---

[1]- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحُسين بن محمد، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1: 1418هـ/1997م، ص299.

[2]- **تفسير سورة الكهف**، ص 226-227.

[3]- **تفسير سورة السجدة**: ص 36.

وقد جاء موقف الشيخ من المتشابه موقفا وسطا بين الفريق الذي يفوض علم المتشـابه إلى الله تعالى تفويضا مطلقا، وبين الفريق الذي يجيز للراسخين في العلم تأويله، ويمكن تلخـيص موقـف الشيخ في الآتي[1]:

(أ) أول ما يجب على المرء؛ أن يفوض العلم بحقيقة المتشابه إلى الله تعالى، لأنه أعلم بمراده منه؛ وذلك كمنطلق عام.

(ب) لا حجر على العلماء بعد ذلك أن يبحثوا عن العلل والحكم والمعاني التي يحتملها اللفـظ المتشابه، اعتمادا على القرائن، وأن يحاولوا إصابة كلمة الحق؛ جهد المستطاع، وما لم يصـلوا إلى إدراكه فوضوا علمه إلى الله تعالى.

وقد قيد الشيخ موقفه من التأويل بضابطين أو شرطين:

الشرط الأول: ألا يؤدي التأويل إلى تجسيم الله تعالى –كما فعلت اليهود- أو إلى وصفه بأنـه يأتي عليه زمان أو يحيط به مكان[2]، ومفهوم المخالفة؛ أن يؤدي إلى تنـزيه الله تعالى عن كل صفات النقص، ووصفه بكل صفات الكمال.

الشرط الثاني: يقول فيه الشيخ: «ألا يعتمد قول من الأقوال، ويعتقد فيه اعتقادا راسـخا أن هذا هو الحق، وغيره هو الباطل، فلنا أن نتأول الكرسي أو الاستواء أو غيره بما نتأوله، ولكن ليس لنا أن نقول: إن هذا هو الحق وغيره الباطل، إذ يمكن أن يكون المعنى مـا أدركنـاه واخترنـاه، واطمأنت إليه نفوسنا، وقد يكون غيره»[3].

بعد هذا التقييد لاستعمال التأويل، يحكم الشيخ على موقفه –من غير جزم- فيقـول: «فـإذا سلِمنا من هذين الأمرين -أي مما ذكره سابقا- فلا بأس من التأويل، وإننا نظن أننا على الصراط المستقيم»[4].

ولعل هدف الشيخ من هذا التقييد يكمن في أمرين أساسيين:

---

[1]- انظر: (م.س): ص 36-37، **تفسير سورة الشعراء**: ص 284، **تفسير سورة لقمان**: ص 17-19، **تفسير سورة الأحزاب**: ص 693.

[2]- **تفسير سورة السجدة**، ص 37.

[3]- (م.ن).

[4]- (م.ن).

1) إمساك العقل -أثناء التأويل- عن الابتعاد عن محكمات النصوص وظواهر الألفاظ، وعدم مصادمة أصول الدين ومقاصده.

2) تأكيد مبدأ: ظنية النص المتشابه دلالة، حتى لا يقطع بوجه من وجوه التأويل، ويرد علـم حقيقته إلى الله، في ايـة الأمر.

وفيما يلي نماذج من رأي الشيخ في بعض المسائل المتشا ة.

هـ/ موقف الشيخ من الحروف المُقطعة في أوائل السور:

من جملة متشابهات القرآن: أوائل السور المبدوءة بحروف هجائية مقطعة، مثل: ألم، طسم طس، ص، ق...[1].

فهل كان موقف الشيخ بيوض منها؛ موافقا لموقفه من تأويل المتشابه عموما ؟

من خلال استقرائنا تفسير الشيخ لتسعة سور[2]؛ -متضمنة في الأجزاء المطبوعة- مبدوءة بتلك الحروف، لاحظنا أن موقفه منها مضطرب، ومتناقض مع موقفه العام من المتشابه، فهو من جهة يرى أن «أول ما يجب على المرء تجاه هذه الحروف أن يفوض فيها الأمر إلى الله تعالى، فهو أعلم بمراده منها، وليس بعد ذلك حجر على العلماء، أن يبحثوا في الحكمة والمراد من هذه الحروف، ولكل عالم رأي وقول، لكن لا يجوز القطع أن هذا هو المراد لا غير، فلو صح عن النبي ρ شيء لقبلناه»[3]، وهذا الموقف هو ما صرح به الشيخ في مواضع من تفسيره لهذه الحروف[4]، وهو موقفه من تأويل المتشابه عموما، وهو موقف صحيح؛ باعتبار أنه ينبني على مذهب كثير من العلماء الذين «ذهبوا إلى أن الراسخين في العلم يمكن أن يؤولوه تأويلا يحتمله اللفظ ... وهو لا يعدو حدود الظن»[5].

وبعد تصريح الشيخ بموقفه هذا، يأخذ في بيان أهم الأوجه المحتملة، التي ذهب إليها العلماء في تأويلها، وغالبا ما يرجح قول جمهور المفسرين، الذين ذهبوا «في تفسير معنى هذه الحروف إلى أن الله تعالى أراد أن يقيم الحجة على كفار قريش أن هذا القرآن كلام الله المنزل، مركب من نفس الحروف التي ينطقون بها، ... ونفس الكلمات، ولكنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثله، وهذا من أقطع الأدلة على أن القرآن من نسج الله تعالى، وأكثر السور المبدوءة بهذه الحروف؛ ذُكِر بعدها لفظ الكتاب أو القرآن، أو آيات الكتاب»[6].

---

[1]- **تفسير سورة لقمان:** ص 18.

[2]- وهي: مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان والسجدة.

[3]- **تفسير سورة الشعراء**: ص 284.

[4]- انظر: **تفسير سورة لقمان:** ص 17-19، **تفسير سورة العنكبوت:** ص 6-8، **تفسير سورة السجدة:** 5-6.

[5]- محمد فتحي الدريني: **المناهج الأصولية** في **الاجتهاد بالرأي** في **التشريع الإسلامي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3: 1418هـ/1997م، ص 138.

[6]- **تفسير سورة النمل:** ص 5-6.

هذا من جهة، لكن من جهة أخرى وجدنا الشيخ –في موضعين اثـنين- يميـل إلى مـذهب السلف؛ القائل بالتفويض المطلق لله تعالى في تأويل المتشابه، دون البحث حتى في العلل والحكـم، التي تكمن في هذه الحروف وأمثالها.

فبعد أن ذكر طائفة من الأقوال في معنى تلك الحروف، بمناسبة تفسيره للحرفين: طَه، من سورة طه؛ قال: «والذي تطمئن إليه نفوسنا أن نقول: الله تعالى أعلم بمراده من هذه الحروف، وذلـك لأنه لا يتعلق ا شيء من العقيدة أو العبادة أو المعاملة ...» [1]، فقد علل الشيخ اختياره هذا، بأن هذه الحروف لا يتعلق ا شيء من التكليف، وكأننا ا هي أقرب إلى الترف الفكـري، ثم بـين الشيخ قدوته في هذا الاختيار فقال: «وقد سلم ذا الأمر من هم أفضل منا ومن هم أقرب مـن منبع الوحي: الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فلم يسألوا النبي ρ عما تعنيه هذه الحـروف، لأن الله تعالى ملأ قلو م إيمانا، فأثمر هذا الإيمان التفويض والاستسلام» [2]، ثم تعجب الشـيخ منـهم؛ كيف لم يسألوا عن هذه الحروف؟، ولعل إنسانا يفهم من تفويضهم هذا، اونـا بكـلام الله أو زهدا في الازدياد من العلم. فيفسر الشيخ موقفهم من هذه الحروف قائلا: «ولا يدل هذا أبدا على التهاون بالأمر أو التهاون بكلام الله تعالى، ولا على قلة الرغبة في الازدياد من العلم ... وإنما الذي نراه: أن هذا نتيجة لرسوخ الإيمان في قلو م» [3].

ثم دعا الشيخ بعد ذلك –بصراحة وجِدية- إلى تبني موقف الصحابة ψ في تفويض علم هـذه الحروف إلى الله تعالى، لما كان هذا الموقف هو ثمرة الإيمان الراسخ، فقال: «وإذا كان هـذا هـو موقف الصحابة ... فهلا وسِعنا ما وسِعهم، ويكفينا ما كفاهم، ونحن لن نبلغ مد أحـدهم ولا نصيفه» [4]، وفي موضع آخر يدعو إلى تبني هذا الموقف عموما في مثل تلك الحروف، وفي غيرهـا من الآيات المتشا ة: «فما كان إذن من هذا النوع من الآيات التي لم يتضح معناهـا، علينـا أن نفوض فيها الأمر لله تعالى» [5].

---

[1] - **تفسير سورة طه:** ص 215-216.

[2] - (م.ن).

[3] - (م.ن).

[4] - (م.ن).

[5] - **تفسير سورة لقمان:** ص 17-18.

ونحن بعد هذا نتساءل؛ لماذا اضطرب الشيخ بين موقفين في مسألة واحدة -الحروف المقطعة في أوائل السور-؛ ولم ينسجم مع موقفه العام من المتشابه؟ ثم إذا كان الشيخ قد مال إلى مذهب التفويض، اقتداء بما ذهب إليه الصحابة ψ، واقتناعا منه بموقفهم –وهم الذين يعتبرهم الشيخ؛ المرجع الأساس في فهم القرآن وتنفيذ أحكامه[1]- فلماذا لم يتمسك الشيخ بهذا الموقف من أول الأمر؟! ويلتزم به في سائر تفسيره لأوائل السور المبدوءة بتلك الحروف، فيوفر على نفسه وعلى مستمعي دروسه جهد تتبع الأقوال، ويستفيد الاقتداء العملي بموقف الصحابة ψ.

ز/ رأي الشيخ في الألفاظ المُشكلة عقديا:

من النصوص المتشابهة تلك التي تتضمن ألفاظا مشكلة، لا تدل بصيغتها على معناها، ويستشكل العقل المراد منها، هل هو الحقيقة أم المجاز؟

يرى الشيخ بيوض في مثل هذه الألفاظ، الرجوع إلى التمثيل والتصوير أي سلوك مسلك القرآن الكريم في تصوير المعاني المجردة في صور محسوسة[2]، وهو تعبير بوجه آخر عن التأويل، وهو: صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز لقرينة.

وقد استدل الشيخ لرأيه هذا، بما ذهب إليه طائفة من العلماء، وذكر منهم الشيخ محمد رشيد رضا[3]، الذي أشار إلى هذا الرأي في تفسير قوله تعالى: (وَإِذَ اَخَذَ ربك مِن بِني ءَادم مِن ظُهورِهِم ذُرِيـاِتهم وأشهدهم علىآ أنفُسِهم, أَلَست بِربكُم قَالُوا بلىا شهدنآ) (الأعراف: 172)، حيث قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير هذا الإشهاد الرباني: «أي أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه؛ بما أودعه في غريزته واستعداد عقله؛ قائلا: -قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتلقين- ألست بربكم؟ فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا ... وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلى أساليب البلاغة، وشواهده في القرآن وكلام البلغاء كثيرة»[4].

---

[1]- **تفسير سورة الأحزاب**: ص 369.

[2]- **تفسير سورة الأحزاب**: ص 695.

[3]- (م.ن).

[4]- محمد رشيد رضا: مصدر سابق، ج9/ص387.

فالشيخ محمد رشيد رضا يرجح التمثيل في تفسير إشهاد الله تعالى لعباده على أنفسهم، والذي اعتبره كناية عن فطرة التوحيد التي فطر الله ا عباده، وهيأ في عقولهم الاستعداد لها، واعتبر الشيخ رضا هذا المعنى هو ما يتبادر إلى الفهم من الآيات لذا ا[1]، وقد سلك الشيخ بيوض ذات المسلك – تقريبا- في تأويل الألفاظ المشكلة.

و/ مثال لتأويل المشكل عند الشيخ (لفظ العرض):

بمناسبة قوله تعالى: (إنا عرضنا الأمانةَ علَى السماواتِ والأرضِ والْجِبال فَـأبين أنْ يحمِلْنهـا وأشفَقْن مِنها وحملَها الإِنسانُ إنه كَانَ ظَلُوما جهولاً) (الأحزاب: 72)، فسر الشيخ بيوض أولا معنى الأمانة في الآية، بأ ا مجموع ما في القرآن من التكاليف والتوجيهات، التي لو أنزلـت علـى جبل لتصدع بعد ما كان متماسكا، من ثِقَل هذه الأمانة، وقد استند الشيخ في فهمه هذا علـى قوله تعالى[2]: (لَو أنزلْنا هذَا الْقُرءَانَ علَىا جبلٍ لرأيته خاشِعا متصدعا من خشيةِ اللهِ) (الحشـر: 21).

ثم رأى الشيخ –بعد ذلك- إشكالا في لفظ: العرض والمقصود منه، فتسـاءل: «مـا معـنى العرض؟ هل استشار الله السماوات والأرض والجبال في تحمل الأمانة فقالت: لا نستطيع، ثم جاء الإنسان فقال: أنا مستعد لتحملها؟ هل العرض حقيقةً؟ وإذا كان كذلك فمتى كان ذلـك؟»[3]، يكمن استشكال الشيخ للآية في صعوبة الفهم لعرض أمانة التكليف على ما لا يعقل من الخلـق: السماوات والأرض والجبال.

ثم ذكر الشيخ أن كثيرا من المفسرين ذهبوا إلى أن عرض الأمانة على السـماوات تـم علـى حقيقته وظاهره، معتمدين في ذلك على روايات مختلفة، ساق الشيخ بعضا منها، وعلق عليها بعدم الصحة والثبوت عن النبي ρ، فقال: «والأمور الغيبية لا يقال فيها بالرأي، فلو ثبت عن الـنبي ρ شيء صحيح لقبلناه على الرأس والعين، ونفوض الأمر فيه إلى الله، ولكن ليس هناك تفسير للنبي ρ

[1] - (م.س)، ج9/ص388.
[2] - **تفسير سورة الأحزاب**: ص 692-693.
[3] - (م.س)، ص 693.

عن هذا العرض، ولا عن زمانه، ولا عن كيفيته»[1]، واعتبر الشيخ كل ما قاله المفسرون –اعتمادا على تلك الروايات- مجرد تخمين، ثم قرر موقفه من هذا المُشكل، بأن «الراجح هو الرجـوع إلى التمثيل»[2].

فبين الشيخ أن قوله تعالى: (إِنا عرضنا الآمانةَ علَى السماواتِ والآرضِ والْجِبالِ) هو نوع من التمثيل، المقصد منه بيان ثِقَل كلام الله تعالى وعِظَم شأنه، باعتبار نسبته إلى المولى Y وباعتبار ما يتضمنه من حِكَم وأسرار، وشريعة هادية إلى ما فيه السعادة، وأن هذا التصوير يظهر منه للمتأمل حقيقة ما أعطى الله للإنسان من إرادة واختيار لم يعط لغيره، وما كلفه من أمانة لم يكلـف ـا غيره، فقدم له تلك الصورة؛ «حتى لكأن هذا التكليف عرِض على السماوات والأرض والجبـال فعجزت عن حمله، وحقيقةً إ ا لا تستطيع حمله ما لم يكن لها تخيير»[3].

ي/ خصائص منهج الشيخ بيوض في تأويل المتشابه:

يمكن أن نستخلص خصائص منهج الشيخ في تأويل المتشابه –من خلال الأمثلة السـابقة- في النقاط الآتية:

1) الإيمان بأن حقيقة المتشابه علمها عند الله تعالى وحده.

2) ضرورة اجتهاد العلماء في إصابة الحق في معنى المتشابه، مع عدم القطع بنتيجة البحث، إذ تبقى دلالة المتشابه في إطار الظن.

3) رد المتشا ات إلى النصوص المحكمة، وتأويلها في إطار أصول الدين وقواعـده ومقاصـده الكلية، ضمانا لسلامة الفهم والاعتقاد، وحفاظا على وحدة النصوص من التناقض.

بعد أن رأينا موقف الشيخ بيوض من تأويل المتشابه، الذي أعطى فيه دورا مهما للعقل في الفهم والترجيح مع التقيد بالشرع؛ فما هو موقفه من المسائل المُغيبة عن العقل الـتي لا مطمـع لـه في إدراكها؟

2/ موقف الشيخ بيوض من المسائل المُغيبة عن العقل:

---

[1] - (م.س)، ص 695.

[2] - (م.ن).

[3] - (م.س)، ص 696، وفي مسألة تأويل المُشكَل عند الشيخ، انظر أيضا: تأويله لثقل الموازين في **تفسير سورة المؤمنون**: ص 267، وتأويله للبرزخ في تفسير سورة المؤمنون: 265-266.

قبل أن نتعرف موقف الشيخ بيوض من المسائل المغيبة عن العقل، يحسن بنا أن نرى مفهوم الغيب في استعمال القرآن الكريم، وعند الشيخ بيوض.

أ/ مفهوم الغيب في استعمال القرآن الكريم:

قال الراغب الأصفهاني: «الغيب: مصدر غابت الشمس وغيرها: إذا استترت عن العين، يقال: غاب عني كذا، قال تعالى: (أم كَانَ مِن الْغَآئِبِين) (النمل: 20)، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعما يغيب عن علم الإنسان بمعنى الغائب، قال: (وما مِن غَآئِبَةٍ فِي السمآءِ والأرضِ إلا فِي كِتابٍ مبِينٍ) (النمل: 75) ... والغيب في قوله: (يومِنونَ بِالغيبِ) (البقرة: 3)، ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداءة العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام، وبدفْعه يقع على الإنسان اسم الإلحاد»[1].

ب/ مفهوم الغيب عند الشيخ بيوض:

يرى الشيخ أن الغيب هو كل شيء غير موجود في عالم المحسوسات، أو هو كل موجود وراء المادة، سواء كان يتعلق بالعالم الدنيوي أم بالعالم الأخروي، ويرى أن علم البشر بهذه الأمور إنما هو بإخبار الله تعالى عن طريق الوحي، والله يطلِع على غيبه من يشاء وبما يشاء، كما أخبر تعالى عن بعض أحوال القيامة في القرآن الكريم[2].

فالشيخ بهذا التعريف فصل دائرة الغيب عن دائرة الشهادة، بالنسبة لنظر العقل، وحصر إدراك العقل لعالم الغيب في ما أخبر به الوحي.

ج/ موقف الشيخ بيوض من المسائل المُغيبة عن العقل: يرى الشيخ أن الموقف الواجب على المسلم تجاه الغيب ومسائله، هو التصديق به وقبوله، والوقوف عند حدود ما أخبر الله تعالى منه دون زيادة ولا إنقاص، أو بحث فيما استأثر الله بعلمه، إذ لا يعلم الغيب إلا الله[3].

- مثال قضية الروح:

فبمناسبة قوله تعالى: (ويسألُونك عنِ الروحِ قُل الروح مِن أمرِ ربِي ومآ أُوتيتم من الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً) (الإسراء: 85)، عقد الشيخ فصلا طويلا في مسألة الروح، لا في بحث حقيقتها، بل في بيان

[1]- الراغب الأصفهاني: مرجع سابق، ص 616-617.

[2]- **تفسير سورة النمل**: ص 144-145.

[3]- (م.ن).

واقع الترف الفكري الذي جر بعض العلماء والفلاسفة إلى بحث مسألة غيبية كهذه، فأخذ الشيخ يذكر الإشكالات التي طرحها هؤلاء في الموضوع، والآراء الغريبة التي ذهبوا إليها، ومن بين الإشكالات التي حكاها الشيخ عنهم: «أين كانت الروح قبل أن تحل بالجسم؟ هل وجدت قبل الجسم أو وجدت معه؟ أو وجدت بعده؟ هل الأرواح مجموعة كلها في مكان حتى إذا خلق الله جسما أو صور خلْقًا يبعث إليه بروحه؟ ... وعلى قدر اختلافهم في الروح قبل أن تحل بأجسامها؛ اختلفوا في مصيرها بعد خروجها منها، ويتولد عن هذا مذهب المتناسخين، مستندين إلى أشياء من بنات عقولهم»[1]، حيث يقولون بتناسخ الأرواح، أي أن روح كل شخص تخرج من جسمه وتحل بجسم آخر[2].

ويعلق الشيخ بعد ذلك على هذه المباحث بقوله: «ولكن كل هذا خبط عشواء، إن هم إلا يخرصون، وإن هم إلا يظنون، لا أحد يقف على حقيقة مصائر الأرواح بعد خروجها من الأجسام»[3]، إلا الله تعالى.

ثم بين الشيخ سبب عدم تفصيل القرآن في حقيقة الروح وفي غيرها من المسائل الغيبية، مفترضا سائلا يسأل: "لماذا لم يشف الله تعالى القلوب والصدور من هذه الحيرة؟ وهو الذي يقول: (وننزلُ مِن الْقُرَءَانِ ما هو شِفَآءٌ ورحمةٌ لِلْمومِنين ولاَ يزيد الظَالِمِين إلا خسارا) (الإسراء: 22)»[4]، فأجاب الشيخ بأن البشر هم الذين أمرضوا أنفسهم بهذه القضية، لأنها لا تتعلق أبدا بما يجب على المرء معرفته، وتقويم السلوك به، من أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق والعقائد، ولا تتعلق بما يقرب المرء من ربه[5].

ثم يبين الشيخ الموقف الواجب اتخاذه في مثل هذه القضايا فيقول: «ولعل الاعتراف بالعجز والقصور، وتفويض الأمر إلى الله هو الأنفع والأولى في كثير من الأشياء، لأن في ذلك تعظيما لله تعالى»[6].

---

[1] - **تفسير سورة الإسراء**: ص 158.
[2] - (م.ن).
[3] - (م.ن).
[4] - (م.س): ص 163-164.
[5] - (م.ن).
[6] - (م.ن).

- مثال قضية الخلق وتعلقها بالإرادة الإلهية:

من القضايا الغيبية التي يدعو الشيخ إلى التسليم فيها؛ قضية الخلق وتعلقها بالإرادة الإلهية كما قال تعالى: (إِنمآ أمره,ۥ إِذَآ أراد شيئًا أنْ يقُولَ لَه كُن فَيكُونُ) (يس: 82).

فبمناسبة قوله تعالى: (ما كَانَ للهِ أنْ يتخِذَ مِن ولَدٍ سبحانه إِذَا قَضىآ أمرا فَإِنما يقُولُ لَه كُن فَيكُونُ) (مريم: 35)، بين الشيخ ما يجب اعتقاده وهو أن إرادة الله إذ تعلقت بشيء كان ذلك الشيء، ثم الوقوف عند هذا مما أخبر الله به دون التعمق في البحث عن سر الخلق، لأنه من أسرار الله تعالى، والخوض فيه يؤدي إلى الشرك، وذكر الشيخ بأن العجز عن إدراك هذه الحقيقة يستوي فيه الناس جميعا، عالمهم كجاهلهم[1]. ودعا إلى الفهم الصحيح لهذا القضية قائلا: «ولْنكتف بالفهم العامي العجائزي البسيط؛ الذي لا يعرف من الفلسفة شيئا، ولا يدرك الفرق بين خطاب المعدوم وخطاب الموجود، وإنما قُصاراه أن يقول: ما يرده الله يكن، ولا شيء وراء هذا.

ثم يعلق الشيخ على هذا الفهم وما يترتب عنه من إيمان: «وهذا حقا هو الفهم الصحيح، وهو الإيمان النظيف النقي السليم، الذي ليس فيه شائبة شرك أبدا، فإيانا جميعا من التفلسف في مثل هذه المواطن الكبرى»[2].

فالشيخ يعتبر التفلسف وإعمال العقل في القضايا الغيبية التي لم يفصل فيها الوحي، يؤدي إلى الشرك، كما أن التكذيب ا شرك أيضا، لأ ا مما استأثر الله تعالى بعلمه ولا يبلغ علم البشر إلى كنهه، والموقف السليم هو الإيمان بما أخبر الله به وتسليم حقيقته إليه وحده تعالى. ويستشهد الشيخ في عددٍ من مواضع تطرقه لهذه القضايا؛ بالقول المأثور عن بعض العلماء –في إدراك ذات الله صفاته-: «العجز عن إدراكه إدراك، والخوض في إدراكه إشراك»[3].

- مثال قضية الهداية والضلال:

وبمناسبة قوله تعالى: (ومن يهِنِ اللهُ فَما لَه, مِن مكْرِمٍ إِن اللهَ يفْعلُ ما يشآءُ) (الحج: 18)، ذكر الشيخ اختلاف الناس بين مؤمن وكافر، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار، ثم ى عن الخوض في سبب هذا الاختلاف بعد أن سد الله تعالى كل باب بقوله: (إِن اللهَ يفْعلُ ما يشآءُ)، لأنه سِر

---

[1]- **تفسير سورة مريم**: ص 91.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة الإسراء**: ص 36. وانظر أيضا: ص 164.

للخالق، ومحال على المخلوق أن يدرك سِره، والبحث في هذا السر هو سبب ضلال كثير من الناس، «إذ يقيسون ما عندهم بما عند الله، وما في الأخرى بما في الدنيا، وكل ما لم تصل إليه عقولهم ينكرونه»[1].

ثم بين الشيخ الموقف السليم من هذه القضية، وهو وجوب الاعتقاد بأن الله تعالى منزه عن أن يظلم الناس شيئا -لكن الناس أنفسهم يظلمون-، وأن أفعاله كلها حق، كما يجب تفويض سِر اختلاف الناس إليه، ثم طلب الهداية والعزة منه وحده، أما أن يطمع أحد في إدراك سر التوفيق والخذلان، فهذا أمر محال[2].

د/ خصائص منهج الشيخ في المسائل المغيبة عن العقل:

تتلخص خصائص منهج الشيخ في المسائل المغيبة عن العقل – وهي القضايا العقدية التي لم يرد في بيانها النص- في ما يلي:

1) **إذا كانت تلك القضايا من المتشابهات**: يرى الشيخ تفويض العلم بحقيقتها إلى الله تعالى أولا، ثم بذل الجهد في تأويلها؛ بالبحث في حِكَمها ومعانيها التي تحتملها الألفاظ المتشابهة، اعتمادا على القرائن.

2) **إذا كانت تلك القضايا من المسائل المُغيبة عن العقل**: التي لا حظ له في إدراكها، فيرى الشيخ وجوب التصديق بها والوقوف عند حدود ما أخبر الله تعالى، وتسليم الأمر فيها لله تعالى، حفاظا على سلامة الاعتقاد.

---

[1]- **تفسير سورة الحج**: ص 379-380.

[2]- (م.س): ص 380-381. وانظر أيضا في هذه القضية: **تفسير سورة الكهف**: ص 251.

نتائج الفصـل الأول

* تتمثل خصائص منهج الشيخ بيوض في بحث العقيدة في النقاط الآتية:

1) يعتبر الشيخ القرآنَ الكريم، المعلم والمصدر الأساس في فهم العقيدة، بتفسير بعضه ببعض:

- لضمان الفهم السليم للمصطلحات العقدية، وطريقة استعمال القرآن لها.
- ولحل الإشكالات العقدية الواردة في الأذهان.
- ولتوضيح مشاهد الحدث الواحد أو القصة الواحدة، ذلك بجمع أشتا ا في كامل السـور القرآنية.

2) كما أن لتفسير السورة على أساس وحدة موضوعها، والتناسب بين آيا ا، دور كـبير في الفهم الأمثل لمسائل العقيدة المبثوثة فيها.

3) الروايات الواردة في تفسير آيات الأخبار والقصص، يتعامل معها الشيخ بالنقد والتمحيص، فما كان منها مخالفا للشرع، يذكره الشيخ لبيان بطلانه والتحذير من اعتقاده، وما كان منها غير مخالف للشرع، فإما أن يحِقه إذا توافق مع الشرع، وإما أن يذكره استئناسا -مع التوقـف عـن تصديقه- إذا سكت عنه الشرع، وقد يرجح بالقرائن عند اختلاف الروايات، مع عدم الجزم لمـا يتوصل إليه.

4) يعتبر الشيخ قصص القرآن أهم وسيلة لتقرير العقائد، وإصلاح النفوس، فيرى أن المنـهج الأمثل في فهمها هو الاكتفاء بمواطن العبرة منها، وعدم الخوض فيما سكت عنـه القـرآن مـن تفاصيلها، لأنه لا يأخذ من التاريخ إلا ما فيه العبرة.

5) يقف الشيخ من المسائل المُغيبية عن العقل -التي لم يرد في بيا ا النص-، موقف التصديق ا وتفويض حقيقتها إلى الله تعالى، مع التورع في تأويل المتشابه منها، وذلك ببحث معانيها المحتملـة في النص، اعتمادا على القرائن، ودون القطع بنتيجة البحث.

الفصل الثاني

منهج الشيخ بيوض

في بيان وجود الله تعالى

المبحث الأول: معرفة الله تعالى عند الشيخ بيوض

- **أولا/ انطلاق العقل من معرفة الله تعالى**
- **ثانيا/ طريق المعرفة بالله تعالى**

المبحث الثاني: الاستدلال على وجود الله تعالى عند الشيخ بيوض

- **أولا/ الاستدلال بأدلة الآفاق**
- **ثانيا/ الاستدلال بأدلة الأنفس**

المبحـث الأول: معرفـة الله تعـالى عند الشـيخ بيوض

أولا/ انطلاق العقل من معرفة الله تعالى

العقل هو أصل تكريم الله تعالى للإنسان، وتفضيله على كثير من المخلوقات، هذا العقـل هـو قبس من نور الله تعالى -كما يرى الشيخ بيوض- وهو مناط التكليف لابن آدم، الذي اسـتخلفه الله في الأرض لعمارتها واستخراج ما أودع فيها من طاقات وخيرات لصالحه، وذلـك بتوظيـف عقله القابل للتعلم والترقي، عكس المخلوقات الأخرى -كالحيوانات مثلا- التي تحركها إلهامـات محدودة ثابتة منذ أن خلقها الله تعالى[1].

لأجل ذلك يؤكد الشيخ بيوض في تفسيره على ضرورة معرفة الله تعـالى والإيمـان بـه أولا، باعتباره شرطا أساسيا في انطلاق العقل بالتعلم والبحث والاكتشاف في مختلف ميادين المعرفـة، حتى يكون علم الإنسان علما نافعا يسعد به في الدنيا والآخرة، إذ بين الشيخ أن في الحياة أنواعـا من العلوم، فهنالك علم نافع وعلم ضار، وهنالك علم لا ينفع ولا يضر، لكن العلم الحقيقي الذي يجب على الإنسان أولا أن يتعلمه هو ما يوصله إلى الله تعالى ورضاه[2].

كما يؤكد الشيخ على حقيقة التلازم بين العلم والإيمان التي أكدها القرآن الكريم، فلا يتحقـق الإيمان بالله تعالى بدون علم يقيني بما يجب في حقه، ولا ينفع علم الإنسان –مهما بلغ- مـن دون إيمان[3]، وقد ذكر الشيخ هذه الحقيقة في معرض تفسيره لقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْـمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْـتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّـكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُـونَ) (الروم: 56)، ومحل الشاهد على ما قرره الشيخ، هو قوله تعالى: (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْـمَ وَالإِيمَـانَ)، فعرف الشيخ من هم هؤلاء قائلا: «هم الذين أعطاهم الله العلم، ونور بصائرهم، وعرفوا الحـق

[1] - **تفسير سورة الإسراء**: ص41.
[2] - **تفسير سورة الروم**: ص64.
[3] - (م.س): ص345-346.

فآمنوا به وعملوا بمقتضاه»[1]، ونفى من الأذهان توهم التنافر بين العلم والإيمان، «بل الحق أن الإيمان يأمر بالعلم، والعلم يدعو إلى الإيمان، والسعيد من جمع بينهما»[2].

وقد جسد الشيخ هذه الحقيقة في جل مواضع تفسيره للآيات الداعية إلى النظر والتأمل في مشاهد الكون والنفس، حيث كان يسوق حقائق علمية حديثة في تلك المشاهد، مستدلا بها على عظمة الله تعالى وكمال صفاته، ومعتقدا أنها مما يرسخ الإيمان في القلوب، وذلك ما سنتطرق إليه؛ من خلال المباحث التي سنعقدها في هذا الفصل –إن شاء الله-.

وعندما أسقط الشيخ هذه الحقيقة على الواقع، وجد تفشي ظاهرة الإلحاد والشرك بالله تعالى في واقع كثير من الناس الذين ألهوا العقل وآمنوا بالعلم وحده[3]، خاصة بعدما شهدته العصور الأخيرة من التمدن والتطور السريع في العلوم التجريبية والتقنية، وقد بين الشيخ أنّ هذا الواقع له جذوره في عهد التنزيل، مع المشركين الأوائل الذين أمر الله نبيه ρ أن يخاطبهم –ويخاطب الناس جميعا- بالقرآن الذي يقيم عليهم الحُجج، وذلك بالنظر في مشاهد الكون والحقائق التي يعيشونها، ومن تلك الحُجج؛ الآيات الخمسة من سورة النمل التي تبتدئ كل منها باستفهام استنكاري: (أَمَّن خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالارضَ وَأَنزَلَ لَكُم منَ السمَآءِ مَآءً فَأَنبَتنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهجَةٍ ما كَانَ لَكُم أَن تُنبِتوا شَجَرَهَآ أَءِلَه مَعَ اللهِ بَلْ هم قَوم يَعدِلُونَ ... أمن يبدَأُ الْخَلْقَ ثُم يعِيده, وَمَن يرزقُكُم منَ السمَآءِ وَالارضِ أَءِلَه معَ اللهِ قُلْ هَاتوا برهَانَكُم إِن كُنتم صَادِقِينَ) (النمل: 60-64).

يقول الشيخ في هؤلاء المشركين المخاطَبين بتلك الآيات: «ولو اتبع هؤلاء؛ الطريقَ المستقيم، وسلكوا طريق الفطرة لدلتهم إلى الإيمان بالله، لأن هذه حقائق لا يستطيعون إنكارها»[4]، فإعراضهم عن الفطرة والطريق المستقيم سبب شركهم وجهلهم -وإن زعموا العلم-، كما يصفهم الشيخ في موضع آخر بقوله: «أكثر هؤلاء الضالين لا يعلمون، وإن زعموا أنهم وصلوا من العلم درجة كبيرة، ولكن ما أبلدهم وما أجهلهم، وإن علمهم كله لا ينفع ما لم يؤمنوا بالله تعالى، ويعرفوا ما تقتضيه الفطرة من الإيمان أن لهذا الكون مدبرا حكيما، خالقا رزاقا، قديرا عليما ...»

---

[1] - (م.س): ص 346.
[2] - (م.ن).
[3] - (م.ن).
[4] - **تفسير سورة النمل**: ص 124.

[1]، علمهم هذا كفاهم وأغناهم في الدنيا، لكنهم اغتروا وفرحوا به، وكفروا بر م، فقال فيهم تعالى[2]: (فَلَمَّا جَآءَتهم رسلُهم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحوا بِمَا عِندَهم منَ الْعِلْمِ) (غافر: 83).

يتأمل الشيخ في واقعه بعد مرور ألف وأربعمائة سنة من نزول تلك الآية الأخيرة، فيجد الملاحدة والكفرة، وكثير من الشباب المتعلم على أيديهم؛ يفرحون أيضا بما عندهم من العلم[3]، ولا بد من الإشارة إلى أن الشيخ لا يستهين بالعلوم المادية، لكنه يكْبر عليه أن يغتر أصحاب العلم بعلمهم، ويكفروا بر م، حتى إذا ذُكروا بالله تعالى وباليوم الآخر، سخروا من أهل الدين واحتقروا علومهم، وقالوا بلسان حالهم: «ألا هناك من علم أو صناعة أو تقنية»، وظنوا أ م أرباب الأرض، يفعلون ما يشاءون، حتى إ م أنكروا سلطان الله عليهم، بل أنكروا الله تعالى ذاته، فصار العلم والصناعة إلههم ومعبودهم، وذلك ما نعاه الله على الأولين، وهو ينطبق تماما على كثير من أهل هذا الزمان[4].

وقد ضرب الشيخ أمثلة واقعية في تفسيره، للعقل حينما يسير بغير هدى من الله، يتعلم صاحبه ويبحث في شتى صنوف العلم، وهو لا يعرف الله ولا يقدره حق قدره، كيف يكون علمه وبالا عليه، وعلى البشرية جمعاء، مع أنه في مقاييس البشر من العلماء الأفذاذ، والأبطال العظام.

ومن ذلك مثلا، إشارته إلى فلاسفة اليونان: كأرسطو وسقراط وأفلاطون، فاعترف الشيخ لهم أولا بتقدمهم في مجال الفلسفة، لكنه استدرك أن فلسفتهم كلها مبنية على أساطير الآلهة المتعددة؛ المتنازعة مع البشر؛ وفيما بينها، كما تأسف الشيخ لافتتان كثير من المسلمين ذه الفلسفة، وهي كلها إفك وشرك بالله تعالى، على ما في بعض أصحا ا من تسفل خُلُقي؛ كأفلاطون الذي يبيح الشذوذ الجنسي، ويدعو إلى إباحية المرأة بصورة عجيبة[5].

فليس مقياس الاستقامة على الطريق عند الشيخ بيوض، هو التقدم العلمي المادي، إذ لا يصح عنده أن يتخذ العلم المادي دليلا على الاستقامة، إنما المقياس الصحيح هو معرفة الله تعالى، حتى لو

---

[1]- (م.س): ص127-128.

[2]- **تفسير سورة الروم**: ص 68.

[3]- (م.ن).

[4]- (م.س): ص 69.

[5]- **تفسير سورة لقمان:** ص 458، للاستزادة من الأمثلة التي ساقها الشيخ في المسألة، انظر: (م.س): ص 459-464، **تفسير سورة الروم**: 69-71، **تفسير سورة المؤمنون:** ص 216-219.

كان المرء لا علاقة له البتة بعلوم المادة. وبالمثال يتضح الحال، حيث بيّن الشيخ أنه قد يكون أحد وليا من أولياء الله تعالى، وأقرب الناس إليه، ما عرف الدنيا وما عرفته، لكنه يعرف الله، وأنه المالك الخالق الرازق، وأنه رب كل شيء، فاتخذه ربا يعبده بما شرع له؛ فإن الله تعالى لا يسأله يوم القيامة عن عدم اطلاعه على علم من علوم الكفاية، بل يسأله عن علاقته به، فيجيب بأنه عرفه فأحبه واتبعه، فيفتح له ربه أبواب الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين، والعكس بالعكس – كما يرى الشيخ بيوض- فهناك أعلام بلغوا الذروة في العلم الدنيوي، لكنهم من أخبث الشياطين، فهم في الدرك الأسفل من النار، بسبب الطغيان بعلمهم، وإطلاق العنان لشهواتهم[1].

إن نظرة الشيخ هذه، لا تعني أبدا استهانته بالعلوم الكونية أو دعوته إلى الزهد فيها، بل يراها وسيلة هامة في تحصيل الإيمان وترسيخه، إذا طلبها صاحبها بفطرة سليمة، وتجرد من الشهوات والطغيان. إنما ينظر الشيخ إلى معرفة الله تعالى بفقه الأولويات، فيرى أن معرفة الله ومعرفة ما يجب في حقه من عبادة وخضوع وتقرب؛ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي هي رأس العلم[2]، وأول ما يجب على المرء تعلمه، ثم ليطلب بعد ذلك ما شاء من العلوم، حتى يجمع بين الحُسنَيين، بشرط تقيده بمنهج الله تعالى.

وقد ساق الشيخ مثالا واقعيا على العالِم الذي يدعوه علمه بالكون؛ إلى الإيمان لا إلى الكفر، وأشاد بعلمه، وهو صاحب النظرية النسبية: ألبرت أينشتاين[3]، حيث سجل الشيخ للناس ما أبداه هذا العالم من انطباعات إيمانية، بعد اطلاعه على حقائق واكتشافات كثيرة في الكون، ومما نقله الشيخ عنه أنه قال: «إن ديني هو إعجابي في تواضع لتلك الروح السامية التي لا حد لها، تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي لا تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو الإيمان

---

[1]- **تفسير سورة لقمان:** ص 457-458.

[2]- **تفسير سورة الإسراء:** ص 168.

[3]- أينشتاين، ألبرت: (1879-1955م)، عالم في الفيزياء النظرية، ولد بألمانيا، ودرس بها وبسويسرا، حصل على الدكتوراه من جامعة زيوريخ عام 1905م، في سنة 1916م أخرج "النظرية النسبية العامة" وهي تحدد العلاقة بين الجاذبية وبين انحناء الفراغ ذي البعد الزمني الرابع. أجرى بحوثا على ظاهرة "الكهروضوئية" ونال بها جائزة نوبل للفيزياء سنة 1921م.

المرجع: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية: **الموسوعة العربية الميّسرة**، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط2: 2001م، مج1/ص412.

العاطفي العميق؛ بوجود قدرة عاقلة مهيمنة، تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام، إن هذا الإيمان يؤلف معنى الله»[1].

واعتبار معرفة الله تعالى؛ أول الواجبات على الإنسان، هو مذهب الإباضية، حيث تتعرض لهذه المسألة –غالبا- مصادر العقيدة عندهم[2]، فيقول الشيخ الجيطالي[3] في أول الواجبات: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى قدم معرفته على العبد في الدنيا على سائر المفروضات، كما قدم السؤال عنـها في الآخرة قبل سائر السؤالات»[4]، واستشهد الشيخ الجيطالي بقوله تعالى في خصال البر: (لَيسَ الْبِـر أَن تَوَلواْ وجوهَكُم قِبَلَ الْمَشرِقِ وَالْمَغرِبِ وَلَكِن الْبِر مَن آمَنَ بِاللهِ وَالْيومِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَـةِ)، إلى قوله تعالى: (أُولَئِكَ الذِينَ صَدَقُواْ وَأُولَئِكَ هم الْمتقُونَ) (البقرة: 177)، كما استشهد الشـيخ الجيطالي بحديث النبي ρ، حين جاءه جبريل يسأله عن الإيمان وعن الإسلام وعن الإحسـان، لـيعلم الناس أمر دينهم[5].

---

[1]- **تفسير سورة لقمان:** ص 480-485.

[2]- انظر مثلا: اطفيش: **شرح عقيدة التوحيد**: ص 111.

[3]- الشيخ إسماعيل بن موسى الجيطالي (750هـ/1349م)، ولد بجبل نفوسة بليبيا، ونشأ في مدينة جيطال، وبعد المراحل الأولى من التعلم ا، أخذ العلم عن الشيخ عيسى بن عيسى الطرميسي. اشتهر الجيطالي بحافظته القوية، فكان شيخا حافظا، شديدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. من مصّنفاته: -قناطر الخيرات، (3 أجزاء) وهي موسوعة فقهية أخلاقية. –شرح نونية أبي نصر، (3 أجزاء مخ) في أصول الدين. –قواعد الإسلام (جزءان) في الفقه وأصول الدين. **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص57-58.

[4]- الجيطالي: مصدر سابق: ص 5.

[5]- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، رقم 48، «...عَن أَبِي هرَيرَةَ قَالَ كَانَ النبِي صَلى الله عَلَيهِ وَسَلمَ بَارِزا يوما لِلناسِ فَأَتَاه جِبرِيلُ فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تؤمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرسلِهِ وَتؤمِنَ بِالْبعثِ قَالَ مَا الْإِسلَام قَالَ الْإِسلَام أَنْ تعبدَ اللهَ وَلَا تشرِكَ بِهِ شَيئًا وَتقِيمَ الصلَاةَ وَتؤَدي الزكَاةَ الْمَفْروضَةَ وَتَصومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الْإِحسَانُ قَالَ أَنْ تعبدَ اللهَ كَأَنكَ تَرَاه فَإِنْ لَم تَكُن تَرَاه فَإِنه يَرَاكَ قَالَ مَتى الساعَةُ قَالَ مَا الْمَسئُولُ عَنهَا بِأَعلَمَ مِن السائِلِ وَسَأُخبِركَ عَن أَشرَاطِهَا إِذَا وَلَدَت الْأَمَةُ ربهَا وَإِذَا تطَاوَلَ رعَاةُ الْإِبِلِ الْبهم فِي الْبنيَانِ فِي خَمسٍ لَا يعلَمهن إِلا الله ثُم تَلَا النبِي صَلى الله عَلَيهِ وَسَلمَ إِن اللهَ عِندَه عِلْم الساعَةِ الْآيَةَ ثُم أَدبَرَ فَقَالَ ردوه فَلَم يَروا شَيئًا فَقَالَ هَذَا جِبرِيلُ جَاءَ يعَلم الناسَ دِينَهم قَالَ أَبو عَبد اللهِ جَعَلَ ذَلِك كُله مِن الْإِيمَانِ»، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم 9. **موسوعة الحديث الشريف**.

ومحل الاستشهاد من الدليلين –كما يرى الشيخ الجيطالي- هو أن الشارع بدأ بالإيمان بـالله عـز وجل، قبل وظائف الإسلام[1]، وعلل الشيخ ذلك بقوله: «لأنه بمعرفة الله سبحانه تؤدى العبـادات رغبة في مرضاته، وتجتنب المحرمات مخافة سَطْوته والتعرض لمقته، فمن لم يعرف معبوده؛ كيـف يرجوه لكشف مَلمة أو تيسير مَهمة، أو كيف يخافه إذا ارتكب موبقة أو أهمل فريضة ؟»[2].

هذه هي قيمة معرفة الله تعالى، ومحلها من سائر المعارف والعلوم، فما هو الطريـق الصـحيح لتحصيل هذه المعرفة، عند الشيخ بيوض؟

ثانيا/ طريق المعرفة بالله تعالى

1/ النظر الاستدلالي في آيات الله طريق المعرفة به:

يرى الشيخ بيوض أن الطريق الصحيح المؤدي إلى معرفة الله والإيمان به هو التفكـر والتـدبر والنظر العقلي في آياته، فبها يستدل على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وسائر صـفاته، علـى طريق الانتقال من الأثر إلى المؤثر ومن الشاهد إلى الغائب، وهذا الطريق هو ما أرشد الله إليـه في القرآن[3]، إذ يرى الشيخ أنه «لا منهج في باب العقيدة إلا منهج الله تعالى في كتابه الكريم»[4].

فما المقصود بآيات الله؟ وما مقصد الشارع من توجيه العقول إلى آياته -في الكون خاصة- كما يرى الشيخ بيوض؟

2/ مفهوم آيات الله:

يعرف الشيخ الآية في اللغة بأ ا «العلامة والأمارة، والدلالة على الشيء»[5]، ويرى أ ا «تطلق على الدليل القوي، والبرهان القاطع؛ الساطع كنور الشمس، بحيث لا يخفى عن أحد»[6]، والذي استفاده الشيخ من استعمال الله تعالى للآية في كتابه؛ أ ا لا تستعمل إلا في الأمر المهم العظـيم، وإذا كانت العلامة عظيمة كان الأمر الذي دلت عليه عظيما كذلك، وخلُص الشيخ ذا إلى وجه

---

[1]- الجيطالي: مصدر سابق، ص 6.

[2]- (م.ن)، وانظر: اطفّيش: **شرح عقيدة التوحيد**، ص 111.

[3]- **تفسير سورة الروم**: ص 332، **تفسير سورة الفرقان**: ص 215-216، **تفسير سورة العنكبوت**: ص 103.

[4]- **تفسير سورة العنكبوت**: ص 105.

5- **تفسير سورة الروم**: ص 140-141.

[6]- (م.ن): ص 349.

تسمية الله لكتابه المقدس بالآيات، وللمظاهر الكونية أيضا بالآيات، لأ ا تدل على وجوده تعـالى وقدرته وعلمه[1]، وهو أعظم شيء في الوجود.

فالآيات التي دعا الله عباده إلى التأمل فيها لمعرفته، تشمل نوعين –كما يرى الشيخ بيـوض- الآيات المتلوة في القرآن الكريم، والآيات ا لملوة في الأكوان والأنفس، فلا ينبغي قصر الفهم علـى أ ا آيات القرآن فحسب، ويستدل الشيخ لذلك من القرآن، حيث أنه كثيرا ما يـذكر مشـاهد السماء والأرض، والشمس والقمر، والإنسان والحيوان، ويعقب على كل ذلك بقوله (إِنَ في ذَلِكَ لَآياتٍ)، وفي قوله تعالى: (إِنمَا يومِن ِبئَايَاِتنَا الذِينَ ِإذَا ذُكروا ِبهَا خَروا سجدا وَسَـبحوا ِبحَمـدِ رَبـهم وَهم لاَ َيستَكِْبرونَ) (السجدة: 15) شاهد آخر على أن الآيات تشمل النوعين معا –كما يرى الشيخ-، ومحل الشاهد (إذا ذُكروا)، ولو قال: إذا تِلَيت عليهم، لكان نصا على أن الآيـات هي الآيات المقروءة في كتاب الله فحسب[2].

3/ مقاصد الشارع من توجيه العقول إلى آياته في الكون:

- المقصد الأول: إقامة الحجة على العباد

المقصد الأساس من الآيات التي أنزلها الله تعالى في كتبه، وبعث من أجلها رسله، هـو إقامـة الحجة على العباد، في تعريفهم بر م –كما يرى الشيخ- حيث تكفي كل آية لوحدها في إقامـة الحجة على من تلاها وتدبر معناها، وكذلك أقام الله الحجة لعباده، بما أرشدهم إليه من التفكر في آيات الكون، حتى يدركوا عظمته[3]، ويؤمنوا بوحدانيته وصفات كماله.

ومن خلال تتبعنا لمواضع تفسير الشيخ للآيات الداعية إلى التأمل في آفـاق الكـون ونفـس الإنسان، لاحظنا أنه يركز أكثر على النوع الثاني من الآيات (الآيات الكونية) باعتبارها المسـلك الأوضح، والأظهر لمعرفة الله، بل ويسميها كتاب الكون[4]، لأ ا تزخر بمعان وأسرار عظيمة كمـا هو شأن كتاب القرآن. ويأتي تركيز الشيخ على كتاب الكون أكثر؛ لأنه متاح ومفتـوح لكـل الناس على اختلاف مداركهم ولغا م –إذ ربما لا يفهم القرآن من ليس له إلمام بلغتـه-، لكـن كتاب الكون؛ يصف الشيخ شمول حجته بقوله: «فكتاب الكون مفتوح لدى كل واحد، وليس

---

[1]- (م.ن): ص 140-141.

[2]- **تفسير سورة السجدة**: ص 86-87، انظر: **تفسير سورة النور**: ص 370.

[3]- **تفسير سورة الروم**: ص 349، **تفسير سورة الفرقان:** ص 215-216.

[4]- انظر: **تفسير سورة الفرقان:** ص 215-216.

مغلوقا أو مخزونا لا يشترى إلا بمال، فيقول أحد: لا أملك ثمن هذا الكتاب، أو هو نادر الوجـود ... كما أن لغته مفهومة يعقلها كل أحد»[1].

وللانتفاع بكتاب الكون، والاعتبار بدلائله الهادية إلى خالقه، يشترط الشيخ على المرء شـرطا أساسيا، وهو النظر إلى الكون نظر تأمل، وفتح عين البصيرة على ما تنقله الحواس إليها من آفاقه، يقول الشيخ –بأسلوب الخطاب-: «فما عليك إلا أن تفتح عين بصيرتك، إذا بكل ما تـراه أو تسمعه، أو تذوقه أو تشمه، يعظك ويدلك»[2]، فإذا ضلّ الناس عن ر م؛ فبإراد م وتعاميهم عن الآيات الظاهرة، لا لنقص البيان فيها[3].

فقد قامت حجة الله على جميع عباده في الإيمان به، بالتفكر في أحداث الكون، لأنه القسـمة المشتركة بينهم، إذ نجد القرآن يحرك أنظار عامة الناس نحو ما يدركونه بحواسهم من الظواهر، كما يحرك عقول العلماء –في ذات الوقت- لاستكناه حقائق الأشياء وكشف أسرارها، وهذه الخاصية القرآنية وظفها الشيخ في عدد من مواضع تفسيره[4]، لينفيَ من الأذهان التوهمَ بأن آيات الكتاب أو آيات الكون تخاطب عقول العلماء فحسب، وتقيم الحجة عليهم دون سائر الخلق في الإيمان بـالله والتزام وشرعه.

فبمناسبة قوله تعالى: (وَمِن رحمَتِهِ جَعَلَ لَكُم الليلَ وَالنهَارَ لِتسكُنوا فِيهِ وَلِتَبتَغوا مِـن فَضـلِهِ وَلَعَلكُم تَشكُرونَ) (القصص: 73)، يقول الشيخ: «وفي آية الليل والنهار حِكَم بسيطة يـدركها الرجل والمرأة، والعالم والجاهل، والبدوي والحضري، وأقل الناس عقلا وأكبرهم إدراكا، وفيهـا حِكَم وراء ذلك يدركها الناس على اختلاف درجا م ...» [5]، ثم يقول بعد ذلك: «فلله تعالى في طلوع الشمس وغرو ا، وفي سيرها مطلقا حِكَم وأسرار، ولا يلزم الواحد منا أن يكـون عالمـا

---

[1] - (م.س).

[2] - (م.ن).

[3] - (م.ن)، وانظر: **تفسير سورة النور**: ص 370

[4] - انظر: **تفسير سورة الروم:** ص190 وما بعدها، **تفسير سورة القصص** ص486 وما بعدها، **تفسير سورة لقمان**: ص75-76.

[5] - **تفسير سورة القصص:** ص 486-487.

بالأشعة حتى يدرك قدرة الله تعالى، ويكفي العلم الظاهري البسيط، ليوصلنا إلى معرفة الله وقدرته، ومن استطاع فتعلم واطلع على السرّ؛ كان ذلك زيادة له في الإيمان ...»[1].

- المقصد الثاني: تقوية الإيمان وترسيخه في القلب

يرى الشيخ أن من مقاصد توجيه الشارع عباده إلى التفكر في آياته؛ تقرير حقيقة وجود الله في الأذهان، فيدلها هذا التفكر على قدرته وإرادته وعلمه وسائر صفاته، وَيعظُم قدره وجلالُه تعالى في القلوب، فيزداد الإيمان فيها رسوخا، ويتقوى حبا له وَيعظم، ويرى الشيخ أن هذا طرف من حكمة توجيه النبي ρ للناس إلى التفكر في الخلق[2]، إذ قال: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق»[3]، وبقدر ما يزداد التأمل في الخلق بقدر ما تزداد تلك المعاني.

وذلك سِر استغراق الآيات الكونية حيزا كبيرا من هدي القرآن الكريم، إذ بين الشيخ أن «الله تعالى شَغَل ثُلُث كتابه تقريبا في بيان عظمته وقدرته وإحاطة علمه، وشمول نعمته في السماوات والأرض، في اختلاف الليل والنهار، في البراري والبحار، في الشموس والأقمار ... ذلك ليعظم الله تعالى نفسه وقوته وسلطانه في قلوب عباده، حتى إذا أدركوا هذه القوة وهذه العظمة التي لا تحد، عِلموا أن مالكها هو الذي يستحق العبادة، وهو الذي تتبع أوامره وتجتنب نواهيه، ويطلب رضاه»[4].

- المقصد الثالث: دفع المؤمن إلى طاعة الله والإخلاص له

والمقصد الأخير من إرشاد الله عباده إلى تدبر آيات الآفاق والأنفس، هو دفعهم إلى طاعته والتزام شرعه وإخلاص الحب والرجاء فيه، وإسلام الوجه له في كل شؤون الحياة، وذلك بعد أن

---

[1]- (م.س): ص 490.

[2]- **تفسير سورة الروم**: ص 303 وما بعدها، ص 184، **تفسير سورة لقمان**: ص 439-441.

[3]-الحديث رواه الربيع بن حبيب في المسند: باب النهي عن الفكرة في الله عز وجل، رقم 827، ج1/ص311، قال: «قال جابر بن زيد حدثنا رجل من أئمة أهل الكوفة الغرماء أبا أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على قوم وهم يتذاكرون فلما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم سكتوا فقال ما كنتم تقولون قالوا نتذاكر في الشمس وفي مجراها قال كذلكم فافعلوا *تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق* وزاد فيه الحسن *إن الله لا تناله الفكرة*».

ورواه أبو محمد الأصبهاني في كتاب العظمة: باب الأمر بالتفكر في آيات الله عز وجل...رقم 5، ج1/ص216، قال: «حدثنا محمد بن ابي يعلى انا اسحاق بن ابراهيم انا سعد بن الصلت انا الأعمش عن عمرو بن مرة عن رجل حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال مر النبي صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون في الله فقال *تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره*». **المكتبة الألفية للسنة النبوية.**

[4]- **تفسير سورة لقمان:** ص 436.

يمتلئ القلب بحبه وتعظيمه، والخوف منه والرجاء فيه، ويقتنع بقدرته وكمال صفاته، وبضعف غيره وعجزه[1]، يقول الشيخ في هذا الشأن: «... كلما ازددنا تأملا، كلما ازددنا من الله قربا، وازددنا له حبا وطاعة، والذين يهديهم تفكيرهم إلى هذا؛ هم الذين يجعل الله في قلو م نورا»[2]، كما بين الشيخ الحكمة من مكث النبي ρ ثلاثة عشر عاما في مكة؛ ولا ي ل عليه من القرآن إلا ما يقوي العقيدة في القلوب، ولا يلفت الأنظار إلا إلى آيات الرحمان في الملكوت، كما يـذكر بـالآخرة وأحداثها، والحكمة من كل ذلك؛ يئة القلوب لتقبل شرع الله «وإذا يأ القلب وضـريت فيـه العقيدة بجذورها، فإنه ينتهج صراط الله، ويقيم شرعه مطمئنا»[3].

4/ محل رأي الشيخ بيوض من آراء العلماء في المسألة:

سبق الشيخَ بيوض طائفةٌ من العلماء في تقرير أن التفكر في آيات الله القرآنية والكونيـة، هـو الطريق الأصوب إلى معرفة الله تعالى، فَمِن القدامى نجد الإمام ابن قيم الجوزية يقول: «الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما النظر في مفعولاته، والثاني التفكر في آياتـه وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة»[4]، ويقصد ابن قيم بمفعولاته؛ أفعال الله تعالى ومخلوقاته المشهودة في الكون، وبآياته المسموعة؛ آياته القرآنية، لأ ا جاءتنا من طريـق السمع أو الخبر الصادق.

وقد ساق ابن قيم أمثلة من القرآن على كلا النوعين[5]، فالنوع الأول كقوله تعالى: (إِن فِي خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالارضِ وَاختِلاَفِ الليل وَالنهَارِ لآَياتٍ لأُولي الاَلْبَابِ) (آل عمران: 190)، والنـوع الثاني كقوله تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبرونَ الْقُرءَانَ أَم عَلَىا قُلُوبٍ اَقْفَالُهَآ) (محمد: 24) وقولـه: (أَفَلَـم يَدبروا الْقَولَ أَم جَآءَهم ما لَم يَاتِ ءَابَآءَهم الاَولِينَ) (المؤمنون: 68).

وقد ظهر هذا الاتجاه في معرفة الله، في العصر الحديث أكثر، مع حركة البعث والتجديد الـتي صاحبت علم العقيدة عموما، ورفع رايتها ثلة من العلماء المصلحين، وربما كان الدافع إليها –كما

---

[1]- **تفسير سورة النور**: ص 340-341، **تفسير سورة لقمان**: ص 434، ص 439-441.

[2]- **تفسير سورة النور**: ص 340-341.

[3]- **تفسير سورة لقمان**: ص 440.

[4]- بن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر: **الفـوائد**، المكتبة الثقافية، بيروت-لبنان، ط: 1413هـ/1993م، ص20.

[5]-(م.ن).

يرى الدكتور عبد المجيد عمر النجار- شدة التحدي للعقيدة الإسلامية الذي ظهر في الغزو الاستعماري والثقافي الغربي، للأمة الإسلامية[1].

هذا التحدي المسلح بالعلم التجريبي؛ فتح بصائر بعض المفكرين، فتبين لهم أن الدفاع عن العقيدة إزاء هذا التحدي الجديد، يستلزم تجديدا في منهج علم العقيدة، بحيث يكون أكثر إقناعا للعقلية المعاصرة، ومن ثم ظهرت نزعة تجديدية في عرض العقيدة والدفاع عنها –والإلهيات من مجملها-، فتخلصت بذلك من استدلالات فلسفية كثيرة لم يعد لها قبول ولا تأثير، وأبدلتها باستثمارٍ لنتائج العلوم الكونية، واستخدامها مقدمات في استدلالات جديدة؛ أشد وقْعا في النفوس وأكثر إقناعا للعقول[2].

ومن أهم من ألف في علم العقيدة بمنهج التجديد، محمد إقبال (ت 1938م)، وكتابه في ذلك "تجديد التفكير الديني في الإسلام"، حيث نوه فيه بمسألة قرآنية هامة وهي، توكيد القرآن على جانب الملاحظة التأملية للكون -أو النظر العقلي كما ذكرنا من قبل-، وبعد أن يسرد إقبال جملة من الآيات في الموضوع، يقول: «ولا شك أن أول ما يستهدفه القرآن من هذه الملاحظة التأملية للطبيعة، هو أنها تبعث في نفس الإنسان الشعور بمن تَعد هذه الطبيعة آية عليه، ولكن ما ينبغي الالتفات إليه هو الاتجاه التجريبي العام للقرآن، مما كون في أتباعه شعورا بتقدير الواقع، وجعل منهم آخرَ الأمر؛ واضعي أساس العلم الحديث»[3].

وقد سار على هذا المنهج في البحث والتأليف في علم العقيدة –عموما-، عدد لا بأس به من علماء الأمة، منهم الشيخ مصطفى صبري (ت 1954)، وكتابه في ذلك "موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين"، والشيخ محمد الغزالي (ت 1996)، ومن كُتبه في ذلك "عقيدة المسلم"، و"المحاور الخمسة للقرآن الكريم".

هذا وبعد أن رأينا موقف الشيخ بيوض من النظر الاستدلالي في الكون؛ طريقا إلى المعرفة بالله، وأنه قد وافق في هذا المنهج؛ طائفةً من العلماء القدامى والمعاصرين، بقيَ أن نتساءل ما هو موقف الشيخ بيوض من المنهج المقابل لمنهجه في معرفة الله، والذي سلكه المتكلمون؟

---

[1]- عبد المجيد عمر النجار، **الإيمان بالله وأثره في الحياة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1: 1997، ص 23.

[2]- (م.س)، ص 23-24.

[3]- محمد إقبال: **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، دار أسيا، ط: 1985، ص 21.

5/ موقف الشيخ بيوض من منهج المتكلمين في معرفة الله:

يعتبر الشيخ بيوض من العلماء الذين ينظرون إلى علم الكلام باعتباره تراثا تاريخيا للأمة، أوجدته مبررات معينة، فلا ينبغي أن يتجاوز ظروفه التي نشأ فيها، أو تستحضر مباحثه في العصر الراهن.

فبمناسبة تفسير الشيخ للآية (35) من سورة القصص[1]، تطرق إلى مسألة تكليم الله تعالى لسيدنا موسى υ، فبين أن فضول الإنسان هو الدافع له إلى البحث في نوع التكليم وكيفيته –وهي مسألة غيبية-، ودعا الشيخ صراحة إلى التمسك بعقيدة السلف، وأساسها التفويض في كل ما يتعلق بشؤون الله تعالى، فقال: «والواجب علينا أن نتمسك بعقيدة السلف في كل ما يتعلق بشؤون الله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى، فنفوض فيها الأمر كله إلى الله، ولا نحاول التفلسف لنفهم حقيقة الصفة، أهي عين الذات، أم هي زائدة عن الذات»[2].

ثم ذكر الشيخ منشأ علم الكلام ومبرر ظهوره، وهو دخول عناصر أجنبية في الإسلام من أجل أن تفسد على المسلمين دينهم، بإثار ا لأفكار وعقائد ضالة، فوجد العلماء أنفسهم مضطرين للدخول في الجدال مع هؤلاء؛ لدحض شبههم والدفاع عن الإسلام، وذلك بتوظيف منطق الخصم وفلسفته في الحِجَاج، كما اضطروا للجدال مع الملاحدة وفلاسفة اليونان لذات المقصد، فكتبوا وألفوا في علم الكلام[3].

وقد بين الشيخ أن مسألة: كلام الله تعالى، هي مسألة طال فيها الجدال قديما، أثارها أناس أرادوا بالإسلام سوءا، وبأهله فتنة، وذكر الشيخ أشهر من ابتلِيَ بهذه الفتنة، وهو الإمام الورع أحمد بن حنبل –رحمه الله-، ويفترض الشيخ أن الذين خاضوا في تلك المسألة قديما؛ حاضرين أمامه، يخاطبهم ويحاورهم؛ وهم يسمعون –كما هو أسلوبه في كثير من مواضع تفسيره- فيقول لهم: «فمالكم أيها الناس والكلام؟ كيف يمكنكم لو اجتمعتم أو تفرقتم من لدن آدم υ إلى أن تقوم الساعة؛ أن تقفوا على حقيقة الكلام؟ وكيف سمعه موسى؟ وافترضوا ألفا أو مليون فرضية

[1]- هي قوله تعالى: (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون).

[2]- **تفسير سورة القصص**: ص 359.

[3]- (م.س): ص 359-362، **تفسير سورة العنكبوت**: ص 103.

عن كيفيته، ولكن أيمكن أن تقولوا: هذا هو الحق؟ فلْنفوض في مثل هذا الأمر إلى الله، لأن الخوض في مثل هذا يوصل إلى الضلال»[1].

وبذلك أثبت الشيخ للمتكلمين خطأهم في المنهج، وأن الطريق الأسلم والصحيح في تلك المسائل هو التفويض.

ويستطرد الشيخ مخاطبته مع المتكلمين الذين خاضوا في مسألة الكلام، ليَسحب رأيه على سائر الصفات الإلهية، فيقول: «فَلِله الأسماء الحسنى، فهو موجود حي قدير عليم متكلم سميع بصير، فهل تعرفون حقيقة هذه الصفات؟ فأنتم الذين خضتم في الكلام وتنازعتم فيه، وكَفر بعضكم بعضا، وقتل بعضكم بعضا من أجله، بِرَبكم تعالوا وأخبِرونا: هل فهمتم معنى لوجود الله؟ فالله موجود حقا، ولكن هل تعرفون حقيقة وجوده؟ من ذا الذي يجرؤ ويقول: أنا أعلم حقيقة وجود الله؟»[2]، ويتساءل الشيخ معهم عن إدراكهم لحقائق سائر الصفات المعروفة، صفة بعد صفة، ليخلُص إلى عجزهم عن فهمها، فينكر عليهم منهجهم قائلا: «ما هذا الطمع؟ وما هذا الفساد في الفكر؟»[3]، بل يحكم على الخوض في تلك المسائل بالضلال، إذْ كان الخوض فيها سببا لمروق أناس من الدين، لأنها من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، ولا مطمع في إدراكها، ولو اجتمع أهل السماوات والأرض[4].

وبذلك اعتبر الشيخ علم الكلام وما صاحبه من جدال فلسفي، هو الذي فرق المسلمين وشتَّتهم، ودعا إلى أن يطوى هذا الجدال العقلي ولا يذكر، وأن يبتعد عن مزالقه، لأنه لا يوصل إلى الحقيقة إذا تجرد عن الآيات الكونية، ورأى أنه متى أزاله المسلمون من بينهم، وجدوا أنفسهم كلهم على الصراط السوي والطريق المستقيم[5].

والبديل الذي ارتضاه الشيخ لنفسه ولسائر المسلمين هو مذهب السلف، الذي دعا إلى التمسك به، لأن فيه كل السلامة، ومضمونه الإيمان بما أسند الله إلى نفسه؛ مع التفويض إليه وتنزيهه عن

---

[1]- **تفسير سورة القصص**: ص 359.

[2]- (م.س): ص 360.

[3]- (م.س): ص 360-361.

[4]- (م.س): ص 361.

[5]- (م.س): ص 360-362، وانظر: **تفسير سورة العنكبوت**: ص 103-104.

مشا ة خلقه[1]، يقول الشيخ: «نؤمن بما أراد [الله] أن يسند إلى نفسه من أفعال، من غير تشبيه أو تعطيل، والقانون الذي نرفعه هو قوله تعالى: (لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ) (الشورى: 11)، فوجوده لـيس كوجود غيره من المخلوقات، وكذا حياته وسمعه وبصره وإرادته وحبه وبغضه، وولايته وعداوتـه ...»[2].

ونزولا عند مستوى أفهام كثير من العوام الحاضرين لدرس التفسير، -والذين يملكـون ثقافـة محدودة- آثر الشيخ أن يعبر عن المنهج الذي دعا إليه بإيمان العجائز، الذي يمثل إيمان من لا يملك من العلم وأدلته شيئا مذكورا، ولا يدرك من الإيمان إلا أصوله وأركانه، لكنه يعتقد ا اعتقـادا جازما لا يزلزله شيء[3]، وهو نموذج الإيمان الشائع في مجتمع الشيخ بيوض -آنذاك –وقد خاطب الشيخ حضوره مستفسرا: «فمَن مِن أمهاتكم تعرف هذه الصفات أهي عين الذات أم خارجة عن الذات، قُصاراها أن تقول: إن الله موجود، وهو حي وهو قدير، وهو يسمعنا ويرانا، وهو يغفر لنا ويعطينا الجنة»[4].

واستدل الشيخ لصحة إيمان العجائز، بإيمان الأَمة التي جاءت إلى رسول الله ρ تريد أن يعتقها، فسألها: من ربك؟ فأشارت بأصعبها إلى السماء، ثم سألها: من رسولك؟ فأشارت إليـه، فقـال: أعتِقْها فإ ا مؤمنة[5].

ووَجه استدلال الشيخ من الحديث؛ أن النبي ρ لم يسأل الأَمة: كيف عرفتِ ربك؟ وإنما اكتفى بإشار ا إلى السماء، وبالإشارة إليه لمعرفته ρ، واعتبر الشيخ أن هذا هو أصل الـدين في يسـره وصفاء نبعه، وأن النبي ما كان يلقن أصحابه هذا الجدل الكلامي[6].

---

[1]- **تفسير سورة القصص:** ص 361.

[2]- (م.ن).

[3]- (م.س): ص 362.

[4]- (م.س): ص 362-363.

[5]- الحديث رواه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب في الرقبة المؤمنة، رقم 2856، «...عَن مَعَاوِيَةَ بن الْحَكَمِ السلَمِي قَالَ قُلْت يَا رَسولَ اللهِ جَارِيَةٌ لِي صَكَكْتهَا صَكةً فَعظمَ ذَلِكَ عَلَي رَسولُ اللهِ صَلى الله عَلَيهِ وَسَلمَ فَقُلْت أَفَلا أُعِتقُهَا قَالَ ائْتِنِي بِهَا قَالَ فَجِئْت بِهَا قَالَ أَينَ الله قَالَت فِي السمَاءِ قَالَ مَن أَنا قَالَت أَنتَ رَسولُ اللهِ قَالَ أَعتِقْهَا فَإِنهَا مؤمِنَةٌ»، ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة... رقم 836. **موسوعة الحديث الشريف.**

[6]- **تفسير سورة القصص:** ص 363.

والشيخ باختياره لهذا المنهج، لم يكن يشنع على العلماء السابقين؛ الذين أملت عليهم ظروف عصرهم؛ إشهارَ سلاح علم الكلام في وجه خصومهم من الملل الأخرى، بل أعطى لهم كامل العذر، إنما يَكْبر عليه أن يبقى هذا السلاح ساريَ المفعول في عصره الذي تغيرت فيه الظروف، وتقدم الخصم في العلم التجريبي وصار يؤمن به أكثر من المنطق التجريدي، يقول الشيخ بهذا الصدد: «ونحن نعذر سادتنا العلماء، الذين دخلوا هذا الجدال مضطرين لمقاومة العناصر الفاسدة التي دخلت في الإسلام، ولكن كفى هذا، فذاك دهر مضى وانقضى، وعلينا أن نتمسك بالعقيدة الصحيحة»[1].

والشيخ باختياره لمنهج السلف أيضا، لم يكن يدعو إلى الإدبار عن العلم والاكتفاء بالتقليد في الإيمان – مع أنه بين القاعدة المجزئة في الإيمان؛ لأي إنسان مهما كانت ثقافته-، إنما كان يشير إلى ضرورة مسايرة العصر في تطور علومه التجريبية والكونية؛ التي ينبغي توظيفها دلائل جديدة على الإيمان وترسيخ دعائمه، وهي الدلائل التي أرشد إليها القرآن الكريم، كما يقول الشيخ: «فليس الطريق المؤدي إلى معرفة الله والإيمان به هو هذا الشك وهذا الجدال، وإنما هو ما سنه الله وشرعه في كتابه، من الإرشاد إلى النظر في الكون، والتأمل في آياته»[2]، واستدل بقوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتىا يَتَبَينَ لَهُمْ أَنهُ الْحَق) (فصلت: 53)، (وَفِي الأَرْضِ ءَايَات لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تبْصِرُونَ) (الذاريات: 20-21)

وعقب الشيخ بأن هذا هو الطريق القرآني للهداية، ومن طلب الهداية من غيره أضله الله، وألا منهج أصوب وأحق بالاتباع من منهج الله تعالى في كتابه الكريم[3]، وهو المنهج الذي مارسه، ودعا إليه ثلة من العلماء والمصلحين في العصر الحديث، كما ذكرنا سابقا[4].

---

[1]- **(م.س)**: ص 363-364.

[2]- **تفسير سورة العنكبوت**: ص 103.

[3]- (م.س): ص 103-104.

[4]- أنظر ص: 64 من البحث.

المبحث الثانـي:الاستدلال على وجود الله تعالى عند الشيخ بيوض

تمهيـد

الإيمان بوجود الله تعالى مبدأ مركوز في النفوس، وفطرة فُطِر عليها كل مولود حين يولد –كما جاء في الحديث-، لكن تأسيس هذا الإيمان على اليقين، وترسيخه في القلب بحيث لا تداخله الشكوك، ولا تعارضه الغفلة أو النسيان، وبحيث يؤثر على السلوك فيتم معه العمل الصالح، كل ذلك لا يتأتى إلا بالنظر الواعي والتدبر العميق، في آثار عظمة الخالق وقدرته في آفاق الكون والأنفس[1]، كما قرر ذلك الشيخ إبراهيم بيوض وغير واحد من علماء العقيدة؛ الذين استقوا رأيهم هذا من المنهجية القرآنية في التوجيه إلى المسلك الاستدلالي (سَنرِيهِم ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتى يَتَبَينَ لَهُم أَنهُ الْحَق) (فصلت: 53)، (وَفِي الارضِ ءَايَاتٌ للْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُم أَفَلاَ تبصِرونَ) (الذاريات: 20-21).

هذا وإن الاستدلال على وجود الله قد تنوعت صوره عند علماء العقيدة فيما كتبوا وألفوا، وقد أدت كثير من أدلتهم المنطقية دورها في ظروف معينة، وبتغير الظروف أصبحت غير موَفَية بالغرض في الإقناع، وتبقى الأدلة القرآنية هي الأوفى بالغرض على مر العصور، وتفاوت المدارك والأفهام[2]، ولما كان موضوعنا هو: منهج الشيخ بيوض في عرض الإلهيات من خلال تفسيره، فكان يفترض من الشيخ أن يتقيد بالمنهج القرآني في الاستدلال على وجود الله ويلتزم به، فكيف كان الشيخ يتعامل مع الآيات التي تتحدث عن هذا الجانب؟

ذلك ما سنتطرق إليه في هذا المبحث الذي قسمناه إلى قسمين: الأول لاستدلال الشيخ بأدلة الآفاق، والثاني لاستدلاله بأدلة الأنفس، وذلك بحسب التقسيم القرآني لأنواع الاستدلال.

---

[1]- النجار: مرجع سابق، ص 69-70.

[2]- (م.س): ص 72.

أولا/ الاستدلال بأدلة الآفاق

نشير بداية أننا في تقسيم أنواع الأدلة؛ لا بأس أن نستفيد من بعض تعـابير علمـاء العقيـدة السابقين؛ المندرجة ضمن المنهج القرآني، لأن بحثنا يتعامل مع التفسير، وليس مع درس مستقل في العقيدة أو مع تأليف فيها.

وقد قسمنا أدلة الآفاق إلى ثلاث: دليل الخلق، دليل النظام، ودليل العناية.

1/ **دليل الخلق:**

أ/ آية خلق السماوات والأرض وإنزال الماء:

بمناسبة قوله تعالى: (أمن خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالاَرضَ وَأنزَلَ لَكُم منَ السمَآءِ مَآءً فَأنـبَـتـنَا بِهِ حَدَآئِـقَ ذَاتَ بَهجَةٍ ما كَانَ لَكُم أن تـنبِتوا شَجَرَهَآ أَءِلَه معَ اللهِ بَلْ هم قَوم يَعدِلُونَ) (النمل: 60)، تساءل الشيخ بيوض –مفترضا بعض المشركين أمامه؛ وهو يخاطبهم-: «نبؤونا من خلـق السماوات والأرض؟ هل يستطيع أحد من شركائكم أن يقول: فلان هو الذي خلق السـماوات والأرض»[1]، فكان سؤال الشيخ سؤال تبكيت، بحيث لا يستطيع أحد أن يجيب.

ثم تحدث الشيخ عن آية إنزال الماء وأثرها على الأرض وعلى الإنسان، ومن ذلك الأثر إنبـات الحدائق البهيجة، فبين وجه تسمية الحدائق بذلك الاسم، وهو تشبيهها بحدقة العين، والعين هـي أحسن ما في وجه الإنسان، وأعز شيء لديه، «وكذلك الحدائق هي عيون الأرض، ولا تكـون الأرض جميلة إلا ا، والله تعالى زين الأرض بالغابات والأشجار، سواء في الجبـال أو الوهـاد، وسواء مما أنبته الله تعالى أو مما يغرسه البشر، والكل من فضل الله»[2].

ثم زاد الشيخ تأملا في قوله تعالى: (ذَاتَ بَهجَةٍ)، فعرف البهجة بأ ا «الزينة والجمال، وما يسر الخاطر ويفرح العين»[3]، وعددَ بعض أوجه هذه الزينة؛ التي منها تعدد الألوان الزاهية –لاسيما في الزهور- وتعدد الأصناف في اللون الواحد، وذات الأمر بالنسبة للثمار واختلاف ألوا ا وطُعومها؛ بين حلو وحامض، ومر ومحرق وغير ذلك[1]، (تسقَىا بِمَآءٍ وَاحِـدٍ وَنفَضـلُ بَعضَهَا عَلَىا بَعضٍ فِي الأُكُلِ) (الرعد: 4)

---

[1]- **تفسير سورة النمل**: ص 121.

[2]- (م.س): ص 122.

[3]- (م.ن).

وعندما أتى الشيخ إلى قوله تعالى: (ما كَانَ لَكُم أن تـنبِتوا شَجَرَهَآ) خاطب الإنسان منفردا ثم خاطبه مع جنسه من بني البشر مجتمعين، ببيان أن الله أقام الحجة عليهم بهذه الآيـة، بنفـي أي مشاركة من أحد –ولو قليلة-، فليس من شأن البشر ولا من قوتهم ولا من علمهم –منفردين أو مجتمعين- أن ينبتوا شجرة، ثم يوجه الشيخ العقول إلى عظمة الله في صنعه لتلك النخيل الباسقات، والأشجار الكثيفة الأغصان، وكيفية إخراجها من الأرض، فكل واحدة من تلك الأشـجار وفي عظمتها، كانت مطوية في بذرة أو نواة صغيرة، وذات الأمر بالنسبة إلى الخضر والفواكه، التي قد يغتر المرء بزراعته لها، فبين الشيخ عمل الإنسان في هذا الزرع، -حتى لا يقاس بعمل الله تعـالى- فلم يزد الإنسان أن وضع البذرة في الأرض، فإذا الله تعالى يخرج منها عروقـا تـ ل إلى الأرض، وساقا يصعد إلى السطح، فإذا بالساق ينمو ويثمِر، وإذا قدر الله لتلك البذرة أن لا تنمـو؛ فلـن يستطيع أهل السماوات والأرض مجتمعين إنبا ا[2].

ويعقب الشيخ على هذه الآية بقوله: «فلا أحد يستطيع أن يقول: هناك إله مع الله خلـق مـا خلق، أو شارك الله في خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء، وإنبات الأشجار، وغير ذلك»[3].

ب/ آية خلق المخلوقات، ثم هدايتها:

بمناسبة قوله تعالى –على لسان موسى υ-: (رَبَنَا الذِي أعطَىا كُل شَيءٍ خَلْقَه ثُم هَـدَىا) (سورة طه: 50)، بين الشيخ قانونا من قوانين خلق الله تعالى لخلقه، من أصغر مخلـوق، -وهـي الذرات التي لا ترى إلا بالمجاهر- إلى أكبر مخلوق وهي المجرات الكبرى، فما من شـيء إلا وقـد خلقه الله على الصورة والشكل الذي يريده له، ثم هداه وألهمه إلى الطريقة التي يؤدي ا وظيفتـه التي من أجلها خلِق؛ وهو قانون "الخلق والهداية" الذي أجاب به سيدنا موسى υ، تعريفًا بربه؛ لما سأله فرعون: (قَالَ فَمَن ربكُمَا يَاموسَىا) (طه: 49). ثم مَثل الشيخ لهذه الحقيقة بوجود الإنسان، حيث وجِد بخلق الله له، المتمثل في الصورة الجسمية، والحواس الظاهرة والأعضاء الباطنة المُركبـة فيه، و داية الله المتمثلة في إرشاد كل عضو وكل جارحة إلى أداء وظيفتها، وبذلك كان للعـين

1- (م.ن).

2- (م.س): ص 123.

3- (م.س): ص 124.

وظيفة الإبصار وللأذن وظيفة السماع، كما تنطبق هذه الحقيقة على عالم الحيوان، الذي ألهمه الله –بعد خلقه- إلى البحث عن طعامه وشرابه، والبحث عن أجناسه للتزاوج والتكاثر[1].

ج/ بين صنع الله تعالى وصنع الإنسان:

يعتبر الشيخ بيوض المقارنة بين صنع الله وصنع الإنسان –مع عدم صحة المقارنة- دليلا آخر على وجود الله وعظمته، وذلك في عدد من المواضع التي يتعرض فيها لآيات خلق الله، فبمناسبة قوله تعالى: (يَآ أَيـُّهَا الناس ضرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعواْ لَه, إن الذِينَ تَدعونَ مِن دونِ اللهِ لَن يخلُقُواْ ذُبابا وَلَوِ اجتَمَعواْ لَه ...) (الحج: 73)، بين الشيخ أن الله تحدى المشركين أن ينسبوا الخلق إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله، من ملَك أوإنس أو جن أو غيرها، بل تحدى الله تلك الآلهة مجتمعة من أولها إلى آخرها، أن تخلق ولو ذبابة –وهي من أحقر المخلوقات-، والحكمة من ضرب المثل بالذباب –كما يرى الشيخ- هي إذلال الجبابرة والمعبودات التي عبدوها؛ وتصوير فداحة عجزهم عن خلق مثل هذه المخلوق الضعيف الحقير، والغرض الأسمى من هذا المَثَل هو تقرير الحقيقة الكبرى: "لا خالق إلا الله"[2].

انطلاقا من هذه الحقيقة، ودفعا لتوهم المشاركة في الخلق مع الله تعالى، من خلال ما يصنعه البشر، بين الشيخ أن كل المخترعات التي ابتكرت في العصر الحديث؛ كالحواسيب الإلكترونية والأجهزة العلمية المختلفة، لا يوجد فيها أبدا ما يمكن أن يقال فيه: إنه خَلَقَه بشر، ذلك أن قُصارى جهد البشر أنهم اكتشفوا –بإرشاد من الله- ما أودعه تعالى من بعض أسراره ونواميسه في المواد التي خلقها، فانتفعوا بها، إذ ضموا البعض إلى البعض فصنعوا منها أشياء عديدة، ومثَّلَ الشيخ لذلك بإشعال النار في الشجر الأخضر، أو قدحها بضرب حجر الصوان بحجر مثله أو حديدة، ثم تساءل الشيخ: «ولكن من جعل في الشجر أو الحجر نارا؟»[3]، أي خاصية الاشتعال، فلا أحد يستطيع أن يقول: إنه غير الله تعالى، وذات الأمر في الكهرباء المتولدة من اجتماع زوجين؛ موجب وسالب، فلا يعد اكتشافها خلقا، إن هو إلا انتفاع بقانون كوني[4].

---

[1] - **تفسير سورة طه**: ص 286.

[2] - **تفسير سورة الحج:** ص 586-588.

[3] - (م.س): ص 588.

[4] - (م.ن).

وبمناسبة قوله تعالى: (وَهوَ الذِي أنشَأ لَكُم السمعَ وَالابصَارَ وَالافِئدَةَ قِليلاً ما تشكُرونَ) (سورة المومنون: 78)، وبعد أن حلل الشيخ بعض آيات الله في خلق الإنسان، بين أن الإنسان مهما تطور في فهم أسرار الكون، واستغلالها في ابتكار وسائل تصلِح حياته، فلا يعتبر أنه خلق شيئا، وكل ما يصنعه إنما يقلد فيه صنع الله، ويستفيد مما هو موجود في الكون من مواد نافعة، ويجرب تصنيعها في المختبرات[1]، «وجد الجاذبية في المغناطيس فاستعملها، ووجد الأثير ينقل التموجات فاستخدمه، واتخذ أجهزة للإرسال وأجهزة للاستقبال، وإذا استطاع الطيران في أجواء الفضاء بواسطة الطائرات والمراكب، فذلك لأنه كان منذ مئات السنين يمعن النظر في الطيور، ويدرس كيفية طيرانها، ووظيفة الأجنحة والرأس والذيل فيها، ولذلك صممت الطائرات على شكل طيور»[2].

ثم عقب الشيخ بأن المرء إذا كان يَتملكه العَجَب والاندهاش من بعض مخترعات البشر، مع علمه أن تلك الاختراعات ما هي إلا تقليد واستفادة من صنع الله، فمن هو الأحق بالتعظيم والإعجاب بآياته؟ ومن هو الأحق بالإيمان به؟ الله الخالق أم المخلوق المُقلد! فلا شك أنه الله تعالى[3].

هكذا نجد طريقة الشيخ مع بعض الآيات التي تلفت النظر إلى مظاهر خلق الله في الآفاق والأنفس، يوظفها في بيان عجز الإنسان وضعفه، فضلا عن استحالة مشاركة ربه في خلقه، وذلك من خلال ذِكر مخترعات البشر التي صنعوها –ولم يخلقوها- وتأكيد أنها من تسخير الله. والغرض من ذلك هو دفع الغرور عن النفس، وترسيخ الإيمان فيها بوجود الله تعالى وعظمته.

2/ دليل النظام:

يقول عبد المجيد النجار في شرح دلالة النظام: «النظام في الأشياء هو تركيبها على مقادير وكيفيات محددة، والائتلاف بينها في علاقات جارية على سنن ثابتة منتظمة وفق تقدير مسبق، وهو في التعبير القرآني: القدر والتقدير، كما في قوله تعالى: (إنا كُل شَيءٍ خَلَقْناه بِقَدَرٍ) (القمر: 49) ... ونقيض النظام هو الفوضى التي تجري بها الأمور على غير قاعدة منضبطة، ولا حكمة

[1]- **تفسير سورة المومنون**: ص 234-235.

[2]- (م.س): ص 234.

[3]- (م.س): ص 235، أنظر أيضا في ذات القضية: تفسير سورة النور: ص 366، تفسير سورة لقمان: ص 84 وما بعدها.

مرعية، وهي في التعبير القرآني: التفاوت، كما جاء في قوله تعالى: (ما تَرَى فِي خَلْقِ الرحمَنِ مِن تَفَاوتٍ) (الملك: 3) »[1].

فوجود الكون وما فيه من مخلوقات، وسير تلك المخلوقات وفق قوانين مطردة، هو ما يشكل النظام الكوني، الذي أشار إليه القرآن الكريم في آيات كثيرة؛ مستدلا به على وجود الله تعالى وعظمته، وقد كانت للشيخ بيوض وقفات كثيرة عند الآيات المتضمنة لدليل النظام؛ بمظاهره المختلفة في الكون، وفيما يلي بعض النماذج منها.

أ/ مظهر النظام في سُنة الأجل الكونية:

بمناسبة قوله تعالى: (ما خَلَقَ الله السمَاوَاتِ وَالارضَ وَمَا بَينَهمَا إلا بِالْحَق وَأجَلٍ مسَمى) (سورة الروم: 8)، تعرض الشيخ إلى سنة الأجل التي قدرها الله للسماوات والأرض، أي تحديد مدة وجودها، فبين أن الله تعالى خلق السماوات والأرض أطوارا كما خلق الإنسان، وسيأتي عليها نهاية وفناء، كما قدر للإنسان، قال تعالى في هذا الشأن: (يَوم تَبدلُ الارض غَيرَ الارضِ وَالسمَاوَات وَبَرَزوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهارِ) (إبراهيم: 48)، فبين الشيخ أن السماوات والأرض لم تخلق لتخلُدَ على ما هي عليه، إنما خلقت لأجل معين، حتى إذا بلغ أجلها فَنِيت، ثم يتبدل شكلها ونظامها[2].

وهذا النظام في سنة الأجل هو عين الحكمة والحق الذي خلقت به السماوات والأرض، فهي خلقت لغاية شريفة ولم تخلق عبثا ولا لعبا، وهو ما نفاه الله تعالى عن نفسه[3] في قوله: (وَمَا خَلَقْنَا السمَاوَاتِ وَالارضَ وَمَا بَينَهمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهمَا إلا بِالْحَق وَلَكِن أكْثَرَهم لاَ يعلَمونَ) (الدخان: 38-39).

ب/ مظهر النظام في تماسك الأشياء "قانون الجاذبية":

تحدث الشيخ عن مظهر النظام في تماسك الأشياء أو في قانون الجاذبية الذي يحكم المخلوقات الكونية، وذلك بمناسبة تعرضه لقوله تعالى: (وَيمسِك السمَاءَ ان تَقَعَ عَلَى الارضِ إلا بِإذْنِهِ إن اللهَ بِالناسِ لَرَءُوف رحِيم) (سورة الحج: 65)، حيث تساءل الشيخ: «ما الذي أمسك هذه الملايين من الأجرام السماوية؛ التي تكبر الأرض بملايين المرات؛ من الوقوع عليها، ونحن نراها فوق

[1] - النجار: مرجع سابق، ص 87-88.

[2] - **تفسير سورة الروم**: ص 97.

[3] - (م.س): ص 96.

رؤوسنا»[1]، ودعا الشيخ من أراد إدراك هذه الحقيقة إلى القيام في جوف ليل مظلم، وينظر إلى اشتباك السماء بالنجوم التي تبعد عن الأرض بملايير الكيلومترات، ثم قرر الشيخ القانون الذي يحكم هذا النظام وهو قانون الجاذبية، الذي نظم الله به الأجرام، وجعل بينها أبعادا، بحيث لا يصدم بعضها بعضا إلا بإذن الله تعالى[2].

والجاذبية هي: «قوة الجذب التي تعمل بين جميع الأجسام بسبب كتلتها؛ أي كمية المادة المكونة لها، وبسبب هذه القوة فإن الأجسام التي على الأرض أو بالقرب منها تنجذب إليها ... وتحافظ على مكان كل كوكب في مداره حول الشمس، وكل نجم في مداره حول مركز المجرة»[3].

ويوجه الشيخ بيوض السؤال الإيماني بعد هذا التقرير العلمي –لينتقل من الأثر إلى المؤثر- فيقول: «لكن من خلق هذه الجاذبية»[4]، ويأتي جوابه موجها لدلالة هذا القانون على خالقه، فيبين أن البشر لم يخلقوا الجاذبية، وإنما اكتشفوها، واكتشاف الأسرار لا يدل على زوال القدرة الإلهية بل يؤكدها، ومقصد القرآن من ذكره هذه الحقيقة (وَيمسِك السمَآءَ ان تَقَعَ عَلَى الارض إلا بِإذْنِهِ)، هو أن يذكر الله عباده بعظمته وقدرته وعلمه، ليعرفوا قدره حق المعرفة ويعبدوه، ويطلبوا رضاه بما شرع، ولا يبارزوه بالمعاصي، لأنه تعالى بيده النواصي والأقدام[5].

وفي موضع آخر من التفسير يبين الشيخ دور نظام الجاذبية في حفظ التوازن بين الأجرام السماوية بحيث لا تتصادم، وبحيث يلتزم كل منها مداره، لا يتخلف عنه قدر شعرة، فإذا زاد أو نقُص فبنظام محكم، لا عن طريق الصدفة[6]، (إن اللهَ يمسِك السمَاوَاتِ وَالارضَ أن تزولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إنَ امسَكَهمَا مِنَ اَحَدٍ من بَعدِهِ) (فاطر: 41).

وبعد أن قدم الشيخ مثالين عن الجاذبية فوق الأرض، يوجه العقول إلى الاستدلال بها على الله تعالى والاعتبار بها، فيقول: «ويكفي لكل واحد منا إذا رأى هذا النظام المحكم؛ طوال عمره لم

---

[1]- **تفسير سورة الحج**: ص 571.

[2]- (م.س): ص 571-572.

[3]- **الموسوعة العربية العالمية**، مج8/ص110.

[4]- **تفسير سورة الحج**: ص 572.

[5]- (م.ن).

[6]- **تفسير سورة المومنون**: ص 238.

يتبدل ولم يتغير، أن يدرك أن المُسير واحد، والإرادة واحدة، فيا ليت الناس تفكروا هذا فآمنوا بالله وبقدرته»[1].

ج/ مظهر النظام في اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما:

بمناسبة قوله تعالى: (...وَلَه اخِتِلاَف الليلِ وَالنهَارِ أَفَلاَ َتعقِلُونَ) (سورة المومنون: 80)، تطرق الشيخ إلى مظهر النظام في الاختلاف بين الليل والنهار طولا وقصرا، وزيادة ونقصانا، وقبل أن يشير الشيخ إلى بعض الحقائق عن هذا الاختلاف، أكد أن البشر ما زادوا على أن اطلعوا على بعض سنن وأسرار اختلاف الليل والنهار فحسب، إذ ليس بوسعهم التحكم في هذا الاختلاف، أو تغيير نظام سير الأفلاك، حتى تصبح البلاد الحارة باردة، أو البلاد الباردة حارة[2]، وما نحسب هذا التقديم من الشيخ إلا حرصا منه واقتناعا بأهمية الاستدلال بمظاهر النظام في الكون، على وجود الله تعالى وعظمته، وذلك ما أكده بالتنويه بالضمير "له" في الآية: " وَلَه اخِتِلاَف الليلِ وَالنهَارِ "، أي لله لا لغيره[3].

بعد هذا أشار الشيخ إشارة سريعة إلى آثار هذا الاختلاف على انتظام الحياة فوق الأرض، فقال: «وفي اختلاف الليل والنهار واختلاف المناطق؛ تأثير كبير على المياه الجوفية، في بطن الأرض، وعلى تكون المعادن، وعلى حياة النبات والحيوان والإنسان، ولهذا يوجد من النباتات والحيوانات والمعادن في بعض المناطق مالا يوجد في المناطق الأخرى، بتأثير الشمس وحرارتها وأشعتها، وبتأثير الرياح والأمطار الموسمية»[4].

ومن جملة نظام الاختلاف بين الليل والنهار الناتجين عن دوران الشمس حول نفسها، الاختلاف الملحوظ بينهما في القطبين الشمالي والجنوبي للكرة الأرضية، ففي المناطق القريبة من القطب الشمالي لا تغيب الشمس خلال فصل الصيف على مدى عدة أشهر، وتكون مدة النهار أربع وعشرون ساعة، وذلك مثل: فِنلَندَا وغيرها من البلدان، والسبب في هذه الظاهرة ميلان محور

---

[1] - (م.س): ص 239.

[2] - (م.س): ص 237-238.

[3] - (م.س): ص 238.

[4] - (م.ن).

الأرض. وبينما يكون في القطب الشمالي نهار دائم، يكون ليل دائم في القطب الجنوبي، أواسط الشتاء؛ حيث لا تطلع الشمس مطلقا لستة أشهر، ثم تنعكس الحال في الأشهر الستة التالية[1].

ومناسبة قوله تعالى: (وَمِن رحمَتِهِ جَعَلَ لَكُم الليلَ وَالنهَارَ لِتسكُنوا فِيهِ وَلِتبتَغوا مِن فَضلِهِ وَلَعَلكُم تَشكُرونَ) (القصص: 73)، بين الشيخ بيوض الحكمة من تعاقب فترتيْ الليل والنهار وتَقلبهما، وتعاقب المراحل في الفترة الواحدة، فالنهار –مثلا- يبدأ بطلوع الفجر الكاذب، ثم طلوع الفجر الصادق، ثم يطلع شعاع الشمس الأحمر، ثم تبزغ الشمس، ثم لا تزال تَبيَض شيئًا فشيئًا، وحرارتها وشعاعها يتقويان حتى يبلغان الأوج، فيأخذان في التناقص، ثم يأتي الزوال، فالأصيل بعد العصر، ثم تميل الشمس إلى جهة المغرب حتى تغرب، وهكذا تتنوع المناظر، وفي ذلك تنظيم إلهي حكيم لحياة الإنسان، والحكمة التي استنتجها الشيخ من ذلك، هي أن الإنسان مفطور على السأم والمَلَل من الأحوال المُطردة التي تسير على وتيرة واحدة، فذلك التغيير في الفترات بين مراحل الليل والنهار، والانتقال من طور إلى آخر، من شأنه أن يقسم الأوقات، ويزيل السأم من ذهن الإنسان، ويجدد نشاطه[2].

وأعطى الشيخ مثالا لما بينه، وهو أن المرء حين يتقلب في فراشه ظُهرا –عند القيلولة- يحدث نفسه بالقيام عند آذان العصر؛ لإنجاز كذا وكذا من أعمال معينة، وعقب الشيخ على هذا المثال بأن التقسيم الجديد للأوقات، من شأنه أن ينسيَ المرء تعب ساعات النهار، ويزيل عنه الملل من العمل الذي كان يزاوله[3].

وقد عقب الشيخ في ختام تفسيره للآية (73)، ببيان المقصد من سوق القرآن لمثل هذه الآيات الكونية، فقال: «فالله تعالى ينبهكم ويرشدكم بهذه الأشياء لتعرفوا قدره، وتدركوا مدى رحمته بكم حتى تحبوه وتشكروه»[4].

3/ دليل العناية:

---

[1]- أحمد شفيق الخطيب ويوسف سليمان خير الله: **الموسوعة العلمية الشاملة**، مكتبة لبنان ناشرون (لبنان)، ط 1: 1998، ص 243.

[2]- **تفسير سورة القصص**: ص 487-488.

[3]- **تفسير سورة القصص**: ص 488.

[4]- (م.س): ص 491..

دليل العناية هو دليل ينبني على تأمل مشاهد الكون من جهة ما هي مجهزة لتلبية مطالب الإنسان في حفظ حياته وتطويرها، كما ينبني هذا الدليل من جهة أخرى على التأمل في الإنسان من جهة ما عليه تقويمه العقلي والجسمي من استعداد للاستفادة من مرافق الكون، وبالتالي يصل المتأمل –بعد ملاحظة بعض الجزئيات- إلى وجود توافق عجيب بين الإنسان والكون؛ هذا التوافق هو مظهر عناية بالإنسان ورعاية له، وهي عناية تدل على وجود معتنٍ راعٍ يفعل العناية بالقصد، هو الله تعالى[1].

وقد وجدنا الشيخ بيوض يشير في عدد من مواضع تفسيره[2] إلى هذا الدليل بمصطلح: "التسخير"؛ أي تدليل الموجودات الكونية لخدمة الإنسان، وهو مصطلح قرآني في الأصل، قال تعالى: (الله الذِي سَخرَ لَكُم الْبَحرَ لِتَجرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمرِهِ) (الجاثية: 12)، وقال أيضا: (وَسَخرَ لَكُم ما فِي السمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرضِ جَمِيعا منهُ) (الجاثية: 13).

ويرى الشيخ بيوض أن العناية الإلهية بالإنسان آتية من جهتين، من جهة الاستعداد العقلي والنفسي الذي أعده الله به، ومن جهة تَذْليل الموجودات الكونية، وجَعلها طَوع إرادة الإنسان وتحت ملكه، هذه العناية مَردها استخلاف الله للإنسان في الأرض[3]، يقول الشيخ في هذا الشأن: «والتسخير آتٍ من جهتين: من جهة ما أعطى الله الإنسان من عقل ولطف وحيلة، ومن جهة تذليل هذه الأشياء له، إذ أرادها هو [أي الله تعالى] أن تكون ملكا للإنسان، لأنه خليفته في الأرض»[4].

* مظاهر العناية الإلهية بالإنسان:

كان الشيخ بيوض يوظف آيات الآفاق؛ في بيان أوجه العناية بالإنسان وتكريمه، وفي ربطها بمعرفة الخالق تعالى وتعظيمه، وترسيخ الإيمان به وبصفاته، وفيما يلي نماذج لتعرض الشيخ للعناية الإلهية، باعتبارها دليلا من أدلة الآفاق على وجوده تعالى.

- النموذج الأول:

---

[3]- النجار: مرجع سابق، ص 97.

[4]- انظر مثلا: **تفسير سورة الحج:** ص 567، **تفسير سورة المومنون:** ص 101.

[3]- **تفسير سورة الحج:** ص 567-568.

[4]- (م.ن).

قوله تعالى: (أَلَم تَرَ أن اللهَ يولِج الليلَ فِي النهَارِ وَيولِج النهَارَ فِي الليلِ وَسَخرَ الشمسَ وَالْقَمَرَ...) (لقمان: 29).

عند تطرق الشيخ لقضية تسخير الشمس والقمر، بين أن الله تعالى هو الذي ذلل الشمس، بما خلق فيها من حرارة تبلغ عشرين مليون درجة في بؤرتها[1]، وبما أودع فيها من ضوء وأشعة، كل ذلك لمصلحة الإنسان، والأرض التي يحي فيها، ولحياة كل ما في الأرض من حيوان ونبات ومعادن، ولمصلحة كل الكواكب التابعة للمجموعة الشمسية[2].

والحق أن كل تلك المخلوقات المستفيدة من حرارة الشمس وضوئها؛ إنما يعود نفعها في الأخير على الإنسان وحده، وهو الذي سخر له ما في السماوات وما في الأرض.

كما أشار الشيخ إلى دِقّة تركيب الشمس في درجة حرارتها، بحيث لو زادت قليلا لاحترقت الأرض وما عليها، ولو نقصت قليلا لَبردت الأرض ولما عادت صالحة للحياة[3]، وهذه الحقيقة هي ما أثبته علماء الفلك حيث توصلوا إلى أن الأرض تقع في مركز وسط بالنسبة للشمس [تبعد عنها نحو 150 مليون كلم]، وقد أتاح لها هذا البعد عن الشمس، إمكانيةَ أن تتلقى نورا وحرارة معتدلين، بينما "عطارد" -الكوكب القريب جدا من الشمس- تنعدم فيه الحياة، بسبب شدة الحرارة، كما تنعدم الحياة في "بلوتون"، بسبب بعده الكبير عن الشمس، وبالتالي اشتداد البرودة فيه[4].

- *النموذج الثاني:*

قوله تعالى: (أَلَم تَرَوا أن اللهَ سَخرَ لَكُم ما فِي السمَاوَاتِ وَمَا فِي الارضِ وَأَسبَغَ عَلَيكُم نِعَمَه ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ...) (لقمان: 20).

أشار الشيخ بداية إلى مفهوم التسخير، وهو أن الله تعالى ذلل كل الموجودات الكونية، وجعلها طوع إرادة الإنسان وتصرفه، ليوظفها فيما ينفعه، ثم ذكر الشيخ أمثلة لذلك، فذكر مثال تسخير الفُلْك والأنعام الوارد في قوله تعالى: (وَالذِي خَلَقَ الازوَاجَ كُلهَا وَجَعَلَ لَكُم منَ الْفُلْكِ وَالانعَامِ

---

[1]- انظر هذا الرقم عند: موريس أسعد ورشيد فرحات: **موسوعة الكون والفضاء والأرض**، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، ط 2: 2002م، ص 78.

[2]- **تفسير سورة لقمان**: ص 522.

[3]- (م.ن).

[4]- موريس أسعد ورشيد فرحات: مرجع سابق، ص 105-106.

مَا تركَبونَ لِتستَووا عَلى ظُهورِهِ ثُم تَذْكُروا نِعمَةَ رَبكُم إذَا استَوَيتم عَليهِ وَتقُولُوا سبحانَ الذِي سَخرَ لَنا هَذَا وَمَا كُنا لَه مقْرِنينَ وَإِنآ إلى رَبنَا لمنقَلِبونَ) (الزخرف: 12-14)، فبين الشيخ أن الخالق سَخر للإنسان البحر –على عِظَمِه وشدة خطورته-، كما سخر له سفن البحر، ليَمخر عبابه ويقاوم أمواجه، وسخر له سفن البر أيضا؛ كالخيل والبغال والحمير، وقد نبه الشيخ على روعة التسخير في بعض الحيوانات الضخمة كالجمال والفيلة، فالجمل مثلا -على ضخامة جثته-، يقدر الإنسان –على ضعفه، حتى لو كان طفلا صغيرا- أن يأخذ بخِطامِه فيجره ويضربه، ويبركه وَيركَبه !!، كل هذه المقامات تستوجب على المرء تسبيح خالقه على عنايته[1].

ومن أوجه التسخير التي ذكرها الشيخ، أن استطاع الإنسان أن يبني على الأرض ويعليَ في البنيان، فشيد ناطحات السحاب، كما أقدره الله على أن يحفر الأرض عدة أميال، ويشق الترع والأنهار، ويصير البر بحرا؛ يغمر الأرض ليقرب المسافات ويسير على الفلك، «كما هد الجبال وحفرها، وجعل فيها أنفاقا طويلة تشقها السيارات والقطارات، وأقام الجسور والقناطر على الأنهار والبحار، وصير الأماكن الجرداء القاحلة جنات وغابات كثيفة، وحول الغابات إلى ساحات أقام فيها مدنا كبرى وقد كانت موحشة ... وذلك كله بتسخير الله»[2].

- النموذج الثالث: تسخير ما في السماوات

بعد أن تطرق الشيخ في تفسير الآية السالفة الذكر –الآية 20 من سورة لقمان- إلى أوجه العناية الإلهية بالإنسان، من خلال الأرض التي يحي عليها، عدد الشيخ هذه المرة بعض أوجه العناية من خلال السماوات. فلا يخفى على أحد قيمة الأمطار التي تنزل من السماء، ويتخذ الناس وسائل لحجزها وحفظها، كما يستفيدون من ضوء القمر ليلا، ويهتدون بنجوم السماء في البر والبحر، والملفت للنظر أن المعادن في باطن الأرض تتكون بتأثير الحرارة والأشعة المنبعثة من الشمس وغيرها من أجرام السماء!، كما أشار الشيخ إلى امتلاء الجو بمادة الأثير، التي بفضلها تنقل الأصوات والصور من مكان بعيد[3].

---

[1]- **تفسير سورة لقمان**: ص 406-407.

[2]- (م.س): ص 407.

[3]- (م.س): ص 408.

والملاحظة التي سجلها الشيخ على إثر ذِكر تلك الظواهر، أن هذه بعض الأمور الظاهرة التي اطلع عليها الإنسان، أما ما عند الله مما لم يعرف فهو أكثر، ليتحقق قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزقُكُم وَمَا توعَدونَ﴾ [الذاريات: 22]، كما سجل الشيخ أن معلومات أمثاله -من غير المتخصصين- عن الكون؛ إنما هي أشياء ظاهرة بسيطة، لكن العلماء المتخصصين يعرفون أكثر، بحكم اطلاعهم على بعض الأسرار في هذا المجال[1]، والملاحظة الثالثة التي سجلها الشيخ؛ أن أهل هذا العصر تقوم عليهم الحجة أكثر، لاطلاعهم على الآيات الكونية بما لم يطلع عليه المتقدمون، الذين كانوا ينظرون إليها نظرا سطحيا، ويفسرونها تفسيرا بسيطا بحسب ما يدركونه بحواسهم المجردة، بينما المعاصرون يشهدون في كل يوم ظهور نوعٍ جديد من الآيات التي سخرها الله تعالى للإنسان[2]، وهي بمثابة دلائل إضافية على وجوده تعالى وعنايته ببني آدم.

والمثال الآخر للتسخير الذي نبه الشيخ عليه، هو توظيف الإنسان للأجواء المسخرة له في السماء، لنقل الأجرام الثقيلة التي تزن مئات الأطنان، إلى مسافات بعيدة؛ تعد بآلاف الأميال في الساعة الواحدة، ولم يكن يخَيل للإنسان من قبل؛ أن جرما ثقيلا يمكن أن يصعد إلى السماء ويقطع تلك المسافات الطوال في وقت قصير!، لكن الزمان تطور، فأظهر الله آياته في الآفاق، ولا يدري إنسان اليوم ما سيحدث غدا[3].

---

[1] - (م.ن).

[2] - **تفسير سورة لقمان**: ص 408-409.

[3] - (م.س): ص 409.

ثانيا/ الاستدلال بأدلة الأنفس

تعتبر آيات الأنفس الشطر الثاني من الآيات الكونية التي وجه القرآن النظر إليها؛ لتحصيل الإيمان بالله تعالى، قال عز وجل: (وَفِي الأَرضِ ءَايَات للْموقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُم, أَفَلاَ تبصِرونَ) (الذاريات: 20-21)، «وإذا كان الإنسان جزء من الكون؛ يتحقق فيه ما يتحقق في سائر الموجودات الكونية من الدلالات على وجود الله: خلقا ونظاما وعناية، إلا أنه يزيد على تلك الموجودات بدلالات أخرى لا تشتمل هي عليها، فالإنسان كائن فريد في الكون، خص بقوام جسمي وروحي متميز، وأُودِع من القوى والاستعدادات ما لم يودع غيره، إنه كائن متميز بالوعي الذي يكشف له ما يحيط به، كما يكشف له حقيقة ذاته نفسها»[1].

ويعتبر الشيخ بيوض أن أقرب آيات الأنفس إلى الإنسان هو وجوده، ونفسه التي بين جنبيه، ومظاهر جسمه العجيب في صنعته[2]، لأ ا أشياء متصِلة به؛ يحسها ويشعر ا أكثر من أي شيء آخر، وفيها من العجائب ما لا يوجد في أي مخلوق آخر. وبمناسبة قوله تعالى: (وَلَقَد خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سلاَلَةٍ من طِينٍ) [المومنون: 12]، بين الشيخ أن مراد الله تعالى من الآية إرجاع الناس إلى نفوسهم ليروا أصلهم، وليَعبروا منها إلى الإيمان، فتخيل أن الخالق يخاطب عباده قائلا: «لا لزوم لأن تذهبوا بعيدا، ارجعوا إلى نفوسكم، لتدركوا عظمة الخالق؛ حتى يحملكم على الإيمان به، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه»[3].

كما يعتبر الشيخ -في مواضع من تفسيره-، أن تركيب جسم الإنسان ونظامه؛ منسجم تماما مع مشاهد الأرض والسماء ومع النظام الكوني، ولذلك فالشيخ يشبه أعضاء الإنسان ووظائفها، بالآلات والمصانع المشيدة فوق الأرض، مع اعتبار الفارق، إذ أن أعضاء الإنسان أعظم وأدقّ، وكثيرا ما يستشهد بقول الشاعر:

وتزعم أنك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر[4].

---

[1]- النجار: مرجع سابق، ص 101.

[2]- **تفسير سورة المومنون**: ص 94، أنظر في المسألة أيضا: **سورة تفسير الروم**: ص 178.

[3]- **تفسير سورة المومنون:** ص 94.

[4]- البيت للإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وقبله:

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر. =

يقول الشيخ في هذا الشأن: «ولا يوجد في الكون أجهزة إلا وفي الإنسان أدق منها، لا يدرك دقتها إلا الله تعالى»[1]، ويقول أيضا: «حقيقةً؛ إن الإنسان منطو على العالم الأكبر، فجميع المعامل التي نتعجب منها في الدنيا، في أجسامنا مثلها، وأزيد منها وأعظم وأدق ألف مرة، وكل هذه الأجهزة موجودة في الطفل الخارج من بطن أمه»[2].

ونورد فيما يلي بعضا من أدلة النفس على وجود الله تعالى، التي تطرق إليها الشيخ بيوض؛ لنرى كيفية عرضه لها.

الدليل الأول: أصل خلق الإنسان

يرشد القرآن الإنسان في آيات كثيرة إلى تذكر أصل خلقه الأول، للاستدلال بهذه القضية على وجود الله، وعلى إمكان البعث بعد الموت، فبمناسبة قوله تعالى: (يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُم فِي رَيبٍ مِنَ الْبَعثِ فَإِنا خَلَقْنَاكُم من تُرَابٍ ثُم مِن نطْفَةٍ...) [الحج: 5]، جاءت الآية في معرض الحديث عن البعث بعد الموت وإثبات حدوثه، إلا أنها تصلح دليلا على وجود الله، من خلال النظر في أصل الخلق الأول وهو التراب الذي خلق منه أبو البشر: آدم ؏، وعند تفسير الشيخ لقوله تعالى: (فَإِنا خَلَقْنَاكُم من تُرَابٍ)، ذكر بحقيقة التراب وهي أنه مادة جامدة ميتة؛ لا حياة فيها ولا روح، ولا عقل ولا علم، ولا إدراك ولا إحساس، ثم انتقل إلى وجه الدلالة من هذا الدليل، وهو انقلاب هذه المادة الميتة بشرا سويا؛ له خصائص الحياة التي ليست في التراب، يحسّ ويدرك، يجادل ويناظر[3].

ويذهب الشيخ في فهم الآية إلى أبعد من ذلك، فيرى أن قوله تعالى: (خَلَقْنَاكُم من تُرَابٍ) لا يقتصر على الخلق الأول فحسب - و إلا لما قال: خلقناكم، وإنما المراد أيضا أن الإنسان في تخلق متجدد من تراب، ذلك لأن كل غذائه وقوت بدنه من تراب، فجميع النباتات تمتص

= علي بن أبي طالب: **ديوان الإمام علي بن أبي طالب (ديوان شعر إمام البلغاء)**، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الهدى، عين امليلة-الجزائر، ص52.

1- **تفسير سورة الفرقان**: ص 185.

2- **تفسير سورة الحج**: ص 331.

3- **(م.س)**: ص 313. في أصل خلق آدم ذكر الله مرة التراب ومرة الطين ومرة الحمأ المسنون، ومرة الفخار، وذلك بحسب المراحل التي يتطور فيها التراب، من خلطه بالماء إلى يبسه، أنظر ذات المصدر: ص 313-314.

ماءها وغذاءها من التراب، وحتى الحيوانات التي يقتات بلحومها الإنسانُ، تتغـذى مـن نبـات الأرض[1]، فمن يكون قد وهب الحياة في هذا الجسم المخلوق من تراب؛ غير الله تعالى.

وفي آية أخرى جاء التعبير عن أصل خلق الإنسان بعبارة الضعف، إما في مبدأ خلق آدم مـن سلالة من طين، وإما في خلق ذريته من بعده من ماء مهين[2]، والآية هي قوله تعالى: (الله الـذِي خَلَقَكُم من ضعفٍ) (الروم: 54).

والغرض من ذكر أصل الإنسان –كما يرى الشيخ بيوض- هو تذكيره بمدى ضـعفه ومبلـغ قوته، وتعريفه بحقيقة بدنه وحقيقة علمه وعقله، حتى لا يغتر بقوته أو علمه، ولا يتكبـر علـى خالقه، وقديما قيل: «من عرف نفسه عرف ربه»، وبذلك بين الشيخ أن من أراد معرفة الله تعالى؛ فعليه بمعرفة نفسه[3].

الدليل الثاني: مراحل خلق الإنسان

الدليل الآخر الذي عنيَ الشيخ بتحليله، وترسيخ الإيمان بالله من خلاله، هو دليل تخلق الإنسان، أي مراحل تكونه في رحم أمه، بدءا من النطفة الملقحة، وحتى اكتمال خلقه بشرا سويا بعد تسعة أشهر، وهو في ذلك يخضع لسنة كونية، في وجود الأشياء والكائنات الحية، وهي التدرج في النمو والتقلب بين المراحل؛ حتى طور الاكتمال.

فبداية حياة الإنسان من نطفة، ومن ماء مهين –كما عبر عنه القرآن-: (أَلَم َنخلُقكم من مـآءٍ مهينٍ فَجَعَلْنَاه ِفي قَرَارٍ مكِينٍ) (المرسلات: 20-21)، (ثُم جَعَلْنَاه نطْفَةً في قَرَارٍ مكِينٍ) (المومنون: 13)، ومن معاني النطفة في القرآن الكريم الطور الأول في تخلق الجنين، ويمتد من اليـوم الأول إلى اليوم السادس من الحمل، وقد قسم علم الأجنة هذا الطور إلى ثلاث مراحل؛ مرحلة التلقـيح أي اتحاد سلالة الرجل بسلالة المرأة فينتج عنهما بويضة ملقحة، وفي مرحلة التوتة تنقسم هذه البويضة تدريجيا، حتى تبلغ ست عشرة خلية، ثم تأخذ شكل التوت، فتسمى بالتوتة؛ التي تتحول في المرحلة الموالية إلى ما يسمى علميا بالكرة الجرثومية، ويصل عدد خلاياها خمسين إلى سِتّين خلية، وخلال

1- (م.س): ص314.

2- **تفسير سورة الروم**: ص334.

3- (م.س): ص 332.

عملية الانقسام تنتقل النطفة من أنبوب الرحم إلى الجدار الداخلي للرحم لتبدأ بالتعلق فيه، منذ اليوم السابع من بدء الحمل[1].

وخلال تعرض الشيخ للآيات التي تذكر أطوار الخلق الإنساني، يقف عندها كثيرا بالتحليل الإيماني، بعد أن يسوق معلومات وحقائق علمية في الموضوع، عن علماء متخصصين، وغرضه ربط النفوس بعظمة الله تعالى، فمثلا عند تطرقه لمرحلة النطفة؛ يبرز الحكمة من وصفها بالماء المهين، وهي الاتعاظ بدقة صنع الله تعالى، فرغم حقارة هذا الماء وعفونته ونجاسته، حتى أن المرء يتنزه عن أن تتلوث به يده أو ثوبه، وإذا أصابه شيء من ذلك سارع إلى غسله، رغم كل هذا فإن ذلك الماء بداخله أعجب مخلوق وهو الإنسان!! ويدعو الشيخ إلى التعجب من ذلك الحيوان المنوي الذي لا يرى بالعين المجردة؛ كيف له أن يحمل جميع الخصائص البشرية العامة من رأس وجذع وأطراف وأجهزة، والأعجب من ذلك -كما يرى الشيخ- أن تحمل النطفة خصائص الأب والأم، فيولد الولد شبيها بهما في الخِلقة، حتى إذا رآه أحد؛ تعجب قائلا: كأنه أبوه في هيئته ومشيته وكلامه؟ وكذلك الشبه في الطباع والأخلاق، وعادة ما يكون النزوع إلى الأب في الصفات الخِلقية، وإلى الأم في الصفات الخُلُقية، ويختم الشيخ تعجبه الإيماني بتساؤله: كيف اجتمعت تلك الصفات كلها في تلك القطرة من الماء؟![2].

واتعاظا بدقة صنع الله أيضا، نقل الشيخ معلومات وأرقاما عن الماء المهين، في حجمه وشكله ومصيره، فبين أن «الرجل يقذف في الجماع الواحد ما بين 250 إلى 350 مليون حيوانا منويا، ولا يمكن رؤية الواحد منها بالعين المجردة إلا إذا كُبر ألف مرة، لأن حجمها لا يتجاوز جزءا من ستة آلاف جزء من المليمتر؛ وكل حيوان منوي من هذه الملايين هو على صورة سِلك له رأس وعنق وذيل، تستبق كلها محاولة تلقيح بويضة المرأة، ولكن واحدا منها فقط يصل البويضة ويلقحها، وهذا الذي يعيش بإذن الله، ويتكون منه الإنسان، والباقي كله يموت في ساعات قليلة»[3].

---

[1]- عدنان الشريف: **من علم الطب القرآني**، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط 1: 1990، ص 49-51.

[2]- انظر: **تفسير سورة الفرقان**: ص 184-186، **تفسير سورة الحج**: ص 314-315، **تفسير سورة المومنون**: ص 98-99، يقول الشيخ معلقا على تلك المعلومات -في أحد المواضع-: «إن المرء ليندهش، حتى لا يستطيع النطق وهو يطّلع على هذه الحقائق»، **تفسير سورة الروم**: ص335.

[3]- **تفسير سورة المومنون**: ص 99، وانظر في المسألة أيضا: آدم فتحي: **موسوعة جسم الإنسان (أجهزته ووظائفها)**، دار الفكر العربي، بيروت – لبنان، ط 1: 2000م-1421هـ، ص: 96، 114، وعدنان الشريف: مرجع سابق، ص 40.

ومناسبة قوله تعالى: (وَهوَ الذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرا فَجَعَلَه, نَسَبا وَصِهرا وَكَانَ رَبكَ قَـدِيرا) (الفرقان: 54)، يعلق الشيخ على عظمة الآية، فيبين أنه لو قام البشر كلـهم –مـن أولهـم إلى آخرهم- لإدراك أسرارها فلن يدركوها؛ رغم صِغَر الآية وقلة حروفها، وأنه ما أسهل على المـرء أن يردد: حملت المرأة وولدت، لكن العجب يكمن في الكيفية ذا ا، ولذا كان ختام الآية: (وَكَانَ رَبكَ قَدِيرا)، ويستغل الشيخ هذه المناسبة للرد على الملحدين، فيبين أن كفار البشر قد يطلعـون على جزء بسيط من حقائق خلق الإنسان، لكنه لا يعد شيئا بالنسبة لعلم الله تعالى، ومـع هـذا يتنكر الجاحدون ويقولون: «إن العالَم وجد بطريق الصدفة»، فيرد الشيخ عليهم –متعجبا مـن ضلالهم-[1]: «فما أعماهم! وأما أضلهم! والصدفة لا تولد ولو شيئا أقل من هذا بملايين الملايين من المرات، أفيمكن أن يكون هذا الخلق العظيم ذا النظام الدقيق، بطريق الصدفة، لـولا أن هنـاك خالقا مدبرا حكيما خبيرا بكل شيء؟»[2].

إن كل ما سبق هو تحليل للمراحل الأولى من خلق الإنسان، كما يعرضها الشيخ بيوض، ننتقل بعدها مباشرة إلى المرحلة الأخيرة؛ لنرى طريقة عرض الشيخ لها، وهي طور التسوية الذي قال فيه المولى تعالى: (ثُم أَنشَأْنَاه خَلْقًا -اخَرَ)، في معرض الحديث عن أطوار الخلق البشري (ثُم جَعَلْنَـاه نطْفَةً في قَرَارٍ مكِينٍ ثُم خَلَقْنَا النطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مضغَةً فَخَلَقْنَا الْمضغَةَ عِظَامـا فَكَسَـوْنَا الْعِظَامَ لَحما ثُم أَنشَأْنَاه خَلْقًا -اخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحسَن الْخَالِقِينَ) (المومنون: 13-14). وهو الطـور الذي يعطى فيه الشكل الإنساني للجنين، بعد أن كانت الأطوار السابقة؛ من طـور النطفـة إلى العلقة إلى المضغة، إلى العظام، إلى اللحم؛ أطوار خلق وتجميع وتعديل في أعضاء الجنين، ويمتد هذا الطور من بداية الشهر الثالث حتى الولادة[3].

وعند تفسير الشيخ للآية (ثُم أَنشَأْنَاه خَلْقًا -اخَرَ)، بين أن مفهومها لا يقتصر على نفخ الروح في الجنين، حتى يصبح جسما متحركا يمتاز بكل خصائص الأحياء فحسب، لأن ذلك يشترك فيه مع الحيوان، ولكن المعنى هو أن هذه المرحلة هي التي يبدأ فيها الفرق بين الإنسان والحيوان، بعدما كانا متشا ين –خِلْقيا- في المراحل السابقة، هذا الفرق –كما ذكر الشيخ- هو ما ركـب الله في

---

[1]- **تفسير سورة الفرقان**: ص 186-187.

[2]- (م.س): ص 187.

[3]- عدنان الشريف: مرجع سابق، ص 61.

الإنسان من خصائص وصفات استحق بها اسم الإنسانية، واستحق بها خلافة الله في أرضه، واستحق بها أن يتحكم في الحيوانات التي هي أقوى منه جسدا، وأن يسخر له ما في السماء والأرض لصالحه[1]، وطبعا هذه الصفات هي صفات جسمية وعقلية ونفسية.

وبالنسبة للصفات الجسمية، فقد بين علم الأجنة، أن مختلف الأجنة عند الفقريات، تمر في مرحلة من تطورها بأطوار؛ لا يستطيع خلالها أي عالم أجنة أن يفرق بينها وبين الجنين الإنساني في الشكل، حتى الأسبوع السابع أو الثامن، حين يأخذ الجنين عند الإنسان شكله الذي يميزه عن بقية أجنة الفقريات، وهنا يكمن الإعجاز العلمي في قوله تعالى: (ثُم أَنشَأْنَاه خَلْقًا ءاخَرَ)[2].

الدليل الثالث: تركيب جسم الإنسان

من الأدلة الساطعة للأنفس؛ التي يوظفها الشيخ بيوض في الاستدلال على وجود الله وعظمته، وفي ترسيخ الإيمان به: الآيات التي تشير إلى بديع صنع الله في جسم الإنسان، بما ركب فيه من أعضاء وأجهزة دقيقة، تختص بوظائف معقدة، ولا يأتي الشيخ على آية من هذه الآيات، إلا ويطْلِع مستمعيه على حقائق علمية منقولة عن العلماء المختصين في علوم الطب، بل وينقل إليهم آخر الأخبار العلمية التي يطلع عليها في بعض الكتابات؛ عن موضوع الآية التي هو بصدد تحليلها في هذا المجال، رغبةً منه في مسايرة عصره؛ في مستجدات الأبحاث التجريبية والكونية، التي يؤمن بجدواها في ترسيخ دعائم الإيمان بالله تعالى في نفوس الناس؛ بعد رفعهم إلى مستوى تلك المستجدات.

فبمناسبة قوله تعالى: (وَهوَ الذِي أَنشَأَ لَكُم السمعَ وَالاَبصَارَ وَالاَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشكُرونَ) (سورة المومنون: 78)، أخذ الشيخ يستنطق روح الآية ومقصدها الذي تقصد إحداثه في النفوس، فتخيل أن الله يخاطب عباده قائلا: «تأملوا في أنفسكم، واذكروا سمعكم وأبصاركم وأفئدتكم، تذكروا من أعطاكم إياها؛ حتى كنتم تسمعون وتبصرون وتعقلون، ثم صِرتم مغترين بأنفسكم وعقولكم، فتحادون الله ورسوله"[3].

---

[1] - **تفسير سورة المومنون:** ص 101.

[2] - عدنان الشريف: مرجع سابق، ص 61.

[3] - **تفسير سورة المومنون:** ص 230.

ويدعو الشيخ الإنسان –في موضع آخر- إلى تأمل جسمه العجيب من طريق غير مباشر، من طريق ملاحظة شعوره وهو يدخل مخبرا من المخابر العلمية، لاشك وأنه يندهش ويتملكه العَجَب الشديد من الأجهزة الموجودة فيه!!، فيدفع الشيخ بذلك مستَمِعَه عن طريق قياس الأولى[1]، إلى التعجب أكثر من تركيب جسمه المليء بالأجهزة الدقيقة، يقول الشيخ: «... ولكن، ألا تعلم أن في جسمك آلاف المخابر، تنظم وتحلل وتوزع الغذاء إلى جميع جهات الجسم بواسطة شبكة عجيبة من القنوات، من الشعرة في مفرق الرأس إلى الظفر في إصبع القدم»[2]!.

وفيما يلي نورد بعض النماذج من الدليل الثالث "تركيب جسم الإنسان"، التي تطرق إليها الشيخ في تفسيره؛ مبينا أسرار بعض الأعضاء ووظائفها.

* النموذج الأول: جهاز السمع

تطرق الشيخ إلى جهاز السمع وهو يفسر قوله تعالى: (وَهوَ الذِي أنشَأ لَكُم السمعَ وَالابصَارَ وَالافْئِدَةَ قِلِيلاً ما تَشكُرونَ) (سورة المومنون: 78)، فاستهل حديثه عنه بإثارة سؤال محير عن حقيقة السمع؛ والذي لم يجد له العلماء جوابا، وغرض الشيح من ذلك هو إثارة مشاعر التعظيم والوجل من الخالق تعالى؛ في النفوس، فتساءل عن مدى إدراك الإنسان لحقيقة السمع؟! مع أنه أدرك أن هنالك أعصابا يتم ا السمع، وإذا تمزقت إحداها، أو ثقبت طبلة الأذن، يصاب المرء بالصمم أو ثقل السمع، وما هي حقيقة إدراك الأصوات، وما هي قوة الأعصاب والأغشية التي تكون جهاز السمع، والتي تجمع الأصوات ثم تنقلها إلى مركز السمع في الدماغ فيترجمها، ثم يرسلها إلى المخ أو العقل ليدركها ويميز بينها مهما دقت وتنوعت؟[3].

كما أثار الشيخ العَجَب من شكل الأُذُن الخارجي وتصميمه، والحكمة من وجوده، فافترض سائلا يسأل: عن جدوى كل هذه الأجهزة، وهلا كان للأذن ثقب فقط يدخل منه الصوت مباشرة؟ فأجاب الشيخ: «ولكن خلق الأُذُن على تلك الصورة العجيبة، وما فيها من تجاعيد وتجاويف،

---

[1]- « قياس الأولى: هو أن يكون الفرع فيه أولى بالحكم من الأصل لقوة العلة فيه، مثل: قياس الضرب على التأفيف بجامع الإيذاء، فإن الضرب أولى بالتحريم من التأفيف لشدة الإيذاء فيه، فإذا كان قول (أفّ) منهيا عنه في قوله تعالى: (ولاَ تَقُلْ لهمَا أُف) فأولى بالنهي عنه الضرب». وهبة الزحيلي: **أصول الفقه الإسلامي**، دار الفكر-الجزائر، دار الفكر-سوريا، ج1/ ص702.

[2]- **تفسير سورة الفرقان**: ص 187-188.

[3]- **تفسير سورة المومنون**: ص 231-232.

ذلك لينساب الصوت فيها بشكل حلزوني، ثم يدخل إلى مركز الحس، حتى لا تصدم طبلـة الأذن مباشرة»[1].

وبعد أن ختم الشيخ حديثه عن السمع، علق عليه بأنه ما هو إلا إشارة بسيطة، وهو أقل مـا يمكن أن يوضح، لأجل فهم بعض الأسرار عن خلق الله[2].

* النموذج الثاني: جهاز البصر

وعند تحليل الشيخ لذات الآية السابقة –آية 78: سورة المومنون- تطرق إلى جهـاز البصـر، فتساءل عن ماهية البصر؟ وعن عدد الأعصاب التي يتم ا الإبصار؟ فنقل بعض الحقائق العلمية في الموضوع معلقا عليها، فقال: «يقول العلماء إن العين مركبة من أكثر من خمسين مليون عصـب، لنقل الصور من البؤرة إلى مركز البصر في الدماغ، وإنه لأمر عجيب، فكم هي هذه العين حـتى تشتمل على مثل هذا المقدار الهائل من الأعصاب، وليس العين هي التي تبصر، وإنما العـين مثـل عدسة المصور، فقط ناقلة للصور، والمخ هو الذي يفرز ويميز بعضها من بعض، فمن الذي خلـق كل هذا ؟!»[3].

النموذج الثالث: اختلاف الأصوات بين الناس

بمناسبة قوله تعالى: (وَمِنَ ـ آيَاتِهِ خَلْقُ السمَاوَاتِ وَالاَرضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُم وَأَلْـ وَانِكُم,ٍإِن ِفي ذَاَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) (الروم: 22)، تحدث الشيخ بشيء من التفصيل عن قضـية اخـتلاف الألسنة، ولم يقف عند ظاهر معناها الذي ارتضاه بعض المفسرين؛ وهو أن اختلاف الألسنة يعـني اختلاف اللغات بين عربية وفارسية وتركية... وغيرها[4]، بل ذهب الشيخ إلى أبعـد مـن ذلـك وأشمل، وهو أن الآية الكبرى المقصودة هي اختلاف الأصوات بين الناس، إذ يستحيل أن يوجـد شخصان متشا ان في الصوت، قد يتقاربان كثيرا، أما أن يكونا متفِقين تماما؛ بحيـث لا يمكـن التفريق بين صوتيهما؛ فهذا ما لا وجود له[5].

---

[1]- (م.س): ص 232.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة المومنون**: ص 233، وانظر في الموضوع: آدم فتحي، مرجع سابق، ص 199.

[4]- انظر مثلا: محمد الطاهر بن عاشور: **التحرير والتنوير**، ج21/ص73-74، سيد قطب: في **ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت-لبنان، ط3: 1397هـ/1977م، مج5/ ص2764.

[5]- **تفسير سورة الروم**: ص 180.

والرأي الثاني هو ما ذهب إليه أغلب المفسرين الذين اطلعنا على تفاسيرهم، فقد وجدنا كلاّ من الأيمة: هود بن محَكم الهواري (ت: 280هـ)[1]، بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، محمود الزمخشري (ت: 538هـ)، الفخر الرازي (ت: 606هـ)، بن كثير الدمشقي (ت: 774هـ)، امحمد بن يوسف اطفيش (ت: 1332هـ)،كل هؤلاء يكادون يتفقون على أن اختلاف الألسنة – في الآية السابقة- يشمل اختلاف النطق والأصوات بين أفراد الناس -إلى جانب اختلاف لغاتهم-.

يقول الزمخشري عن معنى اختلاف الألسنة –في الآية السابقة-: «الألسنة اللغات أو أجناس النطق وأشكاله، خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء؛ حتى لا تكاد تسمع مَنطقين متفقين، في همس واحد ولا جهارة ولا حِدة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لُكْنة ولا نَظم ولا أسلوب ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله»[2].

ويقول بن كثير في الموضوع: «فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة؛ كل له عينان وحاجِبان وأنف وجبين وفم وخدّان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لابد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيأة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا، يظهر عند التأمل»[3].

بل قد ذهب بعض المفسرين إلى أن تفسير "اختلاف الألسنة" باختلاف الأصوات، أولى من تفسيره باختلاف اللغات، وذكروا أوجها لهذا الترجيح، حيث وجدنا الفخر الرازي يذكر مثالا لذلك الاختلاف بقوله: «فإن عربيين هما أخوان إذا تكلما بلغة واحدة، يعرف أحدهما من الآخر، حتى أن من يكون محجوبا عنهما؛ لا يبصرهما يقول: هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر»[4]، أما وجه الترجيح فهو ما رآه الإمام في اختلاف الأصوات من حكمة بالغة، ذلك أن

---

[1]- عالم إباضي متقن، أخذ العلم عن أبيه وعن غيره، قيل في الأندلس وقيل في تيهرت، وقيل في القيروان وهو ما رجّحه الشيخ بلحاج شريفي. اشتهر بمؤلفه «تفسير كتاب الله العزيز»، وهو تفسير جليل، حقّقه الأستاذ بلحاج شريفي. **معجم أعلام الإباضية**، ج2/ص443.

[2]- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل** في **وجوه التأويل**، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د.ت، ج3/ص201.

[3]- ابن كثير، أبو الفدا عماد الدين اسماعيل الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، دار الفيحاء-دمشق، ط1: 1414هـ/1994م، مج3/ص570. وانظر في ذات الرأي أيضا: هود بن محكم الهواري: **تفسير كتاب الله العزيز**، تحقيق: بالحاج شريفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1: 1990م، ج3/ص319. والطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **جامع البيان** في **تفسير القرآن**، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط:4، 1400هـ/1980م، ج21/ص22.

[4]- الرازي: مصدر سابق، ج25/ص111.

الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص، ليعرف الصديق من العدو وصاحب الحق من غيره، ليقبل على الأول، ويحترز من الثاني، وكل ذلك قد يكون بالبصر فخلق الله الصور مختلفةً، وقد يكون بالسمع فخلق الأصوات مختلفةً، وقد ذكر الإمام أن البعض فسروا "اختلاف الألسنة" باختلاف اللغات، لكنه عقب بأن المعنى الأول أصحّ[1].

أما وجه الترجيح عند الشيخ اطفيش فهو أن اختلاف الأصوات؛ ظاهرة محسوسة ومشاهَدة عند كل الناس، لا تحتاج إلى علم أو إعمال عقل، وفي هذا الشأن يقول: «... وهذا لأنه أعمّ ومشاهد لكل أحد، أولى من تفسير الألسنة باللغات، كالعربية والبربرية والفارسية، وقد لا يعرف الإنسان أن لغةً غير لغته موجودة، وأيضا اللغات بالتّعلّم، واختلاف الأصوات بالنَغم أكثر، وبالطبع لا بالتّعلم»[2].

وبذات الوجه الأخير، كان ترجيح الشيخ بيوض للمسألة، لكنه زاد فربط ترجيحه بمناسبة الآية: ﴿وَمِنَ ـ آيَاتِهِ خَلْقُ السمَاوَاتِ وَالارضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ لخاتمتها –أو ذيلها- ﴿إِنَ فِي ذَالِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: 22)، حيث بين الشيخ الحكمة من التعبير بـ"العالِمين" -المُتمكن في عِقب الآية-، وهي أن ذلك الاختلاف في الأصوات يظهر لكل راءٍ؛ مهما كان إدراكه العقلي ومستواه العلمي[3]، ثم قال:«فليست هذه الآية في حاجة إلى أن يقال فيها: إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، أو يسمعون، أو يتفكرون، لأنها لا تحتاج إلى عقل كامل أو سمع أو تفكير حتى تدرك، فهي بادية للعيان»[4].

وخلال تحليل الشيخ لهذه المسألة، أخذ يطرح استفهامات تعجبية إيمانية، إن دلت على شيء فإنما تدل على روحٍ من التواضع والاستسلام لقدرة الله ومكنون علمه، من قِبَل الشيخ، حيث قال: «فلِلهِ ما أعجب خلق الله تعالى! لا يوجد شخصان متشابهان في صوتهما والخلق واحد! وجهاز الصوت واحد، فكم هو حجم هذا الجهاز الصوتي حتى يمكن أن يكون فيه هذا الفرق الذي لا يعد، وهل يستطيع البشر أن يصنعوا ملايين الأجهزة للأصوات، ولا يكون بينها تشابه مطلقا؟!

1- (م.س): ص111-112.

2- اطفيش: **تيسير التفسير**، ج11/ص109.

3- **تفسير سورة الروم**: ص184.

4 - (م.ن).

ترى، ماذا يتغير في جهاز صوت الإنسان حتى لا يكون هناك تشابه بين اثنين، من لدن الإنسان الأول آدم υ، إلى آخر واحد يبقى عند قيام الساعة؟ ...» [1].

وهكذا يسترسل الشيخ في هذه الأسئلة؛ التي يرمي من خلالها إلى تثبيت حقيقة في النفوس؛ وهي ضعف الإنسان وقِصَر علمه؛ أمام عظمة خالقه وإحاطة علمه بكل شيء. ويختم أسئلته تلك بقوله: «حقّا، إنه شيء مدهش، وأمر عجيب يقف فيه العقل محتارا !»[2].

والأساس الآخر الذي بنى عليه الشيخ بيوض اختياره تفسير الاختلاف في الألسنة؛ بـاختلاف الأصوات، هو توظيف آخر ما توصلت إليه العلوم التقنية حديثًا؛ في فهم الموضوع، وهو اكتشاف ما يسمى ببصمات الأصوات[3]، على غرار بصمات الأصابع، فإذا كانت هذه مختلفة بين النـاس، فكذلك ذبذبات الأصوات[4].

كما ذكر الشيخ أن العلماء –بناء على الاكتشاف السابق- اخترعوا جهازا لتسجيل الذبذبات الصوتية لدى الناس، والتي تنطبع على الجهاز في شكل خطوط ودوائر، وبذلك اسـتخدم هـذا الجهاز في التعرف على المتكلمين في أجهزة الهواتف، كما ساعد الجهاز في التحقيقات الجنائيـة؛ للتعرف على الجناة؛ حتى وإن حاول الجاني تغيير نبرة صوته، لكنه لا يستطيع تغيير ذبذباته الـتي تحفظ على الجهاز، وبذلك يضمن عدم ا ام الأبرياء[5].

وفي تعريف بصمة الصوت؛ ذكرت الموسوعة العربية العالمية أ ا: «تسجيل سمعي للموجـات الصوتية الخاصة بصوت إنساني. وفي بعض الأحيان تقارن بصمات الصوت وتسجيلات الأشرطة لأصوات عدة أشخاص، لتحديد صوت شخص معين»[6].

وقد ذكرت ذات الموسوعة أن بعض أقسام الشرطة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ تسـتخدم بصمات الصوت كدليل في القضايا الجنائية لتحديد الهوية -كما ذكر الشيخ بيوض آنفا –حيـث تساعد هذه الطريقة على تبرئة المتهمين بجرائم، مثل الابتزاز والمكالمات الهاتفية البذيئة، لكن مـن

---

[1]- (م.س): ص 180.

[2]- (م.س): ص181.

[3]- ذكر الشيخ أنه قرأ عن هذا الاكتشاف منذ عدة شهور، وهو قد فسر سورة الروم سنة 1968م.

4- (م.ن).

[5]- (م.ن).

[6]- **الموسوعة العربية العالمية**: ج 4/ ص 443.

جهة أخرى فإن بعض الخبراء يعتقدون صعوبة تفسير بصمات الصوت، وأ ا ليست دقيقـة بمـا يكفي لاستخدامها في المحاكم كدليل، لذا لم تعتمد هذه الطريقة في عدة بلدان[1].

أما الجهاز المسجل لبصمة الصوت؛ فيسمى: "مَرسَمَة الطيف"؛ حيث يتم أخذ البصمة بتشغيل شريط تسجيل من خلال هذا الجهاز، وتوضح البصمة مدة كلمات الحديث، وعلوّ طبقته، ونوعية الصوت المسجل[2].

ومن روائع تعقيبات الشيخ بيوض على آية اختلاف الألسنة؛ أن لفظة "ألسنتكم" في الآية (22) من سورة الروم، هي كلمة بسيطة، لكن العلم يتطور ويبحث ويدقق حتى يقف على الحقيقة التي أطْلَعنا عليها بحسب الظاهر، وهي آية من آيات الله؛ التي وعد بتحققها: (سَنرِيهِم ءَايَاتِنَـا فِـي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتى يَتَبَينَ لَهم أَنـه الْحَق) (فصلت: 53)، ورغم كل هذا فإن الأعجب منه أن يعجز الإنسان عن إدراك سر هذا الاختلاف في الأصوات، لأنه سر من أسرار الله تعالى، لن يتوصل إليه أبدا، والحكمة من خفاء هذا السر –كما بين الشيخ- هو ترك البصائر –عند تـذكر هذا الأمر- تدرك عظمة الله وقدرته، بمقابل ضآلة البشر وضعف عقولهم، وحتى لا يركبها الزهـو والغرور عند اكتشاف قانونٍ ما؛ أو اختراع جهازٍ ما، لأن الإنسان ما زاد على أن قلد صنع الله في الكون، باستخدام مواد خلقها الله وأودع فيها تلك الأسرار، وأرشد عقل الإنسان إلى معرفتـها وتركيب بعضها ببعض، ليتولد منها ما يتولد من المخترعات والصناعات[3]، ونتيجة كلام الشيخ أن الكل من خلق الله وإرشاده، فما الذي أوصل الإنسان إلى إنكار وجود الله أو الإشراك بـه؟! في الوقت الذي ينبغي عليه –عند التفكر في هذا النظام الكوني- أن يتقوى إيمانه بالله أكثر[4].

نتائج الفصـل الـثاني

[1]- (م.ن).

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة الروم**: ص 182-183.

[4]- (م.س): ص 183-184.

أولا: يعطي الشيخ بيوض -في تفسيره- لمعرفة الله تعالى قيمة كبرى، باعتبارها شرطا أساسيا في انطلاق العقل بالتعلم والبحث في مختلف ميادين المعرفة، بل يجعل التلازم مَتبادلاً بين العلم و الإيمان، إذ لا يتحقق إيمان المرء بالله دون علم يقينيّ بما يجب في حقّه، كما لا ينفع العلم بلا إيمان.

ثانيا: ينطلق الشيخ في بيان ضرورة المعرفة بالله من المنطلق القرآني؛ في إطار عهد الت يل، من غير أن يغفل واقع التاريخ البشري، وواقع عصره، لتوضيح أمثلة متكررة لتلك السّنة البشرية، وهي حال الإنسان حين يسير في دروب العلم بغير هدى من الله ولا إيمان، وحاله حين ينطلق بفطرة التوحيد متعلّما، أو كان علمه يدعوه إلى الإيمان.

ثالثا: يرى الشيخ بيوض أن الطريق الصحيح إلى معرفة الله والإيمان بوجوده، هو التفكر والتدبر في آياته؛ على طريق الانتقال من الأثر إلى المؤثر، وآيات الله تشمل: الآيات المتلوّة في القرآن، والآيات المَجلوة في الأنفس والأكوان، مع ملاحظة تركيز الشيخ أكثر على النوع الثاني من الآيات باعتبارها المسلك الأوضح والأشمل لكل الناس؛ على اختلاف مداركهم ولغا م.

رابعا: أما المقصد الأساس من توجيه العقول إلى قراءة آيات الله بقراءتين –قرآنية وكونية- فهو إقامة الحجة على العباد ،وترسيخ الإيمان بوجوده في قلو م، ثم دفعهم إلى طاعته والإخلاص له، كما يرى ذلك الشيخ بيوض.

خامسا: ينظر الشيخ بيوض إلى علم الكلام ومناهج المتكلمين باعتبارها تراثا تاريخيا للأمة، أملته ظروف معينة، فلا ينبغي أن يتجاوزها أو أن تستحضر مباحثه في العصر الراهن، و إلا رسخ الفُرقة بين المسلمين أكثر، والبديل الذي يراه أصوب هو مذهب السلف، في الإيمان بما أسند الله إلى نفسه مع التفويض له، وت يهه عن مشا ة خلقه، وقد دعا الشيخ إلى التمسك ذا المذهب لأن فيه السلامة.

سادسا: يتعامل الشيخ مع الآيات الكونية، أو دلائل الآفاق والأنفس بمنهج متمّيز، حيث كـان يفسرها في سياقها القرآني، ويؤكّدها بما توصل إليه العلم –بمختلف شعَبه- من حقائق ومعلومات حديثة، وذلك جمعا بين القراءتين –القرآنية والكونية- في تقرير دعائم الإيمان بالله تعالى في العقول، وترسيخها في النفوس، واقتناعا من الشيخ بجدوى توظيف نتائج العلوم المعاصرة في فهم كتاب الله تعالى، لأنه كتاب يدعو إلى العلم.

الفصل الثالث

منهج الشيخ بيوض

في بيان وحدانية الله تعالى

تمهـــــــيد

المبحث الأول: حقيقة الوحـدانيـة وأركانـها عند الشيـخ بيـوض

أولا/ حقيقة الوحدانية

ثانيا/ أركانها:

1) وحدانية الذات
2) وحدانية الصفات
3) وحدانية الأفعال
4) وحدانية الحكم
5) وحدانية المعبودية

المبحث الثاني: حقيــقة الشــرك وأقـسامـه عند الشيــخ بيـوض

أولا/ حقيقة الشرك

ثانيا/ أقسامه وصوره

القسم الأول: شرك الجحود (الإلحاد)

القسم الثاني: شرك التسوية وأهم صوره

1) عبادة الأصنام
2) عبادة الأضرحة
3) الذبح والنذر لغير الله

المبحث الثالث: آثـار الإيـمان بالوحـدانيـة عند الشيـخ بيـوض

أولا/ الاستعداد لقبول التكاليف الشرعية

ثانيا/ الأمن النفسي والطمأنينة القلبية

ثالثا/ الشعور بالعزة والكرامة

رابعا/ النجاح والنجاة

خامسا/ الثبات والاستقرار

نتائج الفصـل الثـــالث

تمهـــــيد

تعتبر وحدانية الله (عز وجل)، هي جوهرة الإيمان بالله، ولذلك نجد سائر الأركان تنبني عليها وتنتهي إليها، فالتوحيد هو أول ما دعا إليه الرسل (عليهم السلام) أقوامهم، ومن أجله أنزل الله كتبه وأرسل رسله؛ وعلى أساسه شرع شرائع دينه، فما من نبي بعث؛ إلا دعا قومه إلى التوحيد.

ولقد جاء الإسلام؛ والشرك بالله ضارب بجذوره في أنحاء العالم، ولم يكن يوحد الله إلا أفراد قلائل في جزيرة العرب؛ مِمن كانوا يتعبدون على ما بقي سالما من ملة إبراهيم، أو بقايا من أهل الكتاب؛ سلِمت من تحريفات الوثنية التي أفسدت الأديان السماوية[1].

والقرآن الكريم –وهو كتاب الإسلام الخالد-، مع صِنوه- الحديث النبوي- ما ركزا على أصل من أصول العقائد؛ كتركيزهما على أصل التوحيد، بيانا واستدلالا؛ بما لم يبلغه البيان في تقرير وجود الله نفسه، باعتبار وجوده تعالى فطرة مركوزة في النفوس، وباعتبار أن ضلال البشرية إنما كان متمثلا بالأخص في انحراف تصورها وتجسيدها لصفة الوحدانية، والتي بنى الوحي الخاتم، الدين كله عليها: عقيدة وشريعة، حتى عرف بأنه دين التوحيد[2].

وما ظهرت الحركات الإصلاحية في العصر الحديث، إلا لتصحح تصور المسلمين لهذه القضية؛ وتعيد نهضتهم من جديد بناء على التوحيد الصحيح[3]، حيث كان انحرافهم فيه عاملا رئيسا في ضعفهم وقابليتهم للاستعمار الأجنبي، وكان الشيخ إبراهيم بيوض من رواد الحركة الإصلاحية في الجزائر، حيث عمِل جاهدا لمعالجة واقعه الموبوء بشيوع أنواع من الشرك والبدع الاعتقادية، بناء على هدي القرآن الكريم، فجاء تفسيره له؛ محاولةً جادةً منه لتنزيله على ذلك الواقع: تذكيرا وتنبيها وتصويبا.

وفي هذا الفصل سنتناول –بإذن الله- منهج الشيخ بيوض في بيان وحدانية الله، موزعا على ثلاثة مباحث، الأول: نتطرق فيه إلى حقيقة الوحدانية وأركانها، الثاني: نعرج فيه إلى حقيقة الشرك وأقسامه، مع ذكر منهج الشيخ في علاج أهم صوره، أما المبحث الثالث فنتطرق فيه إلى تصور الشيخ لآثار الإيمان بالوحدانية في الحياة.

---

[1]- القرضاوي، يوسف: **حقيقة التوحيد**، دار البعث، قسنطينة-الجزائر، ص 11.

[2]- النجار: مرجع سابق، ص 117.

[3]- (م.س): ص 118.

المبحث الأول: حقيقة الوحدانية وأركانها عند الشيخ بيوض

أولا/ حقيقة الوحدانية

لم نقف –فيما اطلعنا عليه- على تعريف مشتمل للوحدانية عند الشيخ بيوض؛ ولكن يمكن استخلاص تصوره لحقيقتها من خلال بيانه لوحدة الأمة في قوله تعالى: ﴿إِن هٰذِهِ أُمتكُم, أُمةً واحِدةً وأَنا ربكُم فَاعبدون﴾ [الأنبياء: 92]، حيث قال في صفة الوحدانية: «... لا يجوز أن يكون على الأرض إلا أمة واحدة، لها رب واحد في السماء، رب واحد متفرد بالألوهية والربوبية، متفرد بالديمومة والبقاء، متفرد بالتشريع، له القوة والسلطان، له البدء والإعادة، له الخلق والإفناء، فعال لِما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، هذا هو الإله الواحد، فيجب إذن ألا يكون في الأرض إلا أمة واحدة تدين لله بالخضوع والذلة والعبودية»[1].

كما يمكن استخلاص مفهوم الشيخ للوحدانية من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلُ ادعوا الله أَو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فَلَه الاَسمآءُ الْحسنى﴾ (الإسراء: 110)، فدفْعا لتوهم التعدد في الذات الإلهية، قال الشيخ: «فالله هو الرحمن، والرحمن هو الله ... لأن المدعو واحد لا شريك له، غير متعدد فهو واحد، وذاته كافية في كل شيء، غير مركبة في أجزاء، وليست الصفات أعراضا في ذاته»[2].

انطلاقا من تفسير الشيخ للآيتين؛ نجده يرى أن الوحدانية هي اتصاف الله تعالى بالأحدية والفردية في ذاته التي لا تتجزأ، وفي صفاته وأفعاله، التي لا يشاركه فيها أحد، واتصافه بالفردية في الحكم والعبودية من دون سواه.

ولحقيقة الوحدانية أبعاد ومقتضيات، حتى إنه لا يخلو شيء من تعاليم الإسلام: عقيدة وشريعة، من أن يكون منبنيا على بعد من أبعاد تلك الحقيقة، وهو ما يجب أن تظهر آثاره في سلوك الفرد وا تمع المسلم؛ الذي ينبغي ألا يحيد عنها، انطلاقا من هذا يمكن جمع أبعاد التوحيد في أركان خمسة، -استئناسا بتصنيف عبد ا يد عمر النجار- وهي: وحدانية الذات، وحدانية الصفات، وحدانية الأفعال، وحدانية الحكم، ووحدانية المعبودية[3]، لنرى نظرة الشيخ وتحليله لحقيقة

---

[1]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 201-202.

[2]- **تفسير سورة الإسراء:** 241-242.

[3]- النجار: مرجع سابق، ص 118.

الوحدانية، من خلال تلك الأركان، مع الإشارة إلى أننا لم نجد الشيخ يعتمد تصنيفا معينا لأركان الوحدانية، رغم أن معانيها متضمنة في تفسيره.

ثانيا/ أركان الوحدانية

1/ وحدانية الذات:

«تعني تفرد الله تعالى بالألوهية في ذاته، وانتفاء أي ذات أخرى تشاركه فيها بأي معنى من المعاني، سواء على سبيل الندية والمماثلة، أو على سبيل الوساطة، أو على سبيل الحلول للذّات الإلهية في ذوات أخرى»[1].

والشيخ بيوض لم يعرف وحدانية الذات تعريفا مستقلا، لكنه تطرق إلى هذا الركن؛ من خلال بيانه ضلالَ بعض الأقوام فيه؛ ومنهم النصارى الذين اعتقدوا بآلهة ثلاثة، ونسب إليهم القرآن مقولتهم الباطلة: (إِن اللهَ هو الْمسِيح ابن مريم) (المائدة: 17)، وقولهم: (إِن اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ) (المائدة: 73)، وقولهم أيضا: (الْمسِيح ابن اللهِ) (التوبة: 30)، ومن خلال الآيات التي تذكُر شِرك النصارى -والتي تعرض الشيخ لتفسيرها-، كان يعتبر كفرهم واتخاذهم لله ولدا، أقبح أنواع الشرك وأشنعه[2].

فبمناسبة قوله تعالى: (وما ينبغِي لِلرحمنِ أَنْ يتخِذَ ولَدا) (مريم: 92)، بين الشيخ أنه ليس من شأن الله ولا مقامه وكرامته أن يتخذ ولدا، للمباينة بين ذاته وذات غيره، لأنه تعالى هو الخالق وكل ما سواه مخلوق، ولا نسب ولا اتصال بينه وبين مخلوقاته؛ إلا كونهم مخلوقين له[3].

ويعلل هذه الصفة السلبية –أي التي تسلب عن الله الشركاء بإطلاق ومن جملتهم الولد- ببيانه لغرض الناس من ابتغاء الولد، وانتفاء هذا الغرض عن الله تعالى، فأما الغرض الأول فهو حبهم لبقاء ذِكْرهم والثناء عليهم بعد موتهم، لكن الله تعالى حي دائم لا يموت، ولا حاجة له إلى من يحيِي ذِكْره، وأما الغرض الثاني فهو التقوي والانتفاع بالولد، والله تعالى غني عما سواه، ليس به ضعف فيحتاج إلى من يعضده، وليس به فقر فيحتاج إلى من يغنيه[4].

---

[1]- (م.س): ص 119.

[2]- انظر: **تفسير سورة مريم**: ص 186-187، **تفسير الكهف**: ص 35، 36.

[3]- **تفسير سورة مريم:** ص 188.

[4]- (م.س): ص 190.

كما يعلل الشيخ قبح وشناعة هذا الضرب من الشرك –الزعم باتخاذ الولد- بقُبح مستلزماته، لأن من قال بذلك، فقد أثبت لله صاحبةً، وبالتالي يثْبت له سبب حصول الولد وهو الاتصال الجنسي الكائن بين الزوجين، والذي يستحيي العقلاء من ذكره لما فيه من خِسة ومهانة[1]، فالله تعالى أعظم من أن ينسب إليه شيء من هذه الصفات الدنيئة، التي هي أليق بالكائنات الحية ومعيشتها وتكاثرها.

2/ وحدانية الصفات:

«تعني تفرد الله تعالى وحده بالاتصاف بكل صفات الكمال، دون أن يشاركه فيها مشارك، كما تعني تفرده تعالى باستجماع التنزه عن كل صفات النقص، دون أن يشاركه في ذلك مشارك»[2].

وكثيرا ما يذكر الشيخ بيوض بوحدانية الله في صفاته، عند تفسيره لآيات الصفات، فيبين عدم النسبة بين صفات الخلق وصفات الخالق؛ إلا في الاشتراك اللفظي، دون حقيقة المعاني التي تختلف تمام الاختلاف، فصفات الله قد يوصف بها أناس من البشر؛ «فيقال: فلان رحيم، وفلان جبار، وفلان عزيز، وهذه الصفات إذا أُجرِيت على الله تعالى فهي حقيقية، فهو الرحيم حقا، والجبار حقا، والعزيز حقا، وأما إذ أُجرِيت على غير الله تعالى فهي غير حقيقية، وإنما تدل على شيء بسيط من هذه المعاني؛ لا تقاس ولا توزن بصفات الله تعالى»[3].

وبمناسبة قوله تعالى: (...فَاعبده واصطَبِر لِعِبادتِهِ هلْ تعلَم لَه سمِيا) (مريم: 65)؛ بين الشيخ أن معنى الآية: «هل يوجد لأحد صفات كصفات الله ؟»[4]، وليرسخ الشيخ مفهوم المُباينة بين صفات الخالق والخلق ذكر أمثلة على ذلك، ومنها أن الإنسان يفتخر بصفة المُلك للممتلكات، لكن ملْكه هذا محفوف بالمكاره، لم يكن ثم كان؛ وهو بعد ذلك يؤول إلى الزوال بعد موت صاحبه، أو عند قيام الساعة، فحينها يرجع إلى الله كل ما ملكه لمن شاء من عباده، يوم يقول: (لمنِ الْملْك الْيوم) ؟؛ فيجيب تعالى نفسه بنفسه: (لِلهِ الْواحِدِ الْقَهارِ) (غافر: 16)، وبين الشيخ أنه حينئذ تتحقق

---

[1] - **تفسير سورة الكهف:** ص 36.

[2] - النجار: مرجع سابق، ص 120.

[3] - **تفسير سورة مريم:** ص 152.

[4] - (م.ن).

صفة الوحدانية في المُلك واقعيا، بعد فناء الخلق، كما تحققت في الأزل قبل خلق الخلق، فالله هـو المالك والوارث الحقيقي، وكل شيء منه وإليه، والناس ينسبون الأشياء إلى أنفسهم مجازاً؛ فيقـول أحدهم: هذا لي، وهذا لي[1].

3/ وحدانية الأفعال:

«تعني تفرد الله تعالى بفعل كل ما وقع في الكون، وما يقع فيه حاضرا ومستقبلا، إنشاء وإفناء، وتدبيرا لشؤون كل الموجودات بين نشوئها وفنائها، وأنه ليس أحد غيره يفعل من ذلك شيئا على الحقيقة، بل هو فاعله الحقيقي»[2].

وقد نشأ من تصوره هذه الحقيقة من حقائق الوحدانية؛ بعض الإشـكالات الـواردة علـى الأذهان، كانت محلا للمداولة والمطارحة العلمية بين علماء العقيدة[3]، نورد بعضا منها فيما يلـي من المسائل؛ حتى نتبين رأي الشيخ بيوض فيها.

* المسألة الأولى: السببية الطبيعية

لا يخفى على ذي عقل؛ ملاحظة ما يسير عليه النظام الكوني من نشـوء بعـض الموجـودات والأشياء من بعضها الآخر، حتى وإن لم يسم هذه الظاهرة باسمها: أي قانون العِليـة أو السـببية؛ كنشوء المطر من السحاب، وتولد بعض الكائنات الحية من الاتصال الجنسي بين الذكر والأنثـى، وغير ذلك من ظواهر الكون، والإشكال الوارد على الأذهان هو: أفلا تكون هذه الأشياء المُنشِئة لغيرها، لها أيضا قدرة الفعل، فتشبه بذلك أن تصير مشاركة لله في أفعاله؟[4]، فيجيب الشيخ بيوض على هذا الإشكال أن الله هو الفاعل الحقيقي لكل أحداث الكون، وهو الذي أراد أن يسير الكون بقانون السببية، فقرن الأسباب بالمُسببات، والأسباب التي يزاولها الإنسان –مثلا- لا تـؤدي إلى النتيجة في الحقيقة لكن إرادة الله وقدرته هي التي جعلت الأسباب مفضيةً إلى النتائج، والحكمة التي عللها الشيخ من ذلك هي أن الله أراد أن يعود الإنسان على العمل، فيتجنب الكسل، لطفـا بـه ورحمة[5].

---

[1] - **تفسير سورة مريم:** ص 152، **تفسير سورة الأنبياء:** ص 182-183.

[2] - النجار: مرجع سابق، ص 121.

[3] - (م.ن).

[4] - (م.ن).

[5] - **تفسير سورة الروم**: ص 59.

وقد طرح الشيخ هذه القضية، وهو يصحح مفاهيم حول القضاء والقدر بمناسبة قوله تعالى: (لِلهِ الآمر مِن قَبلُ ومِن بعد) (الروم: 4)، ويبين حقيقة التوكل التي تعني: أنه كل من طلب مطْلبا -كطلب النصر أو العلم أو الربح أو السعادة الأخروية- فعليه بواجبين: الأول عمله الذي كُلِّف به وأسبابه المادية، الثاني الاعتماد على الله واعتقاد أن نجاح العمل ونتيجته من الله وحده[1].

ولتوضيح هذا المعنى، وبيان أن الأسباب الكونية ليست هي الفاعلة في الحقيقة، ولا هي القادرة على الفعل والتصريف، أعطى الشيخ أمثلة واقعية على ذلك، ومن بينها عمل الفلاح وأثره في نبت الزرع أو الغرس؛ فقد يغتر مغتر ويقول: أنا الذي غرست هذه الشجرة، أو زرعت هذا الزرع!، فيجيب الشيخ على من تخيل هو؛ صدور تلك الشبهة منه: أن فعل الإنسان وسببه لا يعد شيئا بالنسبة لفعل الله، فعملنا ينتهي عند حرث الأرض، وبذرها أو غرسها، ثم تسميدها مع دوام السقي[2]؛ «ولكن من الذي يفْلق الحبة ويخرج منها آلاف الشعيرات التي تسري مع العروق لتمتص الماء والغذاء من التربة؟ ومن الذي أخرج منها السنابل التي تمتد سوقها حتى تصل المتر والمترين ؟»[3]، ويتساءل الشيخ: هل في استطاعة البشر، منفردين أو مجتمعين أن ينبتوا شجرةً ؟ «من الذي أخرج النخيل الباسقات، والأشجار العظيمة، الكثيفة الأغصان، من بذور صغيرة ؟»[4]، فلا أحد يستطيع أن يدعي أن مع الله إله أو شيء شاركه في خلْق ما خلَق، وفي فعل أحداث الوجود[5]، (أَ.لَه مع اللهِ بلْ هم قَوم يعدِلُونَ) (النمل: 60).

وتنظيم الله تعالى لكونه؛ وخلْقه على وفق السببية والسنن التي قضى أن لا تتبدل ولا تتغير، لا يعني عجزه تعالى عن خلق شيء أو قانون آخر غير هذه السببية، وهو ما يتحقق في المعجزات المؤيدة للرسل ولرسالاتهم، حيث جعلها الله خوارق للعادات والنواميس المطردة، ليبين تعلق النظام الكوني بالإرادة العليا؛ وأنه تعالى قادر على خرقه متى شاء، وهو المعنى الذي أكد عليه الشيخ مرارا عند تعرضه لتفسير معجزات الأنبياء، حيث يلخصه بقوله: «قدرة الله صالحة لكل

---

[1]- (م.س): ص 60.

[2]- **تفسير سورة النمل**: ص 124، **تفسير سورة الروم**: ص 58.

[3]- (م.ن).

[4]- **تفسير سورة النمل**: ص 123.

[5]- (م.س): ص 124.

شيء»[1].

ومن ذلك مثلا معجزة ميلاد المسيح υ من أم بلا أب، حيث جرى النظام الكوني أن يكـون التوالد في كل شيء بين زوجين: ذكر وأنثى، واطراد هذا النظام قد يوهم بعض النـاس أن الله لا يقدر على غير هذا، «فأراد الله أن يخرق هذه السنة ولو مرة في تاريخ البشرية، فولد مولود مـن أنثى دون ذكر ليكون آية للعالمين، ليبين لهم أنه غير مقيد بهذه السنة، وأنه قادر على ما يشاء متى يشاء بالكيفية التي يشاء»[2].

ومن ذلك أيضا قصة إبراهيم υ، ومعجزة النار حينما ألقاه قومه فيها، حيث جعلها الله له بردا وسلاما؛ (قُلْنا يا نار كُونِي بردا وسلاَما علَىآ إبراهِيم) (الأنبياء: 69)، فبين الشيخ بمناسبة هـذه الآية، أن الله تعالى أبطل سنة من سنن خلقه؛ في كون النار محرقة، فصارت غير محرقة، بل كانـت بردا وسلاما، واعتبر الشيخ البحث في كيفية عدم إحراق النار لإبراهيم، وقصر السبب في احتمالٍ من الاحتمالات؛ جهلٌ بقدرة الله تعالى، وعلل ذلك بأن الذي خلق خاصية الإحراق في النار، قادر على أن يجعلها غير محرقة[3]، «وبذلك يكون الفاعل الحقيقي لكل ما ينشأ في الوجود، إنما هـو الله وحده، الذي إذا ما أراد أن يعطل فعل الأشياء فإنه يسلب عنها الفاعلية، فتمسِك عن التأثير»[4].

* المسألة الثانية: الشرور الكونية

من بين الأحداث الكثيرة التي تحدث في الكون والموجودات العديدة التي تحيى فيه، يبـدو في الظاهر أن بعضها فيه ضرر للإنسان وللبيئة، وذلك مثل الجراثيم والحشـرات السـامة، وكـذا الكوارث والجوائح المختلفة التي تصيب البشر والحيوان، والإشكال المطروح هنا هو: كيف تكون هذه الموجودات والأحداث من فعل الله تعالى، وهي تبدو شرورا ضارة بالإنسان والبيئة؟ وهـل معنى هذا أن الله تعالى يفعل بخلقه الشرور والأضرار؟ أو أنه تعالى تصدر منه القبائح؟[5].

والجواب على هذا السؤال -كما يرى عبد المجيد النجار– هو أن ما يلاحظ فيه الضـرر مـن

---

[1]- انظر: **تفسير سورة مريم:** ص 18، 35، **تفسير سورة طه**: ص 262، **تفسير سورة الأنبياء**: ص85، ص139، ص196، ص198.

[2]- (م.س): ص 197.

[3]- (م.س): ص 84-85.

[4]- النجار: مرجع سابق، ص 122.

[5]- النجار: مرجع سابق، ص 122.

مخلوقات الله وأفعاله؛ فيعتبر شرا، ليس هو كذلك إلا فيما يبدو عليه في الظاهر، إذ أنه عند التأمل الشامل في تلك الأحداث والأفعال؛ والنظر في آثارها القريبة ومآلا ا البعيدة، يتبين أ ا تنطـوي على خير أكبر بكثير من ذلك الشر الذي بدا في ظاهرها، وأن كل الحكمة فيها[1].

وإلى هذا المعنى ذهب الشيخ بيوض في تفسيره، عند تحليله لقصة سيدنا موسى υ مـع العبـد الصالح، الذي قام بأفعال –بأمر من الله تعالى- لم يستطع موسى عليها صبرا لما بدا له فيها من شر وإضرار بالخلق، لكنها تؤول إلى نفعهم وخيرهم، ومن ذلك خرق العبد الصالح للسفينة التي كانت مملوكة لمساكين يعملون ا في البحر، فرأى موسى أن العبد الصالح بدلا من أن يقدم يد العـون لهؤلاء المساكين، أو حتى يمنع عنهم الأذى -وهو أقل ما يجب- إذا به يخـرق السـفينة ليعيبـها، فيتساءل موسى الذي لم يطق صبرا: كيف يقوم العبد الصالح ذا العمل، حتى لا يستطيع المساكين الحصول على رزقهم بواسطة تلك السفينة، وفرق بين سفينة سليمة وأخرى معيبـة؛ في طلـب الرزق[2]، قال تعالى في هذا الشأن: (فَانطَلَقَا حتىآ إِذَا ركِبا فِي السفِينةِ خرقَها قَـالَ أَخرقْتـها لِتغرِق أَهلَها لَقَد جِئْت شيئًا إِمرا قَالَ أَلَم أَقُلْ إِنك لَن تستطِيع مِعي صبرا)(الكهف: 71-72).

وتأويل هذا الفعل –كما بينه العبد الصالح لموسى فيما بعد- هو أنه أراد أن يحدث عيبـا في السفينة، حتى لا يأخذها الملك الذي يؤمم كل سفينة جديدة، فَلَأَنْ تبقى عند أصحا ا مرقعة، خير من أن يستوليَ عليها الملك وهي جديدة[3]، فلا يجدون إلى رزقهم سبيلا، و ذا التأويل تبينت خيرية الفعل الذي قام به العبد الصالح.

والعبرة التي استفادها الشيخ بيوض من هذه الحادثة؛ هي أن ما ي له الله تعالى مـن مصـائب وآفات على الأموال -كسقوط بيت، أو احتراق محل، أو تلف مال-، لعل كلا منها بلاءٌ قد دفَع به بلاءً أكبر منه، كما كان خرق السفينة سببا في نجا ا وحفظها من الغصب[4]، وقد قال تعـالى: (وعسىآ أَن تكْرهواْ شيئًا وهو خير لَكُم) (البقرة: 216)، كما بين الشيخ أن المقصد العملي مـن قصة السفينة؛ هو دفع الناس إلى تقبل كل ما أنزله تعالى من مصائب، وإن لم يدركوا الحكمة فيها،

---

[1]- (م.س):ص 123.

[2]- الشعراوي، محمد متولي: **معجزة القرآن**، إعداد: أحمد زين، شركة الشهاب، الجزائر، ط: 1990، ج 1/ ص 208.

[3]- **تفسير سورة الكهف**: ص 314.

[4]- (م.س): ص 317.

بل وأقل ما يقال فيها: أ ا زيادة في الحسنات، وتكفير للسيئات ورفع للدرجات[1]، ومن لا يبتغي لنفسه هذه الفضائل.

وذات المعنى –تقريبا- استخلصه الشيخ بيوض من الحادِثين الآخرين اللذين قام ـ ـا العبـد الصالح أمام مرأى موسى υ، وهما: قتل الغلام، وإقامة الجدار الذي أوشك على السقوط[2].

وتفسير أفعال الله تعالى في الكون، بالنظرة التفاؤلية التي عرضها الشيخ بيوض في تحليله لقصـة موسى، هو التفسير الذي وجدناه عند الشيخ محمد متولي الشعراوي، عند تحليله لذات القصـة، حين ذكر في ختامها أن المقصد العملي من سوق أحداثها هو أن الله أراد أن يـبين «أن هنـاك كُهوفا في الحياة تواري الحقائق عنا، وأن على الإنسان ألا يغتر بظواهر الأشياء، وأن يعلم أن هناك حقائق مخفية، وليعلم كل إنسان أن كل قَدر قد يقع عليه -ليس له فيه اختيار- فيـه حكمـة، والحكمة ليست دائما ظاهرة»[3].

كل ما سلف هو بالنسبة للأحداث التي يحدثها الله في الكون، فمهما بـدا في ظاهرهـا مـن شرور، لكنها في الحقيقة كلها خير وحكمة، ونفس المعنى فيما يخص الموجودات التي خلِقـت في الحياة، فقد تبين في البحوث التجريبية الحديثة أنه ما من موجود على وجه الأرض؛ إلا وله دور في حفظ التوازن البيئي، مهما رئي عليه من ضرر في الظاهر[4]، فإذا أتينا مثلا إلى عـالم الحشـرات، وجدنا أ ا غالبا ما تصنف «على أ ا نافعة أو ضارة، ولكن هذا التقسيم هامشي، لأن الحشرات تمثل جزءا من شبكة الحياة التي تشتمل على البشر وعلى كل الأحياء الأخرى. تتغذى الحشـرات بنباتات وحيوانات، ولكنها بدورها تكون غذاءً لنباتات وحيوانات أخرى؛ ولذا فهي تساعد على إبقاء التوازن البيئي الدقيق بين الكائنات الحية، من نبات وحيوان على كوكـب الأرض...فـإذا اختفت كل الحشرات من كوكب الأرض، فإن ذلك الكوكب سوف يتغير تماما، ولسوف ينقرض العديد من أنواع النباتات، ولربما لم يستطع البشر البقاء على وجه الأرض»[5]، وهذه بعض الحكمة

---

[1]- (م.س): ص 318.

[2]- انظر: (م.س): ص 318-324.

[3]- الشعراوي: مرجع سابق، ج1/ ص 219.

[4]- النجار: مرجع سابق، ص 123.

[5]- **الموسوعة العربية العالمية**: مرجع سابق، ج 9/ ص 366.

من خلق تلك الكائنات.

4/ وحدانية الحكم:

يعرف عبد ا يد النجار، وحدانية الحكم بقوله: «معناها أن الله تعالى هو وحده الذي يحكـم حياة الناس، ويبين منهاجها فيما ينبغي أن تكون عليه: تصورا لحقيقة الوجود، وسلوكا في نطـاق الفرد وا تمع، وليس لأحد غيره من الخلق أن يأتي بمنهاج من عنده تجري عليه حياة الناس، سواء كان جزئيا أو كليا»[1].

فكيف ينظر الشيخ بيوض إلى هذا الركن من أركان الوحدانية؟ ذلك ما سنتطرق إليه من خلال مسألتين؛ الأولى: في تعريفه لوحدانية الحكم ووجوب الإيمان ا، والثانية: في ذِكْره دواعي توحيد الله في الحكم.

* المسألة الأولى: حقيقة وحدانية الحكم ووجوب الإيمان بها

يبين الشيخ بيوض أن وحدانية الحكم معناها، أن «الله تعالى وحده، الذي يشرع للبشـر مـا يصلحهم، ويبين لهم القواعد والأسس التي يبنون عليها أحكامهم، ويعتمدون عليها في معاملا م، وفي حكم بعضهم بعضا دون تحيز أو انتماء، إذ لابد من سلطة بشرية تفض ال اعـات، وتقـيم الحدود، ولكن وفق نظام الله»[2].

فحكم الله تعالى وشريعته التي أنزلها على البشر لتنظيم حيا م، هي جزء من أفعاله تعالى الـتي يجب توحيده فيها، فلا يتبع إلا شرعه؛ الشامل لكل جوانب الحياة، إما في علاقة الناس بر م وإما في معاملا م الدنيوية، التي أنزل الله في أغلبها قواعد عامة يستنبطون منها أحكاما جزئيـة علـى حسب الظروف .

وقد دخل الشيخ إلى بيان وجوب الإيمان بوحدانية الله في شرعه وحكمه من مداخل متعـددة، فدخله مرة من مدخل الغاية من عبادة الله، وهي طلب رضاه والتقرب إليه، فبين أن «كل عاقـل يستطيع أن يدرك أنه لا يمكن أن يطلب رضى الله إلا بما شرع الله، هو الذي يقـول لعبـاده: إذا أردتم أن أرضى عنكم فافعلوا كذا وكذا، وليس العباد هم الذين يبتكرون بعقولهم ما يرضى بـه

[1]- النجار: مرجع سابق، ص 125-126.

[2]- **تفسير سورة المومنون**: ص 215.

عنهم ر م»[1].

كما دخل الشيخ إلى بيان وجوب الإيمان بوحدانية الحكم؛ من مدخل الإرادة والمشيئة المطلقة لله تعالى، التي هي جزء من وحدانية الأفعال، فبمناسبة قوله تعالى: (وربك يخلُق ما يشآءُ ويختار ما كَانَ لَهم الْخِيرةُ سبحانَ اللهِ وتعالَىا عما يشرِكُونَ) (سورة القصص: 68)، بين الشيخ أنه لما كان الله يخلق ما يشاء، ويختار من خلقه ما يشاء، مما هو في السماوات والأرض من موجودات وأزمنة وأمكنة؛ وذلك كاصطفائه من الملائكة رسلا ومن الناس، وكاختياره من الأمكنة: البيت الحرام، ومن الأزمنة: شهر رمضان ويوم الجمعة، فلما كان الاصطفاء المطلق لله وحده، الذي لا يخضع فيه لاقتراح معين، ولا استشارة وزير، وجب على الناس الخضوع لحكمه وشرعه، وليس لهم حق الاختيار والتفضيل[2]، يقول الشيخ في هذا الشأن –مخاطبا للبشرية جمعاء-: «فلستم أنتم أيها البشر الذين تختارون، إنما الذي يختار هو الله وحده، وهو أعلم حيث يجعل اختياره وحيث يجعل رسالاته، وحيث يجعل سخطه ورضاه وأين يجعل كل شيء، فما أقره وبينه لنا؛ نتقبله، وما لم يبينه لنا ما كان لنا أن نفتري عليه»[3].

والمدخل الآخر الذي دخل منه الشيخ إلى الموضوع، هو شمولية شرع الله وواقعيته، حيث بين أنه لا يوجد في جميع شرائع البشر فوق الأرض، ما يضمن لهم تنظيم حيا م وتحقيق سعاد م في الدنيا –إذ يسود بينهم الأمن والسلام والعدل- وبالمقابل يريهم سبيل السعادة في الآخرة، لا توجد تلك الامتيازات إلا في الإسلام شريعة الله، فانتهى الشيخ إلى أنه إذا ساد في الأرض قانون السماء، سعدت البشرية جمعاء[4].

لم يكتف الشيخ بيوض في إقناع الناس؛ بوجوب الإيمان بوحدانية الله في حكمه ببيان معناها، حتى أخذ يعلل هذه الوحدانية ويوضح دواعي الاحتكام إلى شرع الله، ونبذ ما سواه من شرائع وقوانين، وذلك ما سنتطرق إليه في المسألة الثانية.

* المسألة الثانية: دواعي توحيد الله في حكمه وشرعه

1- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 208.

2- **تفسير سورة القصص**: ص 468-471.

3- (م.س): ص 471.

4- **تفسير سورة المومنون:** ص 215.

يمكن أن نقسم الدواعي التي علل ا الشيخ مبدأ الحاكمية لله إلى اعتبارين:

الاعتبار الأول:

هو الاستشهاد بكمال صفات الخالق عز وجل، فيرى الشيخ أن الله تعالى الخالق لكل شـيء، العالم بالغيب والشهادة، لا ريب أن «يكون شرعه؛ الحق الذي ينير الطريق ويهـدي إلى سـواء الصراط، ولا شيء من شرع الله يمكن أن ينقض، وإنما الذي ينقص هو شرع البشـر، لأ ـم لا يعلمون الغيب، ولأن علمهم مهما اتسع فهو ضيق»[1].

والله تعالى الذي نظم سير هذا الكون بكل أجرامه السماوية والأرضية، تنظيما دقيقا محكما، هو الذي يضع للبشر النظام الذي يحكمون به فيما بينهم، ويقيمون عليه حكوما م ودولهم[2]، «إذن لا يضع نظام الكون إلا خالقُه ومدبره»[3].

وبمناسبة قوله تعالى –مخاطبا نبيه ρ-: (واتبِع ما يوحىآ إليك مِن ربـك إن الله كـانَ بِمـا تعملُونَ خبِيرا) (الأحزاب: 2)؛ بين الشيخ الحكمة من استعمال القرآن كلمة "الرب"؛ بدل كلمة "الله"، فقال: "مِن ربـك "، حيث رأى الشيخ في هذا الاستعمال إشارة إلى الاستدلال بوحدانية الحكم لله تعالى، وتعليل لها بدليل العناية، فالرب الذي خلق الإنسان في مراحل حتى اكتمل خلقه واستوى، والذي وهب له السمع والبصر والفؤاد، والذي ربى جسمه وعقله وزوده بكـل مـا يمكنه من تحمل أعباء التكليف، ذلك هو الرب يربي روحه ونفسه، ويهديه إلى الطريق الموصـل للسعادة الأبدية التي خلق لها[4].

وقد دعا الشيخ –وهو يعالج تلكم القضية- كل عاقل أن يتفكر في شرع الله، ويتأمل في نفسه متسائلا: «من أنا حتى أصل إلى ما أنا عليه، لولا أن الله هو الذي شملني برحمته، وزودني بصـحة بدن، وكمال عقل؛ فالذي رباني ولم يهملني في جسمي؛ أفيمكن أن يضلني عن سـواء السـبيل؟ كلا، إنه لا يشرع لي إلا ما فيه خيري ونفعي وصلاحي، فالطريق الذي شرعه بنفسـه إذن هـو

---

[1]- **تفسير سورة لقمان**: ص 176.

[2]- **تفسير سورة المومنون:** ص 214.

[3]- (م.ن).

[4]- **تفسير سورة الأحزاب**: ص 140.

الطريق الأقوم»[1].

والنتيجة مما سبق هي أن إيمان المؤمن بتفرد خالقه بصفات الكمال؛ يجعله يوقن بتفرده في الحكم والتشريع، ويحمله على اتباعه في دينه، الذي لا يدعو إلا إلى الحق والخير، ولا يوصل إلا إلى السعادة والرضوان.

2/ الاعتبار الثاني:

هو استشهاد الشيخ بصفات النقصان لدى البشر، التي لا تؤهلهم بحال إلى أن يشرعوا لأنفسهم نظاما مطردا شاملا لجزئيات حيا م، بحيث يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة.

وقد وجدنا الشيخ يذكر خمسة صفات بشرية، بين في كل منها قصور البشر وعجزهم عـن أن يستقلوا بتشريع نظام لأنفسهم، ليدلل ا –بطريق غير مباشر- على تفرد الله تعالى بالحكم من دون سائر الخلق.

الصفة الأولى/ ضعف عقل الإنسان

بمناسبة قوله تعالى: (ولَو أنما فِي الأرضِ مِن شجرةٍ أقْلاَم والْبحر يمده مِن بعدِهِ سبعةُ أَبحرٍ مـا نفِدت كَلِمات اللهِ إِن الله عزِيز حكِيم) (لقمان: 27)، وخلال استفاضة الشيخ في بيان سعة ملك الله تعالى وعظمته[2]، تطرق إلى ضلال كثير من الخلق بعياد م لبشر مثلهم، وذلـك باتبـاع آرائهـم وشرائعهم، فأجرى مقارنة –وإن كانت لا تصح، إنما هي لتقريب المفهوم- بين صـفات الخـالق والمخلوق، حتى يدرك من الأحق بأخذ الهدى والرشاد منه: من فاطر السـماوات والأرض الكـبير المتعال، أم ممن لا يوثق به، ولا بما يقول ويقرر ؟[3]؛ وأول صفة ذكرها الشيخ في بيان قصور الإنسان عن التشريع، هو ضعف عقله، إذ أن عقل المرء مهما بلغ، إلا ويمكن أن يكون هناك عقل أكثر منـه، كما أنه عرضة للخطأ باستمرار[4].

الصفة الثانية/ قصور الإنسان عن علم الغيب

طرح الشيخ التساؤل الآتي: «لنفرض أحدا بلغ الدرجة القصوى من العقل والتغلب على الهوى،

1- (م.ن).

2- **تفسير سورة لقمان**: ص 434.

3- (م.س): ص 493.

4- (م.س): ص 494.

فهل يا ترى يعلم الغيب؟ يعلم ماذا سيحدث غدا ؟»[1]، والجواب طبعا لا؛ مصداقا لقوله تعالى: (قُل لا يعلَم من فِي السماواتِ والأرضِ الْغيب إلا الله) (النمل: 65)، وقوله: (وما تدرِي نفْس ماذا تكْسِب غَدا) (لقمان: 34)؛ وقد حلل الشيخ هذا المبدأ: تفرد الله بعلم الغيب، في صورة مثال؛ وهو ما يضعه البشر من القوانين منذ أقدم العصور إلى اليوم، وحالتها من التغير المستمر، لجهلهم بما سيحدث مستقبلا من تطورات الزمان، «فما يقرونه اليوم ويرونه صالحا، ينسخونه بعد يوم أو شهر أو عام أو عامين أو بعد عشرين عاما، وهذا أكبر تقدير»[2].

وقد حلل الشيخ بعض الأمثلة في إجلاء حقيقة جهل الإنسان بالغيب المستقبلي؛ وأثر ذلك في تغير أحكامه، ومن ذلك مثلا، قانون نابوليون الشهير[3] الذي اعتمدته أوربا وغيرها من بلدان العالم، حيث نقل الشيخ قول ذلك الزعيم الفرنسي عن نفسه: «ليس فخري بأربعين معركة انتصرت فيها؛ بأقل من فخري في وضع القانون»[4] -والمعروف بقانون نابوليون-، ثم علق الشيخ على هذا القانون بقوله: «ولكنه كاد أن ينقرض الآن، مع أن العهد قريب، وقد عدلت فيه كثير من مواده مسايرةً لتطور الوقت، وراحوا يرقعونه مادةً مادةً، كمن راح يرقع ثوبا، حتى ذهب الثوب وبقيت الرقع، وإذا كان هذا ما آل إليه هذا القانون؛ فقوانين الدنيا كلها على هذه الشاكلة»[5]، والسبب في ذلك أن المشرعين تبدو لهم بداوات وأمور لم يكونوا يتوقعوها في الحسبان من قبل، سواء في النظام الاقتصادي أو السياسي أو العسكري أو في الأحوال الشخصية، فيضطرون إلى نقض قوانينهم وتعديلها دوما[6].

وينتهي الشيخ بذلك التحليل إلى نتيجة، لخصها في شكل تساؤل وتقرير: «فكيف إذن يوثق بما يضعونه ويشرعونه كقواعد للسلوك يسير عليها البشر طول الدهر؟، ولكن الله تعالى عالم الغيب

---

[1] - (م.س): ص 498.

[2] - (م.س): ص 499.

[3] - نابليون بونابارت، (1769-1821م)، قائد عسكري فرنسي، توج نفسه إمبراطورا لفرنسا، وقد مثّل أشهر عبقرية عسكرية في زمنه، وقد كون إمبراطورية ضمت معظم غربي أوربا ووسطها. وقد أثبت نابليون أنه إداري مدني من الطراز الأول؛ حيث وضع قانون نابليون أو القانون المدني، الذي لايزال يشكّل أساس القانون المدني الفرنسي.

بتصرف عن: **الموسوعة العربية العالمية**، مج25/ص9-10.

[4] - **تفسير سورة لقمان**: ص 499.

[5] - (م.س): ص 499-500.

[6] - (م.س): ص500.

والشهادة يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن»[1].

الصفة الثالثة/ تسلط الهوى على عقل الإنسان

اعتبر الشيخ تسلط الشهوات والأهواء –وهي كل ما تميل إليه النفس وتجد فيه لذ ا- على عقـل الإنسان، من عناصر ضعفه، التي لا تسمح له أن يستقل بالتشريع لحياته، وهذا التسلط للهوى أمر لا يشك فيه أحد؛ حتى يحتاج إلى دليل أو إثبات، إذ أن كل إنسان يحس من نفسه هذا الأمر[2].

واستشهد الشيخ بقوله تعالى: (أَفَرَآيت منِ اتخذَ إِلَهه هواه وأَضله الله علَىا عِلْمٍ) (الجاثية: 23)؛ فبين الشيخ أن الآية جعلت الهوى إلها، حيث كان –هذا الذي تتحدث عنه الآية- يطيع نفسه فيمـا تأمره به، وهو عالم بالحق كما أخبرت الآية (وأَضله الله علَىا عِلْمٍ) ولكنه غلبته شهوته وهواه، فكان يسير بمقتضاها؛ إما في خصوص نفسه أو فيما يشرع لغيره من القوانين[3].

ويعقب الشيخ –وهو يحلل بعض الأمثلة الواقعية- بقوله: «فنفوسنا تغلبنا فنسير في طريق الضلال، ونرتكب أشياء محرمة يقينا، لأننا في ذلك الوقت وضعنا عقولنا جانبا، فأخذت النفس زمام القيـادة من العقل، فأردته في الهاوية»[4].

ومن أجل ذلك جاء القرآن بآيات تنهى عن اتباع الهوى؛ عِقب الأمر بالحكم بما أنزل الله، فقـال تعالى لنبيه ρ: (وأَنُ احكُم بينهم بِمآ أَنزلَ اللهُ ولاَ تـتـبِع اَهوآءَهم واحذَرهم, أَنْ يفْتِنوك عن بعضِ مآ أَنزلَ اللهُ إِلَيك) (المائدة: 49)، وقال الله تعالى لنبيئه داود υ: (ياداوود إِنا جعلْناك خلِيفَـةً فِـي الاَرضِ فَاحكُم بين الناسِ بِالْحق ولاَ تتبِعِ الْهوىا فَيضِلك عن سبِيلِ اللهِ إِن الذِين يضِلونَ عن سـبِيلِ اللهِ لَهم عذَاب شدِيدم بِما نسوا يوم الْحِسابِ) (ص: 26).

والنتيجة التي انتهى إليها الشيخ من التحليل السابق لخصها في تساؤل وتقرير فقال: «متى سـلِم الإنسان من الهوى؛ حتى يكونَ كل ما يشرعه هو الصواب، وهو الحق الذي يتبع ؟ كلا، إنه لم يسلم من هذا، فلا ثقة فيه أبدا، فالقضية لا تحتاج إلى أدلة، وكل واحد دليل نفسه»[5].

---

[1]- (م.ن).

[2]- (م.س): ص 494-495.

[3]- (م.ن).

[4]- (م.س): ص 495.

[5]- (م.س): ص 497.

الصفة الرابعة/ تحسين القبيح بالإلف والعادة

من الطباع السيئة التي بينها الشيخ في الإنسان: تعوده كل الأشياء والأفعال حتى القبيحة منـها، فنتيجةً لاتباع هواه في شيء ما من جهة، وإلْفه لذلك الشيء من جهة أخرى يفْسد عقله في الحكـم على الأشياء؛ إذ يحسن القبيح ويقبح الحسن، وقد «يكره الإنسان شيئا ما لطبع فيه أو لسبب مـا، ولكنه إذا زاوله فإنه يألفُه، حتى يصبح محبوبا لديه، أو العكس كذلك، وهذا طبع البشر في المعنويات والمحسوسات»[1].

ولتوضيح هذا المفهوم أكثر ضرب الشيخ بعض الأمثلة التاريخية والواقعية، ومن بينها ديوثة بعض الرجال الذين يكْرِهون بنا م على البغاء، من أجل الاسترزاق بأبضاعهن، فالغيرة على الشرف -التي هي أغلى ما يملك المرء-، يضحي ا من أجل ثمن بخس أو متاع قليل، وهذا ما يفعله التعود على الإثم عند بعض الناس، حتى ينقلب إثمهم فعلاً حسنا يدمنون عليه، بل وقد بلغت سفالة بعض الآبـاء في الجاهلية إلى أن يأخذ بنفسه بناته إلى دور البغاء، وينتقل ن من مكان إلى مكان يحملهن على جمله، أو يسوق ن في هودجِهن متاجرا بأعراضهن، وكأنهن دكاكين تدر عليه بالأموال الطائلة[2].

ويتساءل الشيخ بعد ذكر هذا المثال: كم هو الفرق بين هذا الذي يأخذ ابنتـه بنفسـه إلى دور الفساد ويمكنها لمن يفْسق ا، وبين من يقتل ابنته –وهي صغيرة- خوفًا من الفضيحة والعـار[3] -- وهو ما كانت تفعله العرب في الجاهلية-، بين من يحافظ على غيرته إلى حد التطرف، وبـين مـن يضيعها إلى حد الانحطاط في دركات البهيمية.

وبعد أن ساق الشيخ طائفة من الأمثلة على قضية تحسين الإنسان للقبيح بحكم الإلف والعـادة، خلُص إلى أن الإنسان «قد يجمع المتناقضات، فقد يسمو إلى أن يصل إلى أفـق الملائكـة والرفيـق الأعلى، أو يتسفل إلى أحطّ من دركة الأنعام»[4]؛ مستشهدا بقوله تعالى في طائفة من البشر: ﴿إِنْ هم, إلا كَالأنعامِ بلْ هم, أَضل سِبيلاً﴾ (الفرقان: 44)، ويؤكد الشيخ النتيجة التي انتهى إليها سابقا بقوله: «وبعد هذا أيمكن أن يوثق في قانون وضعه البشر في السلوك، بدعوى أنه قاله أفلاطـون أوأرسـطو

---

[1]- (م.س): ص 500.

[2]- (م.س): ص 504.

[3]- (م.ن).

[4]- (م.س): ص 514.

...؟ كلا، فلا ثقة في شريعة مطلقا، إلا فيما شرع الله تعالى وحده»[1].

الصفة الخامسة/ الاختلاف بين أفراد البشر

بمناسبة قوله تعالى: (ولَوِ اتبع الْحق أهواۤءَهم لَفَسدتِ السماوات والأرض ومن ِفيهن) (المومنون: 71)، استخلص الشيخ دليلا على إبطال تعدد الإله، وإثبات الوحدانية لله تعالى، وذلك مما يشاهد من الاختلاف بين أفراد البشر في كل شيء، في ألوانهم وأجناسهم، وفي أبدانهم وعقولهم، وفي أهواءهم وأغراضهم، وكل واحد منهم يرى الحق بحسب تفكيره وهواه، وهذا الاختلاف موجود حتى بين الأشقاء والتوائم، وقد نزلوا من صلب واحد، فلو افترضنا أهواء البشر هي المُسيرة للكون، للَزِم أن يتعدد الحق، ولو تعدد الحق لَخرِب الكون[2].

ويزيد الشيخ هذا الطبع البشري، جلاء ووضوحا، فيبين أن هوى النفس ليس مختلفا بحسب الأفراد فحسب، بل حتى الفرد الواحد يختلف أمره بين لحظة وأخرى، إذ تبدو له البداوات والآراء، فيبني اليوم ما يهدمه غداً[3]، ثم يؤكد مرة أخرى النتيجة السابقة بقوله: «فكيف يمكن إذن أن يعهد للبشر، بوضع نظام يصلح لجميع البشر، وهم مختلفون، ينقض بعضهم رأي بعض، وكل واحد يقول: لو كان الأمر بيدي لفعلت كذا أو لحكمت بكذا»[4].

5/ وحدانية المعبودية:

يعرف عبد المجيد النجار وحدانية المعبودية بقوله: «معناها أن الله هو وحده الذي له أن يجعل من الإنسان عبدا له، وليس لأحد غيره أن يفعل ذلك وهو ما يقتضي أن الإنسان ليس له أن يتجه بالعبادة وما تستلزمه من المذلة والخضوع إلا لله وحده، فيتخذه المعبود الأوحد: خضوعا وتسليما بالقلب، وطاعة للأوامر والنواهي، وتقربا بالمناسك، وتوجها إليه بالدعاء»[5].

ثم يعلق الأستاذ بأن هذا الركن من أركان الوحدانية، هو نتيجة مترتبة عن الأركان الأربعة المتقدمة، فلما كان الله تعالى واحدا في ذاته وصفاته وأفعاله وحكمه، فهذا يقتضي أن يكون هو

---

[1]- (م.س): ص 515.

[2]- **تفسير سورة المومنون**: ص 210-211.

[3]- (م.س): ص 212.

[4]- (م.ن).

[5]- النجار: مرجع سابق، ص 127.

الواحد في التوجه والتقرب إليه بالعبادة[1]، وهذه القضية هي التي ركز عليها الشيخ بيوض أكثر في ركن وحدانية المعبودية؛ إذ يجعل الشيخ توحيد العبادة –أو توحيد الألوهية- هي النتيجة الحتمية لتوحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو في ذلك متبع لمنهج القرآن الكريم إذ يخاطب العقول على أنها مفطورة بالاعتراف بالله خالقا ومدبرا للكون؛ ويجعل من هذا الاعتراف مقدمة للوصول إلى وحدانيته في المعبودية والتي أنكرها أكثر الخلق.

من ذلك مثلاً؛ الأسئلة الثلاثة التي أمر الله تعالى نبيه ρ أن يحاور بها المشركين في ما يخص خلق الكون وتدبيره، حيث يقول الله تعالى: (قُل لمنِ الارض ومن فيهآ إن كُنتم تعلَمونَ سيقُولُونَ لِلهِ قُلَ اَفَلاَ تذكرونَ قُلْ من رب السماواتِ السبعِ ورب الْعرشِ الْعظِيمِ سيقُولُونَ لِلهِ قُلَ اَفَلاَ تتقُونَ قُلْ من بيدِهِ ملَكُوت كُل شيءٍ وهو يجِير ولاَ يجار علَيهِ إن كُنتم تعلَمونَ سيقُولُونَ لِلهِ قُلْ فَأَنى تسحرونَ) (المومنون: 84-89).

وفي تفسير الشيخ لهذه الآيات؛ سجلنا له ثلاث نقاط منهجية ذكرها:

* **الأولى**: أن الآيات تشير إلى سخافة عقول المشركين وبلادتها، لتناقض أحوالهم، فهم من جهة يعتقدون شيئا –وهو التصرف المطلق لله في الكون-، ومن جهة أخرى يعتقدون شيئا يناقض العقيدة الأولى –وهو اعتقاد النفع في معبودات أخرى-.

* **الثانية:** أن الله تعالى أجاب بنفسه عن تلك الأسئلة؛ لكن على لسانهم، لأنه يعلم ما في نفوسهم، وألا طريق لهم للجواب إلا ذلك.

* **الثالثة:** أن الله سلك في محاورتهم مسلك التدرج والترقي، فبدأ سؤالَهم بالأرض التي هي من أصغر الأجرام، ثم ارتقى إلى السماوات السبع والعرش العظيم، ثم جاء بكلمة تعم الجميع؛ وهي ملكوت كل شيء[2].

كما ذكر الشيخ حكمة استعمال كلمة الربوبية في الآيات؛ في محل الاستفسار عن صاحب تلك المخلوقات "قل من رب "، وذلك للتنبيه إلى التدبير والتصرف، والقيام بشؤون السماوات والأرض، وإلى الإدارة المحكمة المنظمة التي تسير الكون وتشرف عليه[3]، وقد بين الشيخ الأصل اللغوي لكلمة

---

[1]- (م.ن).

[2]- **تفسير سورة المومنون**: ص 243-245.

[3]- (م.س): ص 245.

"الرب" التي هي «مأخوذة من التربية، ورب الشيء من يقوم بالشيء، يربيه وينميه ويمده بما يحتـاج إليه ...ومربي الخلق هو الذي خلق الخلق، وهو الذي يسيره، ويمده بما يضمن بقاءه، حتى يأتيَ وقت فنائه»[1].

ويعتبر الشيخ تذليل الآيات هي محل الشاهد في الاستدلال على وحدانية المعبوديـة، وفي لفـت العقول إلى الاعتراف ا وهي قوله تعالى: (قُلْ أَفَلاَ تذكرونَ) وقوله: (قُلْ أَفَلاَ تتقُونَ)، ففـي الأولى قال الشيخ على لسان القرآن: «ألا تتعظون وتعتبرون؟! فمن جهة تقولون: إن الأرض ومن فيها لله، ولكنكم من جهة أخرى تلجأون في طلب المنافع وقضاء الحاجات؛ لمن لا يملك الأرض ومن فيها»[2].

وفي تذييل الآية الثانية (قُلْ أَفَلاَ تتقُونَ)، قال الشيخ على لسان القرآن: «ألا تخافون من هذا الذي هو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وتخافون غيره؟! ومما تقتضيه العقـول، أن تكـون الطاعة والرضوخ للقوي، وهل هنالك من تداني عظمته عظمة الله تعالى؟!»[3].

فخلاصة ما مضى أن توحيد الله بالعبادة هي النتيجة الضرورية لتوحيده في الربوبية، كما لخـص الشيخ ذلك في وصفه لله تعالى بقوله: «هو المتفرد بالخلق والرزق، والنفع والضر، فلم يشارك أحـد الله في خلقنا أو رزقنا، ولا في مدنا بالحياة، ولا في إماتتنا، وإذا كان هو الوحيد المتفرد ذا إذن يجب أن يقصد وحده بالعبادة والشكر»[4].

ويعرف الشيخ العبادة وما يلازمها من توحيد بقوله: «هي الخضوع التام المطلق، والقيام بالطقوس المأمور ا في الشريعة؛ قصد وجه الله وحده»[5].

وفي موضع آخر، يعبر الشيخ عن توحيد العبادة بالإسلام لله، وذلك بمناسبة قوله تعـالى: (ومـن يسلِم وجهه إِلَى اللهِ وهو محسِن فَقَدِ استمسك بِالْعروةِ الْوثْقَى) (لقمان: 22)، حيـث يوضـح

---

[1]- (م.ن). « ورب كل شيء، مالكه ومستحِقه أو صاحبه » الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، توزيع: مكتبة النوري - دمشق، د.ت، ج1/ص70. و«الرب يطلق في اللغة على المالك، والسيد، والمدبر، والمُربي، والقَيم، والمُنعم» ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي: **لسان العرب**، دار حياء التراث العربي؛ دار صادر، بيروت –لبنان، د.ت، مج1/ص399.

[2]- **تفسير سورة المومنون:** ص 244.

[3]- تفسير سورة المومنون: ص 245، أنظر في الموضوع أيضا تفسير الشيخ للآيات: 60-64 من سورة النمل، **تفسير سورة النمل**: ص 121-142.

[4]- **تفسير سورة لقمان:** ص 201، أنظر أيضا **تفسير سورة مريم:** ص 93-94.

[5]- **تفسير سورة لقمان**: ص202.

حقيقة الإسلام هذه بقوله: «فالإسلام الحقيقي أن يعطي أحد نفسه لله خالصاً، لا لشخص آخر، حتى إذا تعارضت دعوة الله مع دعوة غيره يعطي نفسه لله، وهنا مظهر الإيمان»[1].

وفي إطار حديث الشيخ عن وحدانية المعبودية، بمناسبة قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان: 13)، دفع توهما قد يلتبس بالأذهان؛ وهو استحقاق الوسائط الظاهرة؛ للعبادة!، فبين الشيخ أن الأسباب والوسائط التي يظهر للإنسان منها خلقُه ورزقُه؛ إنما هي مسخرة بإذن الله، والله هو الذي قضى أن يخلقنا ويرزقنا بواسطة تلك الأسباب –وهي السببية الطبيعية التي ذكرناها سابقا-، ففي خلق الإنسان مثلا، كلف الله الملائكة ببعض الأطوار، ويقوم بالبعض الآخر البشر، كما تقوم الأم بالحمل والوضع والإرضاع، والله يرزق الخلق بعد ذلك بعضهم من بعض، لكن الكل بأمر الله وتيسيره، فهو المستحق للعبادة وحده دون سائر الخلق، وهو المقصود وحده بكل أعمال الخير[2]، يقول الشيخ في هذا الشأن: «وأما أعمال البر المعروفة التي يرجى ثوابها في الآخرة فإنه يقصد بها وجه الله وحده، ولا يقصد غيره أبدا، لا نبي ولا رسول ولا ملَك، فضلاً عن الأم والأستاذ والأخ أو غيرهم»[3].

وفي إطار رفع اللبس عن هذا الركن من أركان الوحدانية، نبه عبد المجيد النجار إلى مسألة غاية في الأهمية؛ لم نجدها لها ذِكْرا في تفسير الشيخ بيوض، وهي ما يبدو من خضوع الناس بعضهم لبعض في حياتهم الاجتماعية، ائتمارا وانتهاءً، وسعيا في قضاء الحاجات، كخضوع الولد لوالديه، وطاعة الرعية لراعيها؛ فهذا الخضوع لا يقدح في الوحدانية بحال، لأنه يندرج في إطار المطلوب الشرعي من طاعة الوالدين وأولي الأمر، فهي إذن خضوع لله وعبادة له؛ مادام ذلك الخضوع جاريا حسب مطلوبه وشرعه[4]، إذ يقول المولى تعالى –مثلا-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (النساء: 59).

---

[1]- (م.س): ص423.

[2]- (م.س): ص 201-202.

[3]- (م.س): ص 201.

[4]- النجار: مرجع سابق، ص 127.

المبحث الثاني: حقيــقة الشّـرك وأقــسامــه عند الشيــخ بيــوض

أولا/ حقيقة الشرك

1/ المفهوم العام للشرك:

أ/ تعريف الشرك لغة:

قال بن منظور في لسان العرب عن تعريف الشرك: «الشرِكة والشرْكة سواء: مخالطة الشريكين، يقال: اشتركنا بمعنى تشاركنا، وقد اشترك الرجلان وتشاركا وشارك أحدهما الآخر ... وفي حديث معاذ: أنه أجاز بين أهل اليمن الشرك أي الاشتراك في الأرض، وهو أن يدفعها صاحبها إلى آخر بالنصف أو الثلث أو نحو ذلك ... وطريق مشترك: يستوي فيه الناس، واسم مشترك: تشترك فيه معانٍ كثيرة كالعين ونحوها فإنه يجمع معاني كثيرة»[1].

وقال الراغب الأصفهاني في تعريف الشرك لغة وفي استعمال القرآن: «الشركة والمُشاركة خلْطُ المِلْكين، وقيل هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدا، عينا كان ذلك الشيء أو معنى كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية ... وروي أن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام: «إني شرفتك وفضلتك على جميع خلقي وأشركْتك في أمري» أي جعلتك بحيث تذكر معي، وأمرت بطاعتك مع طاعتي في نحو: (أطِيعوا الله وأطِيعوا الرسولَ) (النساء: 59)...»[2].

والشركَةُ: حِبالَةُ الصائِد، وتأتي بمعنى معظم الطريق ووسطه، تجمع على "شرك "، كما ذكر الجوهري في الصحاح[3].

ومرجع مادة الشرك إلى الضم والخلط بين شيء وآخر، أو بين أشياء، فإذا كان بمعنى الحِصة من الشيء؛ يكون لواحد وباقية لآخر أو آخرين، فالشريك مخالِطٌ لشريكه، وحصته منضمة لنصيب الآخر، وإذا كان بمعنى الحِبالَة فإن ما يقع فيها من الحيوان، يختلط ا وينضم إلى مِلك الصائد، وإذا كان بمعنى معظم الطريق، فإن أقدام الماشين تختلط آثارها هنالك[4].

وقد بين الشيخ مبارك بن محمد الميلي أن اجتماع الشركاء في شيء لا يقتضي تساوي حصصهم

---

[1]- ابن منظور: مصدر سابق، ج 10/ ص 448-449.

[2]- الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، ص 291. والحديث الذي ذكره لم نعثر عليه فيما بحثنا.

[3]- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: **الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)**، تحقيق: إميل بديع يعقوب ومحمد طريف نبيلي، دار الكتب العلمية (لبنان)، ط 1: 1420 هـ - 1999 ج 4/ ص 372.

[4]- الميلي، مبارك بن محمد: **رسالة الشرك ومظاهره**، نشر: دار البعث، قسنطينة – الجزائر، ص 58.

فيه، ولا يمنع زيادة قسط على آخر، ولهذا يقال: فلان شريك لغيره، في عقار أو في بضاعة، ولـو لم يكن له منها إلا مِعشار العشر، وإذا كان هذا في الحِسيات فهو في المعنويات أيضا؛ فيقال: الأبـوان شريكان في بر ابنهما ما، وإن كان حق الأم في الطاعة أعظم[1].

ب/ تعريف الشرك شرعا:

بعد القيام باستقراء عدد من المصادر في العقيدة والتفسير، بحثا عن مفهوم الشرك شرعا، لاحظنـا أ ا تركز –غالبا- على تصنيف الشرك إلى أقسام، وتعريفها بالتمثيل، أكثر من اهتمامها بالحقيقـة الشرعية الشاملة للشرك[2].

فمثلا نجد الراغب الأصفهاني؛ بعد أن يذكر التعريف اللغوي للشرك؛ يشرع مباشرة في تقسـيم الشرك –من الناحية الشرعية- إلى ضربين؛ فيقول: «أحدهما الشرك العظيم وهو إثبات شـريك لله تعالى، يقال أشرك فلان بالله وذلك أعظم كفر، قال [الله تعالى]: (إِن الله لاَ يغفِر أَنْ يشـركَ بِـهِ) (النساء: 48 و116) ... والثاني: الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق المشار إليه بقوله: (شِركَا فِيمآ ءَاتاهما فَتعالَى الله عما يشرِكُونَ) (الأعراف: 190)، (ومـا يومِن أَكْثَرهم بِاللهِ إِلا وهم مشرِكُونَ) (يوسف: 106) ...»[3]

ويقول الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش في تعريف الشرك بأنه: «جحود الله، أو كتاب من كتبه، أو نبي من أنبيائه أو صفة من صفاته أو بعض كتاب، وتسوية غيره به في شيء أو الشك في نحو الجنة والنار أو نبي أو ملك أو كتاب بعد علمه»[4].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا في تعريف قسمي الشرك –في تفسير المنار-: «قد بينا في مواضع كثيرة من التفسير حقيقة الشرك في الألوهية وهو الشعور بسلطة وتـأثير وراء الأسـباب والسـنن الكونية، لغير الله تعالى، وكل قول وعمل ينشأ عن ذلك الشعور، والشرك في الربوبية وهو الأخـذ

---

[1]- مبارك الميلي: مرجع سابق، ص 58.

[2]- انظر مثلا: بن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، د.م، د.ت، مج1/ص91. وسليمان بن عبد الله: **تيسير العزيز الحميد** في **شرح كتاب التوحيد**، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ت، ص27-29.

[3]- الراغب الأصفهاني: مصدر سابق، ص 291-292.

[4]- اطفيش: **شامل الأصل والفرع**، ج1/ ص 25.

بشيء من أحكام الدين والحلال والحرام عن بعض البشر دون الوحي»[1].

نلاحظ من خلال التعريفات السابقة؛ اختلافها في بيان أنواع الشرك، بحسب الاعتبارات، من دون أن نجد بينها ضابطا محددا وموحداً في تعريف الشرك باعتباره حقيقة كلية، وإذا كان الأمر كذلك، فهل حدد الشيخ بيوض في تفسيره تعريفا شاملا للقضية؟ أم كان متِبعا لغيره في التركيز على التقسيم ؟.

2/ مفهوم الشرك عند الشيخ بيوض:

من خلال ما اطلعنا عليه من تفسير الشيخ بيوض؛ لم نقف على تعريف دقيق ومستقل لحقيقة الشرك عموما، بل وجدنا الشيخ –مثل من سبقه- يهتم أكثر بأقسام الشرك والتمثيل لها. ومن خلال عرضه لمظاهر الشرك السائدة في مجتمعه آنذاك: تحليلا واقتراحا وعلاجا، يمكن أن نضبط تصوره للشرك بالله تعالى في أنه: نسبة شيء من التصرف الغيبي في الكون لغير الله مع الله، اعتقادا في قوته على جلب النفع ودفع الضر، والاستعانة به فيما هو وراء الأسباب الكونية، أو طاعته في ما يدعو إليه طاعة عمياء؛ دون تقيد بالشرع[2].

وهذا التصور لحقيقة الشرك عند الشيخ بيوض، سيتضح أكثر –إن شاء الله- عند تعرضنا لأقسام الشرك وصوره عند الشيخ.

أما التعريف الذي ذكره الشيخ بيوض للشرك –وقد ذكر فيه أقسامه لا حقيقته- فقال فيه: «الشرك هو الكفر بالله، وله أنواع كثيرة: منها الظاهر ومنها الخفي، ومنها الشرك الذي هو إنكار وجود الله تماما، أو التقرب إليه بعبادة غيره من مخلوقاته»[3].

ولعل الضابط العام الذي يضبط مفهوم الشرك، هو اتخاذ المرء شريكا لله؛ فيما هو من خالص حقه سبحانه وتعالى، كما ذكر ذلك الشيخ يوسف القرضاوي حين قال عن الشرك: «أن يجعل المرء لله شريكا فيما هو من خالص حقه سبحانه، كأن يتخذ مع الله إلها أو آلهة، يعبدها أو يطيعها أو يستعين

---

[1]- محمد رشيد رضا: مصدر سابق، ج 5/ص 148، أنظر أيضا: اطفيش: **شرح عقيدة التوحيد**، ص470، الغزالي محمد: **عقيدة المسلم**، دار الشهاب، باتنة-الجزائر، ط: 1985، ص63، الجيطالي: مصدر سابق، ج1/ص34-35.

[2]- استخلصنا هذا المفهوم من عدة مواضع من تفسير الشيخ، انظر مثلا: **تفسير سورة الكهف**: ص 35-36، ص 224، **تفسير سورة الحج**: ص 424، **تفسير سورة المومنون**: ص 286-288.

[3]- **تفسير سورة لقمان**: ص 170.

ا أو يحبها أو نحو ذلك مما لا يستحقه إلا الله جل شأنه»[1]، هذا التعريف يعبر بدقة عن المفهوم الشامل للشرك، ونلاحظ توافقه في المعنى مع تصور الشيخ بيوض، وإن كانت عبارة الشيخ بيوض أقل تحديدا وشمولا للموضوع.

فكل تعلقٍ للإنسان بغير الله أكثر من تعلقه بالله، أو تقربٍ إليه مع الله أو من دونه، هو شرك مهما تعددت صوره وأشكاله[2]، هذا هو الضابط الذي نراه مناسبا في بيان حقيقة الشرك، وعلى ضوئه يمكن فهم أقسامه وتحليل صوره.

ثانيا/ أقسام الشرك وصوره

يقسم الشيخ بيوض الشرك بالله تعالى، إلى قسمين رئيسين: شرك الجحود وهو الكفر بالله تعالى أي إنكار وجوده. وشرك التسوية؛ أي تسوية غيره به تعالى[3]، وقد كان الشيخ في هذا التقسيم متأثرا بمذهبه، حيث يقسم الإباضية الشرك إلى هذين النوعين، يقول الشيخ اسماعيل الجيطالي: «فالشرك إذًا على وجهين: جحود ومساواة»[4]، ونجد هذا التقسيم متضمنا في تعريف الشيخ اطفيش للشرك بأنه: «جحود الله، أو كتاب من كتبه، أو نبي من أنبيائه، أو صفة من صفاته، أو بعض كتاب، وتسوية غيره به في شيء ...» [5].

ونتساءل بعد هذا التقسيم: ما مدى صحته ؟ هل شرك الجحود هو جزء من الشرك ؟ وهل مصطلح الكفر بالله؛ أي إنكار وجوده؛ مرادف لمصطلح الشرك بالله ؟

لقد بين اللغوي أبو هلال العسكري أن الشرك جزء من الكفر وليس العكس؛ حين عرف مفهوم الكفر بقوله: «الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب، فمنها الشرك بالله ومنها الجَحد للنبوة، ومنها استحلال ما حرم الله، وهو راجع إلى جحد النبوة وغير ذلك مما يطول الكلام فيه، وأصله التغطية»[6].

1- القرضاوي: **حقيقة التوحيد**، ص 58.

2- الغزالي: **عقيدة المسلم**، ص 63-64.

3- **تفسير سورة لقمان:** ص 170-171.

4- الجيطالي: مصدر سابق، ج1/ص34.

5- اطفيش: **شامل الأصل والفرع**، ج1/ص25.

6- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل: **الفروق** في **اللغة**، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1: 1422 هـ/ 2002م، ص 400-401.

وفي موضع آخر من كتابه: الفروق في اللغة؛ ذكر الفرق بين الكفر والشرك فقال: «... أن الكفر خصالٌ كثيرة على ما ذكرنا، وكل خصلة منها تضاد خصلة من الإيمان، لأن العبد إذا فعل خصلة من الكفر فقد ضيع خصلة من الإيمان.

والشرك خصلة واحدة، وهو إيجاد آلهة مع الله، أو دون الله، واشتقاقه ينبئ عن هذا المعنى، ثم كَثُر حتى قيل لكل كفر شرك على وجه التعظيم له، والمبالغة في صفته، وأصله كفر النعمة، ونقيضه الشكر، ونقيض الكفر بالله الإيمان.

وإنما قيل لمُضيع الإيمان كافر لتضييعه حقوق الله تعالى وما يجب عليه من شكر نعمه، فهو بمنزلة الكافر لها.

ونقيض الشرك في الحقيقة الإخلاص، ثم لما استعمل في كل كفر صار نقيضه الإيمان»[1].

من خلال تلك التفرقة بين مصطلحي الكفر والشرك؛ المُبنية على التأصيل اللغوي والشرعي، نجد أن المفهوم الحقيقي للشرك شيء، والاستعمال الشائع له شيء آخر، فحقيقته هي إيجاد آلهة مع الله أو دونه، ونقيضه الإخلاص لله أو توحيد الله، بينما يطلق الشرك ويستعمل في كل كفر وجحود لما عُلِم من الدين بالضرورة؛ ولما كان الأمر كذلك صار يطلق على نقيض الشرك؛ الايمان، كما نخلُص –من خلال التفرقة- إلى أن بين الشرك والكفر عموم وخصوص، فلما كان الشرك جزء وقسم من أقسام الكفر، كان كل شرك بالله كفر، وليس كل كفر شرك بالله تعالى.

ولعل الشيخ بيوض –رحمه الله- ممن تأثر بالاستعمال الشائع للشرك، فأدخل ضمن أقسامه إنكار وجود الله أو ما يعبر عنه بالإلحاد، وقد استدل لرأيه بالتعبير القرآني؛ حيث ذكر أن الله تعالى عبر بالشرك عن الكفر به، وبأنبيائه وبالوحي، وبيوم القيامة والحساب والعقاب، إلا أن الشيخ لم يسرد دليلا قرآنيا على ما ذهب إليه، وأكثر من هذا، فإن أغلب الآيات التي أوردها في موضوع الشرك تتحدث عن الذين يعترفون بوجود الله، لكنهم يتخذون له شريكًا[2].

فمِما سبق ننتهي إلى أن موضوع الإلحاد أو جحود الله تعالى؛ كان ينبغي أن يدرج ويدرس ضمن أقسام الكفر، لا مع أقسام الشرك، وحيث أن الشيخ قد جعله من أقسام الشرك فلا بأس أن نرى نظرة الشيخ إلى الإلحاد، ونحن ندرس موضوع الشرك –ككل- عنده، متتبعين في ذلك تقسيمه.

---

[1]- أبو هلال العسكري: مصدر سابق، ص 404.

[2]- (م.ن).

القسم الأول: شرك الجحود (الإلحاد)

لقد تطرق الشيخ بيوض في تفسيره بتوسع إلى قضية الإلحاد، لكنه ركز فيها أكثر على انتشارها في البلاد الإسلامية؛ وبين أسبابها وعلاجها، وقبل ذلك لنا أن نتساءل عن انتشار الإلحاد في العالم عموما؛ ما هو تاريخه ؟ وكيف كان ذلك ؟

جاء في الموسوعة العربية العالمية أن الإلحاد «انتشر خلال القرون الثلاثة الأخيرة (الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين)، وجاء نتيجة للصراع بين العلم والكنيسة في أوربا، ذلك الصراع الذي انتهى بانتصار العلم، وانهزام دعاة الكنيسة، وقد اتخذ مفكرو تلك الفترة هذا الموقف ذريعةً لرفض الدين جملةً وإنكار حقائقه وعلى رأسها الإيمان بالله. وقد انتشرت هذه الظاهرة (ظاهرة الإلحاد) انتشارا واسعا في الدول الأوربية بصفة خاصة، وأصبحت له في بعض البلاد حكومات تحرسه ودول تحميه، وهو يتسلح ببعض النظريات العلمية المادية لتؤيده»[1].

وقد اعتبرت الموسوعة؛ ظاهرة العلمانية جزءا من التيار الإلحادي بمفهومه العام، وبالرغم من ارتباط العلمانية بفصل الدين عن الدولة؛ فإنّ لها دلالات أخرى متصلة بذلك الفصل –لا تقل أهمية في الفكر الغربي المعاصر– فهي تدل عند كثير من المفكرين على نزع القداسة عن العالم بتحويل الاهتمام من الدين –بما يتضمنه من إيمان بإله وبروح وبعالم أخروي- إلى الانشغال بهذا العالم المحسوس وغير المقدس[2].

وقد حذّر الشيخ بيوض في تفسيره الشباب المسلم من مغبة الوقوع في شِراك العلمانية –وإن لم يصرح باسم هذه الظاهرة-، لقيامها أساسا على الإلحاد وإنكار الدين والاقتصار على العلم المادي التجريبي، فبمناسبة قوله تعالى: (يعلمونَ ظَاهِرا من الْحياةِ الدنيا وهم عنِ الآخِرةِ هم غَافِلُونَ) (الروم: 7)، بين الشيخ نوعا من أنواع الشرك بالله تعالى، وهو اغترار الناس بالعلم الذي أوتوه في مختلف الميادين، وإنكارهم لله تعالى وكتبه ورسله[3]، حتى قال فيهم تعالى: (فَلَما جاءتهم رسلُهم بِالْبينات فَرِحوا بِما عِندهم من الْعِلْمِ وحاق بِهم ما كَانوا بِهِ يستهزِئُون) (غافر: 83)، وهي الآية التي سجل الشيخ عجبه الشديد منها كلما تلاها، ذلك لانطباقها على الزمان الذي يعيشه هو؛

[1] - **الموسوعة العربية العالمية**: ج 2/ ص 528.

[2] - (م.ن).

[3] - **تفسير سورة الروم**: ص 68.

والواقع الذي يحياه، رغم نزولها أولَ الأمر على النبي ρ منذ أربعة عشر قرنا؛ وسر الانطباق هو تحول العلم في هذا العصر إلى معبود للبشر وإله لهم، وهكذا يسقِط الشيخ النص القرآني على الواقع، فيجد الملاحدة والشباب المتعلم على أيديهم يغترون بما عندهم من العلم، إذ تعلموا علـم الـذرة وعلـم الإلكترون وغيرها من العلوم، فأوصلَ الاغترار بالعلم كثيرا منهم إلى التطاول على الله والكفر به[1].

ويضرب الشيخ لمستمعيه مثالا حيا لفكرته، وهو رائد الفضاء السوفياتي الملحد: يوري غاغارين؛ الذي مات في حادث تحطم طائرته قرب موسكو في 1968/03/27، وهو اليوم الذي كان فيه الشيخ بيوض يفسر قوله تعالى: (يعلَمونَ ظَاهِرا من الْحياةِ الدنيا وهم عنِ الآخِرةِ هم غَافِلُونَ) (الروم: 7)، و ـذا المثال تظهر براعة الربط بين القرآن والواقع عند الشيخ -رحمه الله-، وبداية نوه الشيخ بعلـم ذلك الرائد المُلحِد وشجاعته، فهو أول رائد فضاء يطوف حول الأرض على متن مركبته الفضـائية، واستغرقت الرحلة ساعة وبضع دقائق، وذكر الشيخ أن هذا الحادث خلده وجعله من أبطال العـالم. وبعد أن مات في ذلك اليوم في عِز مجده، والعالمَ يعلق عليه آمالا كبيرة، يتساءل الشيخ: ماذا كـان يغنيه علمه وطيرانه وشهرته؛ إذا ذهب إلى ربه وهو ساخط عنه لكفره ؟[2].

وقد تمنى الشيخ أن لو جمع ذلك الملحد -إلى علمه وشجاعته في الطيران –الإيمان بالله تعالى؛ ولو كان كذلك لحاز على الحُسنيين –كما قال- ثم سجل الشيخ أسفه وهو ينقل المقولة الإلحادية لذلك الطيار[3]، حيث عقب الشيخ: «... ولكنه لما طار إلى السماء قال: صعدت إلى السماء وطفت حول الأرض، أبحث عن الله فلم أجده»[4].

بعد ذلك أخذ الشيخ يحمل مستمعيه على التعجب والاستنكار على اغترار الطيار، بافتراض الشيخ نفسه يخاطب الطيار مباشرة، بمسمع من الحاضرين لدرس التفسير فيقول له –بأسلوب ـكمي-:

«فأنت طُفْت ـذه الذرة الصغيرة تبحث عن الله فلم تجده، فهلا صعدت يا هذا إلى الشمس والعرش والكرسي إن استطعت، بل اصعد إلى سدرة المنتهى التي عرج إليها النبي ρ ... فيا هذا إن الله الذي

---

[1]- **تفسير سورة الروم**: ص 67-68.

[2]- **تفسير سورة الروم**: ص 69-70.

[3]- (م.س): ص 70.

[4]- (م.ن).

صعدت إليه تبحث عنه ها قد قتلك بالذي صعدت به، إنه يترصدك ليلْقيك في النار»[1].

ﺬا الأسلوب الذي خاطب به الشيخ الملحد، و ﺬا المثال الواقعي الذي ســاقه، أراد أن يحــذّر الشباب المثقف من الطغيان والكفر بالله بسبب الغرور بالعلم، وهم لا يعلمون إلا ظاهرا من الحيــاة الدنيا[2].

والظاهرة الأخرى التي تعتبر جزءًا هاما من التيار الإلحادي العام؛ هي ظاهرة الشيوعية التي انتشرت في الدول العربية والإسلامية؛ بعد استقلالها من الدول الاستعمارية الغربية خلال النصف الثاني مــن القرن العشرين، وقد تطرق الشيخ بيوض في مواضع من تفسيره، إلى تلك الظاهرة وبغــرض تنبيــه الشباب الجزائري المثقف –آنذاك- والمتأثر ا، من خطورة توجهها الفكري والعقدي، وانعكاســه على الأوضاع الاجتماعية.

والشيوعية في أصلها نظام اجتماعي واقتصادي، «تكون فيه الملكية –وخاصة ملكية الأراضــي ووسائل الإنتاج- في يد ا تمع بأكمله، والشيوعية ﺬا المعنى قديمة قِدم ا تمــع نفســه ... أمــا الشيوعية كما تعرف اليوم، فقد ظهرت بظهور البيان الشيوعي الذائع الصيت 1848م، الذي كتبــه كارل ماركس وفريدرك إنجلز الألمانيان، وانتشرت الشيوعية الماركسية بتأســيس الدوليــة الأولى وظهور الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في أوربا ...» [3].

وقد قام صراع كبير –خلال القرن العشرين- بين النظام الاشتراكي الشيوعي الذي تبناه المعسكر الشرقي "الاتحاد السوفياتي وحلفاؤه"، وبين النظام الرأسمالي الذي تبناه المعسكر الغــربي "الولايــات المتحدة ودول أوربا الغربية"، تجسد هذا الصراع خاصة في الحربين العالميتين، ثم تحول إلى حرب باردة انتهت بعد ذلك إلى سيطرة النظام الرأسمالي على موازين القوى العالمية وسقوط النظام الشيوعي الذي انحسر في بعض الدول كالصين وفيتنام ... وفي بعض الأحزاب السياسية، وذلك في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن الماضي[4].

هذا عن الجانب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للشيوعية؛ فماذا عــن جانبــها الفكــري

1- (م.س): ص 71.

2- (م.ن).

3- **الموسوعة العربية الميسرة**: مج 3/ ص 1503-1504.

4- انظر: (م.ن).

والعقدي؟. للشيوعية تصور مادي بحت للألوهية والكون والإنسان؛ فأصحا ا «يسمون نظريتـهم العامة" المادية الجدلية "ويسمون تفسيرهم للتاريخ "التفسير المادي للتـاريخ" »[1]؛ ويعتـبر كـارل ماركس –أحد روادها- «أن تطور الحياة البشرية كتطور الحياة الطبيعية يتم بآلية حتميـة، وكـان يعتقد أن عقل الإنسان نفسه هو مجرد انعكاس للمادة، وليس للحياة الإنسانية أسـاس روحـي أو ميتافيزيقي ... لذلك كانت النظرية ترفض الأديان جميعا وتصنفها كأفيون للشعوب»[2].

هكذا نجد أن الشيوعية ترتكز أساسا على الخصومة والعداء للدين، لإنكارها أساس الدين وهـو الايمان بالله وبالغيب، «فلقد أصبح من المعروف لدى السواد الأعظم من الناس على مختلف ثقافا م؛ أن عبارة كارل ماركس التي يقول فيها (لا إله والحياة مادة) هي التعبير الصريح والموجز، عن موقف الشيوعية من الدين»[3].

لأجل هذا الأساس الإلحادي الذي تنبني عليه الشيوعية، أولى الشيخ بيوض عناية بالحديث عنها؛ وتنبيه الشباب المُثقف –خاصة- إلى خطور ا، فبمناسبة قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وهو يعِظُه يا بـني لاَ تشرِك ِباللهِ ِإن الشرك لَظُلْم عظِيم) (لقمان: 13)، بين الشيخ أهميـة الحـديث عـن موضوع الشرك وأنواعه بما فيها الإلحاد؛ حيث أنكر شبهةً قد ترِد إلى الأذهان بقوله: «فلا يقـولن أحد: إننا مجتمع إسلامي، مر عليه ألف وأربعمائة سنة، وكلنا منحدرون من آباء مسلمين وأمهـات مسلمات، والإسلام راسخ فينا، لا حاجة بنا أن نتكلم عن الإيمان، وإلى أن يوصي بعضنا بعضا بعدم الإشراك بالله، وأن لا نتكلم إلا عن بعض أنواع الشرك الخفي، كالرياء ...» [4].

أراد الشيخ بذلك أن يلفت حضوره إلى خطر التحديات الفكرية والعقدية التي تواجه المسلمين في كل عصر وفي كل بيئة؛ لاستمرارية الصراع بين الحق والباطل مدى الحياة الدنيا، وإن اتخذَ الباطـل صورا شتى وأشكالاً عِدة.

فبين الشيخ أن ا تمع في حاجة إلى تبصيره بنوعي الشرك معا –حسب التقسيم الذي اعتمده هو- الأول: إنكار الألوهية ،والثاني: اتخاذ الشريك لله تعالى، ذلك لأن ما كان الناس يظنونه بعيدا أصـبح

1- محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة،** دار الشروق –بيروت، ط 8: 1414/1993، ص 260.

2- **الموسوعة العربية العالمية**: ج 14/ ص 320.

3- دندل جبر: **الشيوعية منشأ ومسلكًا،** شركة الشهاب الجزائر، د.ت، ص 189.

4- **تفسير سورة لقمان:** ص 174.

واقعا معاشا، وهو انتشار المذهب الشيوعي الإلحادي؛ الذي كان يعتنقه –في عهد الشيخ- الملايين من البشر، وأصحاب هذا المذهب يروجون له بقوة وبكل وسيلة، حتى يعم العالم كله[1] -حسب طموحهم وتخطيطهم في ذلك العهد-.

ثم أخذ الشيخ يحلل بعد ذلك الهدف الذي تهدف إليه الشيوعية، وهو أن تزيل من القلوب التقديس لأي شيء؛ إلا للدولة الحاكمة أو للحزب الحاكم، ما دامت نفس الإنسان لا يمكن أن يجتمع فيها تقديس لشيئين في آن واحد[2]، أما المسلك الذي سلكه أرباب الشيوعية لتحقيق هدفهم فهو العمل على غسل القلوب من الدين ومن تقديس الله تعالى، وإزالة ما يسمونه بـ "خرافة الله"[3] منها، حتى تصفُو لهم، فلا يقَدس الفرد إلا رئيسه أو الحزب الذي يحكمه، فيحلل له ويحرم، ويأمره وينهاه بما يشاء، وذلك عن طريق نشر الإلحاد والإقناع به، ثم بين الشيخ أن هذا المسلك هو مسلك الطغاة في كل عصر، يحملون رعاياهم على اتباعهم في ما يشرعون، ويتخذونهم عبيدا لهم، بعد أن يفرغوا القلوب من قداسة الله[4].

أما سبب انتشار الإلحاد أو إنكار وجود الله في البلاد الإسلامية –في عهد الشيخ- لدى شريحة الشباب المثقف والأجيال الصاعدة، فيوعِزه الشيخ إلى عاملين:

* العامل الأول/ عدم رسوخ العقيدة في قلوب كثير من الشباب المسلم

والذي تلقّى الإيمان عن تقليد، فكانت النتيجة: شك وتذبذب وضعف في إيمانهم، ووجودهم في وسط مؤمن؛ جعل من الصعب عليهم الجهر بالكفر صراحة[5].

* العامل الثاني/ تأثر الشباب بالوسط الدراسي

لقد عاصر النصف الأخير لتفسير الشيخ بيوض، فترة استقلال الجزائر عن المستعمر الفرنسي؛ أي من سنة 1962 إلى سنة 1980م، وهي فترة متميزة عرفت الجزائر خلالها، إعادة بناء هياكل الدولة

---

[1]- (م.س): ص 174-175، وانظر أيضا: **الموسوعة العربية المُيسرة**، مج 3/ ص 1504.

[2]- **تفسير سورة لقمان**: ص 175، وانظر أيضا: محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**، 440.

[3]- قال لينين عام 1913: "ليس صحيحا أن الله هو الذي ينظم الأكوان، إنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه، ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز" نقلا عن: دندل جبر: **الشيوعية منشأ ومسلكا**، ص 189.

[4]- **تفسير سورة لقمان**: ص 175-176.

[5]- **تفسير سورة الكهف**: ص 424-425.

ومؤسسا ا القاعدية، ومن بينها المؤسسات التعليمية بكل أطوارها، والتي استقطبت إطارات مثقفـة من داخل الجزائر وخارجها، وكثير من هذه الإطارات تأثرت بالفكر الشيوعي الإلحـادي السـائد آنذاك، وأثّرت في الوسط التعليمي التي كانت موجودة فيه. ولذلك اعتـبر الشـيخ بيـوض هـذه الإطارات، أو الأساتذة عاملا مهما في نشر الإلحاد في وسط شريحة الشباب الناشئ الـذي يتلقّـى التعليم في مختلف المدارس، وهو لمّا يرسخ الإيمان في قلبه، حيث ذكر الشيخ أن العصر الراهن –وهو عصره - تميز بانتشار الإلحاد بين معلمي المدارس في مشارق الأرض ومغار ا، ثم وصفهم بأن أكثرهم يعتزونَ بعقولهم ومعارفهم، ويحملون أفكارا سيئة وضالة ضد الدين؛ ينفُثو ا في قلوب الناشئة التي لا تزال قلو ا صفحات بيضاء، وأكثر من ذلك يسخرون دوما من الدين وأهله[1].

ثم أشار الشيخ أن موجة الإلحاد هذه، في الأوساط التعليمية ليست جديدة، بل لقد كان المعلمون في عهد الدولة الاستعمارية يدخِلون في أفكار الشباب؛ الطعن والسخرية من النبي ρ ونعتِـهِ بأقْبح الأوصاف، ثم تطور ذلك الطعن في هذا العصر أكثر –وهو عصر الشيخ- إذ صار موجهـا إلى الله تعالى، وإن كان هذا الطعن ليس في إطار برامج التعليم، إلا أنه من تطوعات المعلمين الملاحـدة، وذلك ما غدا شائعا في مختلف مراحل التعليم الثانوي والجامعي، وفي أقسام الفلسفة بصفة خاصـة، وبتلك الطريقة كفر الملايين من الشباب المسلم. وذكر الشيخ أن العدوى لا تزال تنتشر لأ ا وجدت في النفوس هوى إليها[2]، «لأن الذي تصلّي له أو تصوم لا وجود له، وأن الآخرة التي تدفع إلى الصلاة والصيام لا وجود لها»[3]، هذا هو اعتقادهم الذي أُغْروا به.

أما العلاج لقضية انتشار الإلحاد، فيكون الوصول إليه سهلا إذا عرِفَت الأسباب والعوامل، وهـو البدء بما بدأت به الرسل من «الدعوة إلى الإيمان وتقريره في القلوب من جديد، وتحصين القلوب من أن يتطرق إليها شك؛ يتحول بعد ذلك إلى إلحاد صريح»[4]، وقد ذكر الشيخ هذا العلاج وهو يفسر وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وهو يعِظُه يا بـني لاَ تشرِك بِاللهِ إِن الشرك لَظُلْم عظِيم) (لقمان: 13)، وقد استنتج الشيخ من الآية أهمية وضرورة تربية الأولاد وتوصيتهم بعدم

1- **تفسير سورة لقمان**: ص 185-186.

2- (م.س): ص 186.

3- (م.ن).

4- (م.س): ص 177.

الشرك رغم كونهم مسلمين، ذلك أن والد لقمان –كما ذكر الشيخ- يعلم أن المشركين يحيطون بابنه من كل جهة، والأسباب الداعية إلى الإلحاد كثيرة، فأوصاه بما أوصاه، ثم انتهى الشيخ إلى أن أبناء هذا العصر هم في حاجة أيضا إلى الإيصاء بعدم الشرك حتى لا تتأثر قلوبهم بالعوارض الآتية من كل جهة[1].

وفي موضع آخر دعا الشيخ إلى قيام نهضة كبيرة لتثقيف الشباب المسلم، وتثبيت أصول الدين في نفسه[2]، وهذه دعوى معقولة جدا، إلا أننا –فيما اطلعنا عليه من تفسير الشيخ- لم نجده يوضح شيئًا ما؛ منهج قيام هذه النهضة، أو يعرض خطةً لتثبيت العقيدة في قلوب هؤلاء الشباب، بحيث تنطلق من معطيات عصره، رغم اهتمامه الكبير –رحمه الله- بالجانب التربوي في تفسيره !

وقبل أن ننتقل إلى القسم الثاني من الشرك، نود الإشارة إلى أن الشيخ قد استثنى من حديثه عن انتشار الإلحاد؛ شريحة من المجتمع هي في مأمن منه، وهم كبار السن –في زمنه- من العجائز والشيوخ، ذلك أنهم تربوا في حجور أمهات مسلمات؛ وبين أحضان آباء مسلمين، فهم قد صبغوا بصبغة الله، فلا يخاف على إيمانهم من تسرب الشك أو الجحود[3]، وهو إيمان العجائز –كما سماه الشيخ[4]-، الذي يعبر عن التلقي الفطري البسيط لأصول العقيدة، وبشكل يقيني، دون إعمالٍ كبير للعقل، ولا بحث في الجزئيات والتفاصيل.

القسم الثاني من الشرك: شرك التسوية

إن أغلب الآيات القرآنية الواردة في موضوع الشرك تتحدث عن هذا القسم من الشرك: شرك التسوية؛ أي تسوية الخالق بخلقه، عن الذين يعترفون بوجود الله، لكنهم يتخذون له شريكا –كما ذكر ذلك الشيخ بيوض-[5]، ولعل تبرير ذلك أن هذا الشرك هو المظهر الذي اشتهر وعم أكثر البشرية منذ القديم[6].

وهو الشرك الذي قامت من أجله دعوات المصلحين في العصر الحديث: تجتثه من جذوره،

[1]- (م.س): ص 178.
[2]- (م.س): ص 187.
[3]- **تفسير سورة لقمان**: ص 185.
[4]- **تفسير سورة الكهف**: ص 425.
[5]- **تفسير سورة لقمان**: ص 171.
[6]- (م.س): ص 170.

وترسخ في النفوس أصول العقيدة الصحيحة، بعد أن دخل في مفاهيم العامة صور جديدة للتوسل ومعانٍ محرفة للشفاعة[1]، وهو الواقع الذي عاصره الشيخ بيوض في فترة كبيرة من حياته، وجاهد بدروسه المسجدية في إصلاحه وتغييره. يقول الشيخ بلسانه في وصف واقع الشرك الذي عاصره، والشريحة الاجتماعية التي كان يصدر منها، وجهاده في إصلاحها: «الشرك الذي نخافه على الشيوخ وكبار السن هو من نوع آخر، ولسنا فقط نخشى منه، وإنما هو واقع موجود ولكنه يخفى على كثير من الناس ... ولا يزال الناس يقلد بعضهم بعضا فيه ... ولا يودون أن يدركوا بأ م هذا الشرك يحيطون أعمالهم، وليس الكلام في هذا الموضوع جديدا، بل هو قديم، فمنذ أن جلست على هذا الكرسي للوعظ والإرشاد مِن قُرابة خمسين عاما، وأنا أُذكر و أُحذر، وألقَيت مئات ومئات من الدروس في تصحيح العقيدة، ووجوب الاعتماد على الله وحده دون غيره، والتوجه إليه دون سواه، وقصده وحده بالقُربات ...» [2].

ولم نجد الشيخ رحمه الله، يعتمد تقسيما معينا لأنواع الشرك بالتسوية، ولذلك فنحن نذكر في هذا القسم من الشرك (شرك التسوية) أهم أنواعه ومظاهره التي عالجها الشيخ؛ دون ترتيب أو تصنيف معين لها؛ وقد حصرناها في ثلاثة أنواع أو مظاهر وهي:

1. عبادة الأصنام.
2. عبادة الأضرحة.
3. الذبح والنذر لغير الله.

وفي كل نوع من تلك الأنواع الخمسة، سنذكر –إن شاء الله- تحليل الشيخ لمظهره، ثم منهجه في علاجه.

أولا/ عبادة الأصنام:

إن التدين والالتجاء إلى سلطة غيبية؛ غريزة فطرية في الإنسان منذ القدم، وقد كان كثير من الناس ولا يزالون، يعرفون الألوهية، لكنها معرفة ناقصة أو مشوهة، فكانوا يضمون إلى عبادة الله تعالى، عبادة آلهة أخرى، من صنع أنفسهم أو من اختيارهم، وقد تعصبوا لهذه الآلهة بشدة، وربما كان حظها

---

[1]- منى حسين الدسوقي: **الشيخ مصطفى الغلاييني في مفاهيمه الإصلاحية (دراسة مقارنة بينه وبين الشيخين: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده)**، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1: 1419هـ/1999م، ص 185.

[2]- **تفسير سورة لقمان**: ص 199-200.

من الإقبال والخشية، أكثر من حظ الإله الحق[1].

وبسبب تنكب هؤلاء المشركين –في القديم خاصة- عن المعرفة الصحيحة للإله الحق: الله سبحانه وتعالى، واتباعهم لأهوائهم في ذلك، فقد اختلفوا في الآلهة المستحقة للعبادة، وتفرقوا حولها طرائق قِددا، «توزعهم الأهواء، وتشتتهم الغرائز، لا يتفقون على معبود واحد، فتوزعوا على النجوم والشموس والأقمار، والأجرام السماوية، وعلى الحيوانات الأرضية، وكل من ظن قوة في شيء؛ عبده من دون الله»[2].

ومن مظاهر تلك العبادة الشركية، اتخاذ طوائف كثيرة من المشركين؛ معبودات صنعوها بأنفسهم ونحتوها بأيديهم، من جمادات كالأشجار، والأحجار والمعادن، ثم عبدوها وعظموها أكثر من تعظيمهم لله تعالى[3]، وهي عبادة الأصنام؛ التي ركز الشيخ بيوض الحديث عنها وعن علاجها، بناءً على اهتمام القرآن بها، خاصة شرك قوم إبراهيم، وشرك العرب في الجاهلية، الذين كانوا يعبدون الأصنام والتماثيل، فجاءت رسالة خاتمة الأنبياء سيدنا محمد ρ لمحاربة هذا الشرك، وترسيخ عقيدة التوحيد في القلوب؛ فاستغرقت –لأجلها- الفترة الملكية بكاملها تقريبا (ثلاثة عشر سنة) قبل أن تشرع الأحكام.

أما منهج الشيخ بيوض في معالجة هذا اللون من الشرك فيتمثل أساسا في انطلاقه من الحُجج والدوافع التي تدفع أصحاب هذا الشرك إلى فعلهم –كما ذكرها القرآن-، فيحللها ويبين بطلانها بقوة الحُجة، وإذا بطُلَت تلك الدوافع بطُلَ ذلك الشرك من الأساس، وأحيانا أخرى ينطلق الشيخ من المتناقضات التي وقع فيها هؤلاء المشركون فيدحضها، وعموما فإن للشيخ مداخل عدة ينفذ منها، لمعالجة مظاهر الشرك تلك، نذكر من أهمها:

***المدخل الأول: اعتقادهم مشاركة الآلهة في الخلق**

مما دفع المشركين إلى شركهم، اعتقادهم مشاركة آلهتهم لله تعالى، في خلق السماوات والأرض، ولذلك كانوا يخافون من بطشها وغضبها وانتقامها، فراحوا يتقربون إليها بألوان من العبادة، ومن ردود القرآن عليهم في ذلك قوله تعالى: -في شأن آلهتهم-: (مآ أشهدتهم خلْق السماواتِ والارضِ

---

[1]- الغزالي: **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، ص 19.

[2]- **تفسير سورة الحج**: ص 434.

[3]- (م.س): ص 424، **تفسير سورة مريم**: ص 99.

ولاَ خلْق أنفُسِهم وما كُنت متخِذَ الْمضِلين عضدا) (الكهف: 51).

فقال الشيخ بيوض في تحليل هذا الدليل القرآني -المُدحِض لشرك هؤلاء-: «كلا ما أشـهدتهم خلق السماوات، أنا المتفرد بالخلق [الله تعالى]، أنا وحدي الذي خلقت السماوات والأرض، ما كان هؤلاء موجودين أو حاضرين، فضلا عن أن يكونوا مشاركين لله في الخلق، فكيف يستحق هـؤلاء العبادة؟ وكيف يكون لهم سلطان؟ من أين لهم هذه القيمة، وهذه القوة؟ حتى أصـبحتم تخـافو م وترجو م وتتزلفُون إليهم»[1].

المدخل الثاني: سفاهة عقولهم

يلفت الشيخ العقول، ويدفعها إلى التعجب والاندهاش من عمل هؤلاء المشركين؛ الذي يدل على سفاهة عقولهم وخبلها؛ إذْ كيف يعبد المرء آلهة ويخشاها مع أنه صنعها بيده، ثم إ ما الإثنين –العابد والمعبود- يندرجان ضمن مخلوقات الله التي خلقها[2]، فبمناسبة قوله تعالى على لسان إبـراهيم عليـه السلام:(إِنما تعبدونَ مِن دونِ اللهِ أَوثَانا وتخلُقُونَ إِفْكًا) (العنكبوت: 17). قال الشيخ مبدِيا تعجبه: «وإنه حقا، لضلالٌ يحار الإنسان فيه، كيف يصل عقل الإنسان من التسفل إلى هذا الحد! ينحِـت شيئا بيده، أو يذيبه بالنار ثم يخشاه، مع أنه هو نفسه، وهذه المادة التي صنع منها هذا المعبود، والآلات التي استعملها لصناعته، كل ذلك من خلق الله»[3]!.

المدخل الثالث: عجز آلهتهم وضعفها

مما تعارف عليه العقلاء أن الإنسان لا يمكنه أن يخاف ممن هو أعجز منه وأضعف، فكيـف بـأن يعبده؟ أو يعبد ما هو مركب من العجز في أصله؟! ذلك أمر آخر من المتناقضات الـتي وقـع فيهـا المشركون.

فبمناسبة قوله تعالى –على لسان قوم إبراهيم حين أرادوا الكيد به-: (قَالُواْ حرقُـوه وانصـروا ءَالِهتكُم إِن كُنتم فَاعِلين) (الأنبياء: 68)، أبدى الشيخ تعجبه الكبير من تناقض القوم مع عقـولهم، حين سعوا لنصرة آلهتهم. ومن اعترافهم –ضمنيا- بعجزها وضعفها، حيث وجه الشـيخ خطابـا مباشرا إلى القوم، وكأ م معه يسمعونه –كل ذلك لفْتا لأنظار الحاضـرين في درس التفسـير؛ إلى

---

[1]- **تفسير سورة الكهف**: ص 227-228.

[2]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 54، **تفسير سورة العنكبوت**: ص 87.

[3]- (م.ن).

خطورة الموضوع- فقال لهم مستنكرا: «ويلكم! وهل الإله يحتاج إلى نصرة؟ هل الإله ينصر أم تنصره؟ "[1]، ثم يحول الشيخ خطابه إلى مستمعيه في المسجد –معقبا على القوم-: «فليتهم عقلوا وقالوا: كيف يكون آلهة من يحتاجون إلى نصرتنا؟ وفي كل ما قالوه هم -لا ما قاله إبراهيم- حجة عليهم، وقطع لأعذارهم»[2].

وقد ضرب القرآن الكريم أمثلة عدة للآلهة المزعومة وعبادها؛ بيانا لبطلان الشرك وخطورته، من بينها مثال الذبابة في قوله تعالى: (يآ أيها الناس ضرب مثلٌ فَاستمِعواْ له, إن الذِين تدعونَ مِن دون اللهِ لن يخلُقُواْ ذُبابا ولوِ اجتمعواْ له, وإنْ يسلُبهم الذباب شيئًا لا يستنقِذُوه مِنه ضعف الطالِب والمطلُوب) (الحج: 73)؛ فأراد الله بهذا أن المثل أن يصور -في صورة محسوسة- عجز الآلهة التي يعبدها البشر، حتى ترتكز الصورة في أذهانهم، فيتركوا عبادة الأصنام ويعبدوا الله وحده، وبيان الصورة –كما حللها الشيخ بيوض- أن جميع المعبودات التي عبدت من دون الله، بدءا من آلهة قوم نوح إلى آخر معبودات الأمم الوثنية في عالم اليوم، وإلى قيام الساعة لو اجتمعت كلها وتقاسمت خلق ذبابة –وهي من أحقر الخلق- ما استطاعت ذلك ولن تستطيع[3].

ثم بين الشيخ ترقي القرآن في إظهار عجز الآلهة وضعفها، حيث لم يكْتفِ القرآن بتقرير عجزها عن خلق ذبابة فحسب، بل زاد فذكر أن هذه الآلهة، إن يسلُبها الذباب شيئا لا تسترده منه؛ وهذا الشيء المسلوب فسره الشيخ بالروائح التي ترش بها المعبودات، والعطور التي تضمخ بها، والزيوت التي تدهن بها؛ فلو جاءت ذبابة وأخذت شيئا منها، لا تستطيع الآلهة إدراكها واسترجاع ما أخذت منها، وعلق الشيخ على هذا المثل بأنه تصوير بديع لضعف المعبودات من دون الله[4].

إن المعنى السابق للشيء الذي يسلبه الذباب من الآلهة؛ ذكره الشيخ خلال تفسيره سورة الكهف، لكن عند بلوغه للآية السابقة والمثل السابق في محله من سورة الحج، طور مفهومه السابق للشيء المسلوب، واعتبره فهما بسيطا؛ فبحث عن حكمة تمثيل الله تعالى بالذباب؛ فوجد أن «الذباب من الحشرات الطائرة المضرة التي تسلب حتى الحياة، بما تنقله من جراثيم، كمرض السل والتيفوئيد والرمد

---

[1]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 73.
[2]- (م.ن).
[3]- **تفسير سورة الكهف**: ص 435، **تفسير سورة الحج**: ص 586.
[4]- **تفسير سورة الكهف**: ص 435.

الحُبيبي مثلا»[1].

فبتوظيف الشيخ لمكتشفات العلم التجريبي الحديث أدرك معنى أعمق للآية، وهو أن الذبابة –رغم حقارتها- قد تنقل المرض من عين أو لُعاب أو مخاط إنسان إلى إنسان آخر صحيح فتعديه، وبذلك تسلُبه صحته أو قد تسلبه حياته كليةً[2]، فهل يستطيع حينها أن يسترد منها صحته ؟!

هذه هي الحكمة –كما ذكر الشيخ- من ضرب المثل بالذباب؛ وهي تصوير مدى ضعف تلك المعبودات، التي هي عاجزة حتى عن خلق هذا المخلوق الحقير[3]، فهي عن خلق غيره أعجز، بل وعاجزة حتى عن دفع الضر عن نفسها؛ من هذا المخلوق، "ضعف الطالب والمطلوب" !

ثانيا/ عبادة القِباب والقبور والأضرحة

إن هذا المظهر الثاني للشرك هو المظهر الذي اهتم الشيخ بيوض بعلاجه أكثر في تفسيره، نظرا إلى أنه هو المظهر الذي كان شائعا في عصره، لا سيما في فترة الاستعمار الفرنسي منه، فقد تطورت عبادة الأصنام والتماثيل قديما؛ إلى عبادة أبِنية تقام على قبور وأضرحة العلماء والأولياء الصالحين بعد ذلك، وهي القِباب (ج قُبة) التي ضل بسببها كثير من المسلمين؛ باعتقادهم أوصاف الألوهية في بعض الأولياء الموتى أو الغائبين، فبنِيت لهم قباب ومقامات على أضرِحتهم، وفي أماكن كثيرة غيرها ونسِبت إليهم، ثم إن هذا القِباب تزار ويتبرك بها ويتقرب إلى أصحابها بأنواع من القرابين، ويتوجه إليها بالاستعانة على قضاء الحوائج، والدعاء لها بجلب المنافع ودفع المصائب[4].

وقد ارتبط هذا النوع من الشرك بالزوايا والطرق الصوفية التي ظهرت في مختلف بلدان العالم الإسلامي، وبلد الشيخ بيوض هو واحد منها، فقد «كانت الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى يسودها ظلام حالك من الجهل والفوضى، ويشل حركتها اعتقاد باطل من الخرافات والشعوذة، حتى غدت وكأنها قد نومت تنويما مغناطيسيا؛ تحت تأثير طلاسم الطرقيين، وشعوذة أدعياء التصوف، وبات زِمام الأمة بيد الأولياء وشيوخ الزوايا، يستغلون عاطفتها الدينية استغلالا رهيبا»[5].

---

[1]- **تفسير سورة الحج**: ص 587.

[2]- (م.ن).

[3]- (م.س): ص 588.

[4]- أنظر: **تفسير سورة لقمان:** ص 207 وما بعدها، **تفسير سورة الحج**: ص 385، **تفسير سورة سبأ**: ص 123.

[5]- محمد ناصر: **المقالة الصحفية الجزائرية (نشأتها، تطورها، أعلامها)،** الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/ 1978م، مج 1/ ص 107.

وعندما بدأت الحركة الإصلاحية المنظمة في الجزائر بزعامة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1925م، جعلت من أهدافها القضاء على نفوذ الطرقية ومشايخها على نفوس الناس[1]؛ بنشر العلم والإصلاح، والدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة. وكانت المقالة الصحفية من أبرز منابر الكلمة إذ ذاك -إلى جانب دروس الوعظ المسجدية-، فانبرى جماعة من الشبان الإصلاحيين إلى الصحافة، ينشرون فيها أفكارهم الإصلاحية، فطاردوا بذلك الانحراف العقدي والديني في كل زاوية، وتعقبوه في كل شبر من القطر الجزائري[2].

ومن هؤلاء الكُتاب الذين برعوا في هذا المجال؛ الشيخ مبارك بن محمد الميلي[3]، الذي نشر سلسلة من المقالات حول موضوع "الشرك ومظاهره"، في جريدة البصائر الصادرة عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم جمع الشيخ الميلي تلك المقالات في رسالة خاصة سماها: رسالة الشرك ومظاهره[4]. وقد وصف فيها ما آل إليه حال الأمة؛ بقوله: «وقد مرت أعصر؛ أهمل جل العلماء فيها شأن الدعوة، أو حادوا فيها عن أسلوب القرآن والحديث، فجهل جمهور المسلمين عقائد الإسلام، أو خفِي عليهم ما ينافِيها وطال عليهم الأمد، فطرأ عليهم ما طرأ على الأمم قبلهم، من عقائد زائفة وبدع سائدة»[5].

وفي موضع آخر من رسالته؛ يصف في أسلوب استفهامي تعجبي، بعض بدع العقيدة وصور الشرك التي كانت سائدة فيقول: «ألست ترى في أوساطهم قِبابا تبذل في شيدِها الأموال، وتشد لزيارتها الرحال، أم لست تسمع منهم استغاثات وطلب حاجات من الغائبين والأموات ؟ ...»[6].

ورغم اعتراف الدكتور محمد ناصر أن نفوذ الطرقية في القطر الجزائري كان يتفاوت -قوة وضعفا- من منطقة إلى أخرى؛ حسب المستوى الثقافي للمنطقة، فاعتبر المناطق القَروية أكثرها تمسكا بنفوذ الطرقيين، ورغم اعتراف الدكتور أيضا أن المناطق التي ظهر فيها الإصلاح مبكرا كمنطقة

1- (م.س): ص 110.
2- (م.س): ص 111.
3- ترجمة:
4- الميلي: مرجع سابق، ص 14-15.
5- (م.س): ص 12.
6- الميلي: مرجع سابق، ص 102.

"وادي ميزاب" مثلا[1]، «لم يكن فيها حظ لزاوية، رغم إحاطة الطرق ا إحاطة السوار بالمعصم»[2]، إلا أن وادي ميزاب التي مثل ا؛ لم تسلم من انعكاسات وتأثيرات تلك الطرق والزوايا –كما يبدو لنا-، وإلا لما شن الشيخ بيوض في تفسيره تلك الحملة الشعواء على زيارة القبور والأضرحة وغيرها من صور الشرك التي سادت منطقته، ولم تكن بدعا من التيار العام، فجاء تفسير الشيخ بيوض –رحمه الله- مسايرا لخط الحركة الإصلاحية وجمعية علماء المسلمين الجزائريين –التي كان عضوا ا- في ما يخص محاربة الشرك بكل صوره المتجددة، والعودة بالأمة إلى العقيدة السليمة ومنابعها الصحيحة.

وقد حلل الشيخ بيوض في تفسيره تحليلا مستفيضا عبادة الأضرحة، وأبان صورها وأشكالها الـتي كان يشاهدها ويسمع عنها في واقعه لا في مخيلته، ومن ذلك ربطه لهذا الشرك –وهـو الاسـتعانة بالقباب- بمثَل حي للمشرك ضربه الله في القرآن الكريم؛ حيث صوره في صورة من هوى من السماء منكبا على وجهه، فتخطفته الطيور من كل مكان، وذلك في قوله تعالى: (ومن يشرِك بِاللهِ فَكَأَنمـا خر مِن السمآءِ فَتخطفُه الطير أَو تهوِي بِهِ الريح فِي مكَانٍ سحِيقٍ) (الحج: 31)، ووجه الربط بـين الآية وواقع الشرك –كما ذكره الشيخ- هو أن الذين قطعوا صلتهم ورجاءهم في الله، إذا نزل ـم مرض ينتقلون من مكان إلى مكان بحثا عن قبة أو قبر، أو ولي في أطراف الأرض، أو مشعوذ ساحر، فيقدمون إليه الأموال والهدايا رجاءَ الشفاء، لكنهم يعودون كما ذهبوا أو شرا مما ذهبـوا، لضـياع الدين والمال مع بقاء المرض، وهذا هو التخطف المذكور في الآية[3].

ومن صور الشرك التي ذكرها الشيخ؛ عند عباد القباب وزوارها؛ إقامتهم لطقوس منكَرة حولها، كإشعال الشموع ومصابيح الزيت، وتعليق الخِرق والثياب عليها، والتمسح بجدرا ا، حتى إن المـرأة تماسِح عليها جسمها من كل الجهات، وبعضهم يدخل داخل القبة فيتمرغ على ترا ا، إضافة إلى ما يعطى للقائم على أمرها المسمى عندهم بـ "المُقدم"، رجاء بركته في شفاء المرضى، وغيرهـا مـن الأباطيل؛ التي ذكر الشيخ أ ا لا تزال موجودة في العهد الذي كان يفسر فيه سورة سبأ[4].

ومن صور ذلك الشرك أيضا، تقديس بعضهم للأولياء والشيوخ أكثر من تقديسهم لله تعالى، كما

1- محمد ناصر: مرجع السابق، ص 110.

2- (م.ن).

3- **تفسير سورة لقمان**: ص 208-209.

4- **تفسير سورة سبأ**: ص 123-124.

ذكر الشيخ من ذلك مثلا في الحلف واليمين؛ «أن يقول أحد للآخر: أنا لم أحلف لك بالله، وإنما حلفت لك بالشيخ صالح»[1]، أو أن نجد بعضهم «يقسم بالله كاذبا ألف مرة، ولا يقسم بالشيخ سيدي عيسى، أو الشيخ عبد القادر مرة»[2].

ومن منكرات هذا الشرك، التي شاهدها الشيخ بيوض، أن هؤلاء القُبوريين يحجون إلى قبور أوليائهم كما يحج إلى البيت الحرام تماما، إذ يقيمون فيها عادات وطقوس تشبه شعائر الحج، إذ يوجد فيها مكان يطاف حوله كالكعبة، ومكان فيه عين ماء يشرب منها كماء زمزم، ومكان آخر يسعى فيه كالسعي بين الصفا والمروة، وقد ذكر الشيخ بيوض أنه زار زاوية من الزوايا فضولاً للاطلاع، وهي زاوية سيدي خالد؛ ليلة السابع والعشرين من رمضان، فحضر كل الطقوس وشاهد ما شاهد مما كان يذكره من ضلالات[3]. وهكذا نقف مرة أخرى على واقعية الشيخ في تفسيره وفكره الإصلاحي، فلم تمنعه ضلالات القُبوريين من حضور طُقوسهم، للتعرف عن كثب على جذور الداء، من أجل إيجاد الدواء، إذ ليس الخبر كالعيان.

وقد عقب الشيخ على أصحاب تلك الزاوية "زاوية سيدي خالد" وغيرهم من القبوريين، بأنهم جمعوا الكفر من جهتين[4]:

الجهة الأولى: إشراكهم بالله، بدعوة الناس إلى أخذ مرضاهم إلى سيدي خالد حتى يشفيهم، وتوجههم إلى سيدي خالد لقضاء حوائجهم، ووجه الشرك أنه تضرع إلى مخلوق.

الجهة الثانية: إقامتهم للولائم و "الزردات" الجامعة لكل المفاسد، «إذ تأتي العواهر من دور البغاء الدائرة بسيدي خالد، ويجتمعن بالمئات، فيختلط الرجال بالنساء، وتقام أسواق الخمور، وأسواق الفسق، ويعتقدون أن أولئك مغفور لهم ببركة سيدي خالد، أو ببركة سيدي فلان، في أي مكان يقام فيه هذا الضلال المبين»[5].

أما منهج الشيخ بيوض في محاربة هذا اللون من الشرك (عبادة الأضرحة)، هو نفسه في محاربته

---

[1]- (م.س): ص 125.
[2]- (م.ن).
[3]- (م.ن).
[4]- (م.س): ص 126.
[5]- (م.ن).

لشرك الأصنام، الذي يتمثل في انطلاقه من حجج الخصم ودوافعهم إلى شركهم، من أجل دحضها وبيان بطلانها، وقد كانت له إلى ذلك عدة مداخل لعلاج المسألة.

***المدخل الأول: بيان الشيخ للفيصل بين الاستعانة بالأسباب والاستعانة بالأولياء**

من أسباب وقوع كثير من الناس في شرك القبور، اعتقادهم أن الاستعانة بالأولياء هي استعانة بالأسباب والنواميس التي يسير عليها الكون، وهذا خلط للمفاهيم ينبغي إزاحته، ببيان التفرقة بين الاستعانة بالأسباب والاستعانة بالأولياء، وذلك ما سلكه الشيخ بيوض، حيث بين أن التوجه إلى غير الله تعالى بالدعاء وطلب النفع وشفاء المرضى ودفع المصيبة وطلب الرزق والنصرة على العدو؛ كل ذلك من الأمور الغيبية التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، فلا يجوز فيها الاستعانة بالمخلوقين، لأنها ليست في مقدورهم؛ وبالتالي فالاستعانة بهم فيها شرك[1].

أما الاستعانة بالمخلوقين في ما هو في طَوقهم واستطاعتهم، فذلك جائز لأنه استعانة بالأسباب المشروعة، ومما يجب فيه على الخلق أن يستعين بعضهم ببعض[2]؛ بمقتضى السنن الكونية، وقد ضرب الشيخ أمثلة واقعية لذلك فقال: «فأنت قد تطلب من إنسان، أن يعِينك ببدنه، كأن تقول له: أعنِّي على حمل هذا الثقل، وضعه على ظهري أو على الدابة، أو تعالَ أنجِز لي هذا العمل، أو أن تطلب منه أن يعنيك بفكره، كأن تذهب إليه وتطلب منه أن يشير عليك برأيه وحسن تدبيره في قضية من القضايا»[3] ، وبالمقابل ينبغي على الإنسان إعانة أخيه إذا استعان به، «فمن استنصحك فانصحه، ومن استشارك فأَشِر عليه، وقد أنكر الله تعالى على الذين يمنعون الماعون، والماعون هو الإعانة»[4].

والنتيجة التي يريد الشيخ الوصول إليها، هي أن طلب النتائج والمُسببات من أسبابها ليس من اتخاذ الشركاء لله تعالى في شيء؛ إنما الشرك في ما وراء ذلك.

وقد وجدنا –تقريبا- ذات المسلك الذي سلكه الشيخ بيوض، عند الشيخ محمد عبده في تفسيره: المنار، وذلك بمناسبة بيانه لولاية المؤمنين بعضهم بعضا، التي تعني تناصرهم وتعاونهم في الأمور المشتركة؛ حيث حذر الإمام بعد ذلك من خطر تجاوز هذا المفهوم فقال: «... فمن تجاوز ذلك فاتخذ

---

[1]- **تفسير سورة لقمان:** ص 207.

[2]- (م.ن).

[3]- (م.ن).

[4]- (م.ن).

له وليا أو أولياء، يعتقد أنهم يتولون شيئا من أموره، فيما وراء هذا التعاون والتناصر بين الناس فقد أشرك، إذِ اعتدى على ولاية الله الخاصة به التي لا يشاركه فيها أحد»[1].

وفي موضع آخر من تفسير المنار وجدنا الإمام، يوضح بدقة الإشكال الذي قد يرد على الأذهان؛ بين حصر الاستعانة في الله (إِياك نعبد وإِياك نستعِين) (الفاتحة: 4)، وبين الأمر بالتعاون (وتعاونواْ علَى الْبِر والتقْوى) (المائدة: 2)، فيقول: «... مكن الله تعالى الإنسان -بما أعطاه من العلم والقوة- من دفع بعض الموانع وكسب بعض الأسباب، وحجب عنه البعض الآخر، فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك، ونبذل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة، وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك، ونفوض الأمر في ما وراء كسبنا؛ إلى القادر على كل شيء، ونلجأ إليه وحده، ونطلب المعونة المُتممة للعمل والمُوصِلة لثمرته؛ منه سبحانه دون سواه، إذ لا يقدر على ما وراء الأسباب الممنوحة لكل البشر على السواء، إلا مسبب الأسباب ورب الأرباب»[2].

ونحن نرى أن هذه التفرقة بين الاستعانة بالله تعالى والاستعانة بالأسباب –كما بينها الشيخ محمد عبده- أو بين الاستعانة بالأولياء والاستعانة بالأسباب –كما بينها الشيخ بيوض- هي نقطة جوهرية في علاج شرك الأولياء، فَبِوضوحها في الأذهان، ورسوخها في النفوس، تتخلى عن كل أنواع الشرك، وتجرد التوحيد من كل شوائبه.

المدخل الثاني: إبطال مفهوم التوسط وتصحيح مفهوم التوسل

من المداخل التي عالج بها الشيخ بيوض شرك الأولياء، إبطاله لمفهوم التوسط وتصحيحه لمفهوم التوسل؛ فمن شبه المشركين التي ضلوا وأضلوا بها؛ قولهم في شركائهم وأوليائهم –على لسان القرآن-: (هؤلَآءِ شفَعآؤنا عِند اللهِ) (يونس: 18)، (ما نعبدهم إِلا لِيقَربونآ إِلَى اللهِ زلْفَىآ) (الزمر: 3)، وهذا هو التوسط الذي تمسك به هؤلاء المشركون، حيث اعتبروا شركاءهم أو أولياءهم؛ وسطاء وشفَعاء يقربونهم إلى الله تعالى.

فكان الشيخ بيوض يركز كثيرا على إبطال شبهة توسط العباد إلى الله، في عدد من الآيات التي تتحدث عن الشرك؛ ببيان أن الإنسان لا يحتاج إلى واسطة بينه وبين الله تعالى، بل عليه التوجه إليه مباشرة، وإخلاص القصد إليه، وكان الشيخ في أحيان كثيرة من ذلك؛ يستعمل أسلوبا خطابيا

---

[1]- محمد عبده: مصدر سابق، ج 3/ ص 44-45.

[2]- (م.س): ج 6/ ص 58-59.

مباشرا، مفترِضا أن الذي يتخذ تلك الواسِطة؛ هو أمامه وجها لوجهٍ، وذلك زيادة في تثبيت المعنى ولفت الأذهان إلى كلامه.

فبمناسبة قوله تعالى: (وَمِن النَّاسِ من يجادِلُ فِي اللهِ بِغير عِلْمٍ ولاَ هدى ولاَ كِتابٍ منِيرٍ) (لقمان: 20)، يقول الشيخ: «من عجيب أمر الإنسان أن يشك في الله تعالى وقدرته فيتركه؛ وهو يسبح في سابِغ نعمه، ويلتجئ إلى غيره ... إنه لم يجعل على بابه حارسا أو حاجبا، اذهب إليه مباشرة في أي وقت تريده تجِده في انتظارك»[1].

وبمناسبة قوله تعالى: (ما اتخذَ اللهُ مِن ولَدٍ وما كَانَ معه مِن إِلَهٍ إذًا لذَهب كُل إِلَهٍ بِما خلَق ولَعلاَ بعضهم علَى بعضٍ سبحانَ اللهِ عما يصِفُونَ) (المومنون: 91)، يقول الشيخ في تعجب من ضلال المشركين: «... وعجبا حقا لضلالهم، فإذا كان هذا [أي الشريك] لا يملك شيئا فما حاجتك إليه. إذا كان الباب مفتوحا لك إلى السلطان مباشرة، فما حاجتك إلى الأعوان والوزراء والأمراء؟ فالباب بينك وبين ملِك الملوك مفتوح على مصراعيه، يقول: (ادعونِي أستجِب لَكُم) (غافر: 60)، دعاك إليه مباشرة، ولم يرض لك أن تجعل بينك وبينه واسطة»[2].

من خلال تحليل الشيخ للآيتين السابقتين نجده ينطلق من منطلق الناس في حيا م اليومية؛ التي تعارفوا فيها على أن الواحد منهم، لا محِيص له من أن يمر على عدة حواجز وبوابات بشرية حتى يصل إلى الشخص أو المسؤول الذي يقصده لقضاء مصلحةٍ ما، وذلك من أجل أن يزيل الشيخ من الأذهان فكرة الوساطة الإلهية، ويبرِز قيمة التوحيد؛ المخالف للشرك الذي يتخذه الناس، ويبرز أيضا مخالفة الصفات الإلهية للصفات البشرية تمام المخالفة، وبِضِدها تتميز الأشياء.

ويرتبط بمفهوم الواسطة؛ مفهوم التوسل والوسيلة -لأن الواسطة لا تتخذ إلا للتوسل ا عند الله- ، وقد فُهمت الوسيلة فهما خاطئا، يعني التقرب إلى الله بالأولياء وبِقِبا م، والتبرك ببركة الأشياخ والعلماء، من أجل إرضاء الله وقضاء المصالح. ولذلك عمل الشيخ في تفسيره على تصحيح هذا المفهوم ببيان أن الوسيلة الحقيقية التي يتوسل ا المسلم بين يدي ربه -ابتغاء رضوانه واستجابة دعائه-؛ هي عمله الصالح، فقال الشيخ –إخبارا عن الله تعالى-: «الله تعالى يقول: لست بحاجة إلى أحد تجعلونه واسطة تتقربون به إلي، وإنما تقربوا إلي بأعمالكم، وإنه ليست هناك صلة بين العبد وربه

[1] - **تفسير سورة لقمان:** ص 413.

[2] - **تفسير سورة المومنون**: ص 250.

إلا عمله، فإما أن يتصل بربه بعمل صالح فيرضى عنه ويحِبه، حتى يكون سمعه وبصره ويده، وإما أن يعصيه فيوصِد عنه بابه، ويطرده من رحمته، ولا شيء غير هذا»[1].

وزيادةً في ترسيخ المفهوم الشرعي للوسيلة، وإزالة التصورات الخاطئة عنه؛ بين الشيخ أنه لا اعتبار عند الله للقرابات، ولا يغني أحدا عنده تعالى؛ أن يكون ابن نبي أو ابن ولي صالح، ودعم الشيخ قوله بالأمثال التي ضربها الله في القرآن لهذه القضية، إذ جعل تعالى أبناءَ بعض الأنبياء كفرة كولد نوح υ، وجعل آباءَ بعضهم كفرة كوالد إبراهيم υ، وجعل من نساء الأنبياء كافرات كامرأة نوح وامرأة لوط υ[2]، كل ذلك وغيره ليبين الله لعباده أن التفاضل عنده ليس بالنسب ولا بالقرابة ولا بغيرها، إنما بالتقوى والعمل الصالح، وأنه –كما قال الشيخ-: «ليس هناك وشيجة تربط العبد بربه، لأن المخلوق مبايِن للخالق، في جميع صفاته الذاتية والفعلية، وإنما الذي يربط بينك أيها العبد وبين ربك، هو أن تؤمن به وتسلِم له»[3].

وفي مسألة الدعاء –بصفة خاصة- وجه الشيخ الناس إلى الإخلاص فيه لله دون سواه، والتوسل إليه بأعمالهم الصالحة؛ لأنها الأنفع في الإجابة، يقول الشيخ: «فكل من وقع في ضائقة واشتدت به البلاء، ورفع يديه ليسأل الله فليسأله وحده خالصا مباشرة؛ يا رب، يا الله، ولا يسأل ببركة فلان أو فلان، ولا ببركة القرآن[4] أو الكعبة، ولا بجاه محمد صلى الله عليه وسلم، أو أي شيء آخر، وإنما عليه أن يتذكر عملا صالحا قام به لوجه الله، من مال أنفقه أو نفَع به المسلمين، وليقل: يا رب إذا فعلت ذلك العمل لوجهك خالصا، فَفَرج عني هذه الشدة ... وهذه هي الوسيلة التي ذكرها الله تعالى في قوله: (يآ أيها الذِين ءَامنواْ اتقُواْ اللهَ وابتغواْ إِليهِ الوسِيلَةَ وجاهِدواْ فِي سبِيلِهِ لَعلكُم تفْلِحونَ) (المائدة: 35)، والوسيلة هي التقوى والعمل الصالح، وضل من ظن أن الوسيلة هي غير هذا»[5].

---

[1]- **تفسير سورة لقمان**: ص 172-173.

[2]- (م.س): ص 173.

[3]- (م.ن).

[4]- لقد أفتت اللجنة الدائمة للبحوث بالسعودية، بجواز التوسل إلى الله ببركة القرآن، وعدم اعتبار ذلك شركا، وعلّلت الحكم ببيان أن القرآن «كلام الله لفظا ومعنى، وكلامه تعالى صفة من صفاته، فالتوسل به توسل إلى الله بصفة من صفاته، وهذا لا ينافي التوحيد، وليس ذريعة من ذرائع الشرك». اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: **فتاوى اللجنة**، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، دار المؤيد، الرياض-السعودية، ط3: 1421هـ/2000م، مج1/ص519-520.

[5]- **تفسير سورة الروم**: ص 274.

*المدخل الثالث: بيان عجز الأولياء وضعفهم

قد مر بنا قريبا، نفاذ الشيخ إلى شرك الأصنام –تحذيرا وعلاجا- من هذا المدخل، وهو بيان عجز الأصنام وضعفها، وقد كان من مداخل الشيخ إلى علاج شرك الأولياء والقبور، ذلك المدخل أيضا، لبيان افتقار تلك القباب والأضرحة وأصحا ا إلى صفة أساسية من صفات الألوهية، وهي صفة القوة والقدرة المطلقة التي ليست إلا لله تبارك وتعالى.

ومن أكبر صفات النقص والضعف لدى الإنسان وغيره من الكائنات؛ صفة الموت، فإذا مات ابن آدم توقفت حركته وانقطع عمله إلا من ثلاث خصال يستمر أجرها –كما ورد في الحديث[1]-، هذه الصفة البارزة وظفها الشيخ بيوض بقوة لإبطال شرك القباب، إذ بين أنه من غير المعقول أن يتوجه الإنسان إلى ضعيف مثله لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، خاصة حالة موته؛ قال الشيخ في خطاب تعجبي: «كيف ترجو أيها الإنسان نفعا من ميت؟! فصاحب القبر أحوج منك إلى دعاء، لأن عمله قد انقطع، فهو لا ينفع نفسه فكيف ينفع غيره، هذا إذا كان إنسانا ميتا، أما إذا كان حجرا أو شجرا فهو من باب أولى»[2]، ثم يستأنف قائلا: «أتترك هذا الجبار القوي، وتذهب إلى غيره؟! (قُتِلَ الِانسانُ مآ أَكْفَرَه) (عبس: 7)، يترك الله ويذهب إلى ضعيف مثله، أو أقل منه يدعوه !"[3].

وفي موضع آخر يبين الشيخ ويؤكد تناقض الذين يعتقدون النفع في الموتى، وانقلاب الحقائق لديهم، فهؤلاء الموتى –فضلا على أ م لا يملكون نفعا ولا ضرا-، هم الذين يحتاجون إلى الأحياء بعد انقطاع العمل، وليس العكس، والحاجة المقصودة هي أن يذكُر الحي السيرةَ الصالحة للميت، ويقتدي بعمله، ويدعو ويستغفر له –كما ذكر الشيخ-[4].

ويدخل في هذا الباب أيضا تناقض الذين يقصدون السحرة والمشعوذين؛ استعانةً م في الشدائد، ووجه التناقض –كما ذكر الشيخ- أن هؤلاء المشعوذين المقصودين؛ جهلةٌ أُميون، يأمرون مريديهم

---

[1]- الحديث رواه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم 3084، «...عن أَبِي هريرةَ أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ إِذَا مات الْإنسانُ انقَطَع عنه عملُه إِلا مِن ثَلَاثَةٍ إِلا مِن صدقَةٍ جارِيةٍ أَو عِلْمٍ ينتفَع بِه أَو ولَدٍ صالِحٍ يدعو لَه»، ورواه الترمذي، كتاب الأحكام عن رسول الله، باب في الوقف، رقم 1297، و«قَالَ أَبو عِيسى هذَا حدِيثٌ حسن صحِيح». **موسوعة الحديث الشريف.**

[2]- **تفسير سورة الحج**: ص 560-561.

[3]- (م.س): ص 561، وانظر أيضا: ذات المصدر: ص 592-593.

[4]- **تفسير سورة الشعراء**: ص 395.

بأفعال باطلة؛ كاستعمال الحُروز وإلقاء الملح أو البخور في أماكن معينة، وهؤلاء –كما وصفهم الشيخ- من سقْطِ المتاع؛ الذين لا إيمان لهم ولا دين، همهم سرقة أموال المُغفلين[1].

ووجه التناقض من جهة أخرى، يبدو في من يصدقونهم، وقد سلب عنهم الشيخ صفة العقل وصفة الإيمان، إذ لو كانوا يملكون إيمانا لردهم إلى الله تعالى، ولو كانت لديهم عقول لَتيقنوا أن فعل السحرة لا ينفع ولا يضر[2]، ويصف الشيخ هذا التناقض في خطاب مباشر مع أمثال أولئك المشركين: «فهذا الذي تذهب إليه ليكتب لك، أو ليبخر لك لتشفَى، هو أحوج منك إلى ما تطلب، فإذا مرض فليس له من يداويه!. أو يبخر لمتجرك ليزدهر مقابل دريهمات تعطيها له، لماذا لا يبخر لنفسه حتى يأتيه الربح والمال الوفير»[3].

ويريد الشيخ بذلك أن يصل إلى أن هؤلاء المشعوذين، لا يملكون جلب النفع ولا دفع الضر عن أنفسهم، فكيف يملكونه لغيرهم، وبالتالي كيف يستعان بهم؟. وبذلك نرى قوة الشيخ في توظيف مبدإٍ أساسي من أوليات العقل، وهو مبدأ عدم التناقض، في علاج مظاهر الشرك.

ثالثا/ الذَّبح والنَّذر لغير الله

من أنواع الشرك التي حاربها الشيخ بيوض في تفسيره وشدد عليها النكير؛ شرك الذبح والنذر لغير الله تعالى، وهذا اللون من الشرك في الحقيقة تابع، إلى النوعين السابقين وفرع منهما: عبادة الأصنام، وعبادة الأضرحة، ذلك لأن التقرب إلى المعبود بالذبائح والقرابين، هو عادة قديمة قِدم البشرية وقِدم الأديان –كما ذكر الشيخ- حيث أشار إلى أن آثار الأولين في مختلف الديانات، يوجد فيها –من بين ما يوجد- مذابح حول المعابد، تصور فيها صور للآلهة[4].

وهذه الظاهرة الشركية تفَشت في المسلمين –وقد عاشها الشيخ في ميزاب-، لما تفشى فيهم عبادة القباب والأضرحة، إذ صاروا يقيمون النصب والمذابح حول القبور، فيذبحون عليها ويلَطخونها بالدماء والأوساخ، وقد انتقلت إليهم هذه العادة من الأمم الوثنية السابقة[5].

وقد ابتدأ الشيخ حديثه عن شرك الذبح –لما كان بصدد أنواع الشرك في تفسير سورة لقمان-

---

1- **تفسير سورة الحج**: ص 367.

2- (م.ن).

3- (م.ن).

4- (م.س): ص 446.

5- **تفسير سورة لقمان**: ص 213.

ابتدأ ببيان هدي الإسلام في الذبح، وهو استحضار القصد لوجه الله تعالى عند نحر البدن[1]، أو ذبح غيرها من الذبائح الشرعية، مع ذكر اسم الله عليها، ثم التصدق بلحومها على الفقراء والمساكين[2].

بعد ذلك يستغرب الشيخ من تحول تلك البدن –وغيرها من الذبائح- من شعائر لله بنص القرآن[3]، إلى شعائر لغير الله، يقول الشيخ بهذا الصدد: «كيف يمكن –بتقادم العهد، وفي مجتمع مسلم- أن تجعل من شعائر البشر لا من شعائر الله؟! فالألفاظ التي تصدر عن الألسنة تدل على شرك خفي، والألفاظ تابعة للنيات، وهي تعبر عما في القلوب، وتدل على أن القصد من التقرب بها إلى الخلق، أكثر من قصد التقرب إلى الله ... [كقولهم] نوق سيدي جابر، نوق الشيخ سيدي عيسى، نوق سيدي إبراهيم، نوق سيدي عبد القادر ... ولقد ارتكزت هذه التسمية في القلوب، وأصبحت الألسن تنطق بها، من غير أن يعلم أحد أنه لا يجوز النطق بهذا»[4].

وتلك التسميات التي تطلق عند الذبح هي ما يسمى في الشرع: الإهلال لغير الله تعالى، وهو مظهر تابع لشرك الذبح، إذ يقصد صاحب الذبيحة بقلبه وليا معينا للتقرب إليه، ثم يذكر بلسانه اسم الوليّ على الذبيحة، هذا هو الإهلال لغير الله تعالى.

وقد عرف الشيخ بيوض الإهلال لغير الله، وذَكَر منشأه وتاريخه، بمناسبة قوله: (إِنما حرم علَيكُم الْميتةَ والدم ولَحم الْخِنزِيرِ ومآ أُهِلَ بِهِ لِغيرِ اللهِ) (البقرة: 173)، فقال الشيخ: «يعني ما رفع فيه الصوت بذكر غير الله، ومما هو معروف عند البشر منذ القديم، أنهم يهلون إذا أرادوا النحر أو الذّبح، بِذِكْر اسم الذي يتقربون إليه، ونحن لا نعلم ما كانوا يقولون في الجاهلية، وإنما الذي نعلمه أنهم يهلون بذكر أسماء آلهتهم: اللات والعزى ومناة وهبل، وكل يهل بصنمه، ثم انتقلت هذه الخصلة من الشرك إلى المسلمين وانتشرت، وهي لا تزال في جميع بلاد الدنيا، مشرقا ومغربا، وفي بلادنا كذلك، فمن جهة يقول أحدهم: بسم الله ليحِل ذبيحته، ومن جهة أخرى يقول: هذه وعدتك يا سيدي

---

[1]- عرف الشيخ البدن بقوله: «البدن هي النوق، أي إناث الإبل، وألحق بها البقر عند أصحاب البقر، ودون ذلك الأضاحي التي تكون من الغنم» **تفسير سورة لقمان**: ص211.

[2]- (م.س): ص 212.

[3]- وهو قوله تعالى: «**والْبدنَ** جعلْناها لَكُم من شعآئِرِ اللهِ لَكُم فِيها خير فَاذْكُروا اسم اللهِ علَيها صوآف»(الحج: 36).

[4]- **تفسير سورة لقمان**: ص212.

فلان!. وهنا الحرام، لأنه إهلال لغير الله»[1].

ويلحق بمسألة الذبح والإهلال لغير الله؛ قضية النذر لغير الله. وقبل أن يعرفه الشيخ، عرف النـذر الجائز وهو الوعد الذي يعد به الإنسان ربه، بأن يذبح له شاة يتصدق ا على الفقراء والمساكين، إذا ما أجاب له طلبه، كأن يرزقه ولداً أو يشفِي له مريضا[2].

أما النذر لغير الله الذي تسميه العامة "الوعدة"، فقد مثّل له الشيخ بأن يقول أحدهم: «يا سيدي فلان إذا وقع لي كذا أو كذا فإني سأذبح لك ذبيحة، فهذا حرام من أول مرة، وهو كفر وشرك ونذر لا يجوز الوفاء به»[3].

وقد علق الشيخ على تلك المظاهر الشركية –السالفة الذكر- بأ ا أشياء قبيحة، لا تزال منتشرة، ولا يزال الناس يتعصبون لها –في عهده-، بحجة التقليد للآباء ومن كان قبلهم[4].

وقد سلك الشيخ بيوض في علاج شرك الذبح والنذر لغير الله، عدة مسالك ونفذ إليه من مداخل شتى، كما رأينا في النوعين السالفين من الشرك.

***المدخل الأول: بيان المقصد الشرعي للذبح**

بين الشيخ أنه مما يتمسك به أولئك الذين يذبحون لغير الله؛ اشتراط المكان عند الذبح، فلا يذبحون إلى على قبور أوليائهم، وإذا دعوا إلى الذبح حيث يذبح جميع الناس رفضوا، ثم عالج الشـيخ هـذه الشبهة ببيان المقصد الشرعي للذبح، فقال –مخاطبا هؤلاء-: «... نقول لأولئك –لنختبر نواياهم-: إن الله تعالى لم يحدد ولم يشترط عليكم مكانا محدودا للذبح أو النحر، فهو يقول: (لَن ينـالَ اللـه لُحومها ولاَ دِمآؤها ولَكِن ينالُه التقْوى مِنكُم) (الحج: 37)، يعني: إن هذه الأ ار من الدماء الـتي تراق، والقناطير المقنطرة من اللحم الذي تحصلون عليه؛ لن يصلني منها شيء، وإنما يصـلني مـنكم تقوى قلوبكم، وإذا كان الله تعالى لا يناله كثرة الدم، ولا وفْرة اللحم، أَفَيناله تحديد المكان؟»[5].

إن هذا التحليل يدل على أن الشيخ مقتنع بأن كثيرا من الناس الذين وقعوا في وطأة هذا اللون من

---

[1] - (م.س): ص 216.
[2] - (م.س): ص 217.
[3] - (م.ن).
[4] - (م.س): ص 218.
[5] - (م.س): ص 213 وما بعدها.

الشرك؛ إنما أعماهم عن الحق؛ غفلتهم أو جهلُهم بالمقصد الشرعي من الذبح وهو تقوى القلـوب، التي لا تكون إلا لله وحده، فإذا أدركوا هذا لا شك أن أكثرهم سيؤوب إلى الحق.

ومع هذا البيان والإدراك للمقصد، فإنْ وجِد من أصر على اشتراط المكان في ذبح ذبيحته، وهـو قبر ولي أو قُبة من القباب، فذلك دليل –عند الشيخ- «على أنه لا إخلاص في قلبه مطلقا، وإنما قصد بقُربانه هذا المخلوق لا الخالق، لأن الخالق في كل مكان»[1].

ويندرج ضمن هذا المدخل؛ علاج الشيخ لمسألة الإهلال لغير الله، ببيان الحكمة من تحريمه وهـي «حماية الناس من زيغ العقيدة»[2]، فقد وضح الشيخ الفرق بين الجانب المادي لما أُهِل لغير الله بـه، والجانب الروحي منه، الذي تنصب عليه الحِرمة، ذلك لأن أصله طيب لا يخشى منه ضرر جِسمانيّ، ولكن لما كان توجه المرء به قلْبيا لغير خالقه، صار محرما لأن الله تعالى يريد العبادة خالصة له[3].

هكذا اعتبر الشيخ التفقّه في حِكَم الشريعة وأسرارها علاجا فعالا، لهذا الشرك وغيره من مظاهره، إيمانا منه بأن «سبب الانحراف هو أخذ الناس لأحكام الدين على ظواهرها، دون الغوص في أسرارها وحِكَمها، ولذلك سرعان ما يزول الدين، كالشيء المهتز الذي لا يثبت»[4].

***المدخل الثاني: المحاكمة إلى العقل والمنطق**

عند إنكار الشيخ لقضية الإهلال لغير الله، ذكر صورة من التناقض العقلي عند المُتمسـكين بـه فقال: «والعجيب فِعلًا في الذين يجمعون بين ذكر الله وذكر غير الله، أ م يخفِضون صـوتهم عنـد ذِكْرهم لله؛ ويرفعونه عندما يذكرون غير الله ... وإذا لم يكن هذا إهلالا لغير الله، فماذا يكـون إذن ؟!»[5].

وفي علاج مسألة النذر لغير الله أو "الوعدة"، كان الشيخ يجادل المُتمسكين ـا، ويحـاجِجهم بالمنطق العقلي؛ وبضعف المنذور له في الأصل، ومما جاء في خطابه لهم: «وأنت عندما تقول: هـذه وعدتك يا سيدي فلان، ترى سيدك هذا؛ هل يملك الجنة فيدخلَك فيها؟ أم يملك جهـنم فينقِـذك

---

[1] - (م.ن).
[2] - (م.س): ص 221 وما بعدها.
[3] - (م.ن).
[4] - (م.ن).
[5] - (م.س): ص 217 وما بعدها.

منها؟، وكيف تقول: هذه وعدتك يا سيدي فلان، وسيدك هذا قد مات مِن قرون ؟»[1].

هذه بعض النماذج تبين محاكمة الشيخ للمتمسكين بالذبح لغير الله، إلى عقولهم، كـي يـدركوا تهافت دعاويهم، ومن ثَم تكون تلك المحاكمة سببا في عودتهم إلى رشدهم واتباعهم للحق.

بعد ما سبق من بيان أهم أقسام الشرك وصوره؛ التي تعرض لها الشيخ بيوض تحليلا وعلاجا، بقِي أن نرى نظرته إلى آثار التوحيد في الحياة؛ انطلاقا من نظرته العملية الواقعية إلى الإيمان والتوحيد.

المبحث الثالث: آثـار الإيـمان بالوحـدانيـة عند الشيـخ بيــوض

من خلال استقرائنا للأجزاء المحددة –سلفًا- من تفسير الشيخ بيوض، لاحظْنا اهتمامه الكُلـي – تقريبا- بآثار الوحيد في حياة الفرد المسلم، دون أن يوليَ اهتماما كبيرا لآثار التوحيد على المجتمـع المسلم، رغم تعرضه لخصائص ومقومات هذا المجتمع، إلا أن ربطها بالإيمان والتوحيد يكاد يكـون باهِتا[2].

ومن أهم الآثار الفردية التي تطرق إليها الشيخ، في أصل التوحيد ما يلي:

1. الاستعداد لقبول التكاليف الشرعية.
2. الأمن النفسي والطمأنينة القلبية.
3. الشعور بالعزة والكرامة.
4. الثبات والاستقرار.

1/ الاستعداد لقبول التكاليف الشرعية:

بمناسبة قوله تعالى: (ولَقَد اَرسلْناَ إلَىا ثَمود أَخاهم صاِلحا اَنُ اعـبدوا الله) (النمل: 45)، بـين الشيخ ثَمرةً من ثمار التوحيد على الفرد، وهي استعداده الداخلي لقبول شرع الله تعالى، فإذا عـرف المرء إلَهَه الحق، وأنه خالقه ومالك أمره، المتصرف في الأكوان وحده، وأنه لا راد لقضائه ولا معقب

---

[1] - (م.ن).

[2] - لقد أولى عدد من العلماء اهتماما كبيرا لآثار الوحدانية على المجتمع، منهم الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه "**الإيمان والحياة**"، والدكتور حسن الترابي في كتابه "**الإيمان أثره** في **حياة الإنسان**"، والدكتور عبد المجيد النجار في كتابه "**الإيمان بالله، وأثره** في **الحياة**".

لحكمه، وكان هذا الإيمان راسخا في القلب[1]؛ «حينئذ يكون المرء مستعِدا بطبيعته لقَبول كل ما يأتيه من قِبل الله، حتى ولو لم يدرك حكمته، لأنه يمتِثلُ لمُجرد أنه أمر الله، أو يتركه لمجرد أنه نهي الله، من غير نقاش، أو أن يفرق بين كون هذا قبيحا أو حسنا، لأنه يعتقد أنه ليس فيما يأمر الله تعالى به قبيح، ولا فيما ينهى عنه حسن»[2].

وهذه الثمرة هي ما عبر عنه القرآن الكريم بالتسليم ونفي الحرج عن النفس، تجاه تكاليف الشرع؛ في قوله تعالى: (فَلاَ وربـك لاَ يومِنونَ حتىا يحكموكَ فِيما شجر بينهم ثُم لاَ يجِدوا فِي أَنفُسِهم حرجا مما قَضيت ويسلموا تسلِيما) (النساء: 65)، فإذا كان يكفي لإثبات "الإسلام" –كما ذكر سيد قطب- «أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم رسوله، فإنه لا يكفي في "الإيمان" هذا، ما لم يصحبه الرضى النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب والجنان، في اطمئنان؟»[3].

2/ الأمن النفسي والطمأنينة القلبية:

إن إنسان العصر الحديث هو دائم البحث عن العلاج الناجع للخوف والقلق والفزع والاضطراب؛ الذي يعاني منه بصورة مستمرة، ذلك أن النفس تنزع بقطرتها إلى الأمن والاطمئنان، والعلاج الأنجع الذي قدمه القرآن لتحقيق الأمن النفسي؛ هو وصل الإنسان بالله تعالى، عن طريق الإيمان به وبوحدانيته، لأن هذا الإيمان يشعِره بأن له سندا قويا في الحياة، فيبعثه هذا الشعور على التغلّب على مشكلاته, وعلى وساوس قلبه، والنظر إلى الحياة بعين راضية مطمئنة[4].

وذلك ما أكده الشيخ بيوض في تفسيره، حين وضح قيمة الأمن النفسي، حيث ذكر أن «عذاب الضمير أصعب من تقييد الأيدي والأرجل، أما من كان مطمئن القلب فإنه يسبح في الفضاء بقلبه، ولو كان في بطون السجون مقيدا»[5].

كما بين الشيخ أن المسلم إذا وطن نفسه على الرضا بالقضاء –وهو ركن من أركان الإيمان بالله-

---

[1]- **تفسير سورة النمل**: ص 92-93.

[2]- (م.س): ص 93.

[3]- سيد قطب: مصدر سابق، ج 2/ ص 697.

[4]- ناهد الخراشي: **أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ط 4: 1423 هـ/ 2003م، ص 161-163.

[5]- **تفسير سورة الحج**: ص 357.

ون عليه مصائب الدنيا، مهما عظُمت، في البدن أو في المال أو الأهل؛ وتكون حالته مع الله دائمـا راضية مرضية، متيقنا أنه تعالى، إذا أعطاه شيئا فمن فضله، وإذا انتزع منه شيئا فهو له[1].

ويوجه الشيخ مستمعيه في خطاب مباشر، إلى حمل النفس على الرضا بالقضاء، مبينا ثمرته علـى النفس، فيقول: «... فعودوا أنفسكم على الرضى والقبول، تجدوا الراحة والهناء، والسلامة في القلب والنفس والجسم، والسلامة في الدين والعقيدة»[2].

ويزيد الشيخ للناس إغراءً بقيمة الإيمان والتوحيد، حين يبين لهم أن المؤمن الحق؛ حتى وهو في حال التعب والكدح في سبيل كسب الحلال، يعيش في راحة ولذة ومتعة[3].

3/ الشعور بالعزة والكرامة:

من آثار توحيد الله تعالى على النفس شعورها بالعزة والكرامة، هذا الشعور يفيض عليهـا مـن اعتقادها بأنّ لها إلهًا واحدا، هو الذي ينبغي عليها أن تذِل له وتنحني بين يدي عظمته، فلا تذِلّ لأحد سواه، وهذا ما وضحه الشيخ بمناسبة قوله تعالى: (...ومن يهِنِ اللهُ فَما لَه مِن مكْرِمٍ إن اللهَ يفْعلُ ما يشاَءُ) (الحج: 18)، حيث قال: «... فالمؤمنون في الدنيا؛ وإن أُهينوا وظُلِموا واضطُهدوا، فإنّ ما في قلوبهم من إيمان وطمأنينة ورجاء في الله وطمع في الآخرة، يجعلهم فوق الناس جميعا، فيسخرون مـن مال الدنيا ومتاعها وآلامها»[4].

ثم يؤكد الشيخ مبعث تلك العِزة في نفوس المؤمنين فيقول: «فهم أعِزاء ولو كانوا على المَشـانِق، وهم أعزاء لأنّ لهم ربا يحميهم، ويأويهم إليه؛ راضٍ عنهم، وهم أعزاء لأن نظرهم متجِه نحو الأعلى إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر»[5].

فمن مباعث العزة في نفس المؤمن –كما ذكر الشيخ بيوض- استعلاؤه على نفسـه وشـهواته، وتعلقه بالمُثُل العليا، كل كذلك يجعله يحيا «عاليَ الرأس، أَبِيا للضيم، عصِيا على الذل والهوان، بعيدا

---

[1]- **تفسير سورة الكهف**: ص 338.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة طه**: ص 438.

[4]- **تفسير سورة الحج**: ص 381.

[5]- (م.ن).

عن الشعور بالتفاهة والضياع والعدم والفراغ»[1].

4/ النجاة والنجاح:

إذا استقرت بذرة الإيمان والتوحيد في القلب، وتمكنت منه، وشعر هذا القلب بـالأمن والعِـزة، صدر عن صاحبه كل خير، لأنه ينطلق –مجتهدا متفائلا- في ميادين العمل والجهاد، فتكون تلـك البذرة سبب النجاح والانتصار في الحياة[2].

كما تكون بذرة التوحيد سببا لنجاة المرء في أحلك الظروف وأشد المصائب التي يتعـرض لهـا، وذلك ما بينه الشيخ بيوض حين كان يحلل قصة سيدنا إبراهيم υ مع قومه، والعِبر المستفادة منـها، فتطرق إلى مشهد نجاته من النار التي أُلقي فيها، بعد أن جعلها الله تعالى له بردا وسلاما (قُلْنا يا نـار كُوني بردا وسلاَما علَىآ ـإبراهِيم) (الأنبياء: 69)، حيث بين الشيخ أن في نجاة إبراهيم إكراما له، إذْ أبطل الله من أجله سنةً من سننه، وهي سنة الإحراق في النار، ثم بين الشيخ سِر هـذا الإكـرام؛ لأن إبراهيم لم يكْرم لعبادة زائدة على الأنبياء الآخرين، وإنما أكرمه الله للسلامة التي في قلبه[3]، (إِذْ جـآءَ ربـه ِبقَلْبٍ سلِيمٍ) (الصافات: 80).

والسلامة المقصودة هي «الإعراض عن كل ما سوى الله، بحيث لا يرى في الوجود غـير الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو إلا الله»[4].

لكن الشيخ عقِب هذا التحليل نبه إلى سوء الفهم للسلامة القلْبية، على أ ا تعني ترك الأسباب، بل المؤمن الحق هو الذي يجمع بين الاعتماد على الله واتخاذ الأسباب التي دله إليها[5].

ثم أشار الشيخ إلى أمثلة واقعية أخرى من تاريخ الأنبياء، تجسد تلك الثمرة الإيمانية وهي النجـاة، فسلامة القلب هي التي أنجت نوحا ومن معه في السفينة من الطوفان، وهي التي كانت سبب انفلاق البحر لموسى وقومه؛ ونجا م من فرعون وجنوده، وهي التي أنجت سيدنا محمد ρ وهو في الغار مع

1- القرضاوي: **الإيمان والحياة**، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 19: 1419 هـ/ 1998، ص 59.

2- **تفسير سورة الكهف**: ص 449.

3- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 87-88.

4- (م.س): ص 88.

5- (م.س): ص 90.

صاحبه[1]، «وهكذا إذ تتبعنا الرسل جميعهم، نجدهم في أخطر اللحظات ليس لهم إلا الالتجاء إلى الله تعالى ... وفي تلك اللحظات تـ ل الرحمات»[2].

5/ الثبات والاستقرار:

من أروع وأفضل ثمار التوحيد على الفرد المؤمن؛ مظهر الثبات على الإيمان والاستقرار في النفس؛ مهما تقلبت به الظروف والأحوال، وذلك ما بينه الشيخ بيوض بمناسبة تفسيره لقوله تعالى -في ذِكْر طَبع من طباع المنافقين وهو التذبذب-: (وِمن الناسِ من يعبد اللهَ علىا حرفٍ فَإِنَ أصابه, خير ِاطْمأَن ِبِهِ وإِنَ أصابته ِفتنةٌ ِانقَلَب علىا وجهِهِ خسِر الدنيا والآخِرةَ ذَِلك هو الْخسرانُ الْمِبين) (الحج: 11)، حيث وضح الشيخ مقابل تلك الصفة عند المؤمن الحق، فقال: «والمؤمن الحقيقي لا يتزلزل إيمانه، ولا يسيء الظن بربه مهما اشتد به بلاء الفقر، أو وصل به بلاء الغنى، فإن أعطاه الله تعالى أكثر مما أعطى أهل زمانه، فإنه لا يغير من طبعه ولا من عقيدته شيئا أبدا، يتمثل أوامر الله ويجتنب نواهيه، ولا يبطره غناه فيظْلم ويجور»[3].

وإذا أصاب هذا المؤمن شيءٌ من الضيق كالفقر –مثلا- كانت حاله مع الله ومع نفسه واحدة، -كما كانت من قبل- «يقول: "إن الله كريم، أبواب رحمته مفَتحة، وفضله واسع، فأنا أرجوه"، فلا يستخِفه فقْره فيثور فيسرق ... وإذا ابتلي بظُلْم جبارٍ فإنه يصبر ولا يستخِفه هذا الظلم، فيلجـأ إلى المداهنة في دينه»[4].

وقد أشار الشيخ إلى الأمثلة التي ساقها القرآن من تاريخ الأنبياء لثبات المؤمن الحق، ومن هـؤلاء سيدنا أيوب υ، الذي ابتلاه الله بالمرض؛ حتى صار لحمه يتفتت، ثم غير الله حاله إلى صحة وعافيـة فلم يتغير في إيمانه ولم يتبدل، كما كان إبراهيم υ في وسط النار؛ هو نفسه أيام عِزه ومجده، ويوسف υ لما صار عزيزا ِلمصر لم يتغير، بل كان ذاته يوسف الذي أُلْقِي في الجُب ثم أُودِع السجن[5].

ولعل من أحسن ما ورد في السنة في بيان قيمة تلك الثمرة الإيمانية؛ تعجب الرسول ρ من حـال

1- (م.س): ص 90-91.

2- (م.س): ص 91.

3- **تفسير سورة الحج**: ص 359.

4- **تفسير سورة الروم**: ص 355.

5- **تفسير سورة الحج**: ص 361-362، أنظر في هذه المسألة أيضا: **تفسير سورة طه**: 430-433.

المؤمن المُستقِرة حين قال: «عجبا لأمر المؤمن إنّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إذا أصابته نعماء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[1]، وقد استنتج الشيخ من هذا الحديث أن المسلم –فضلا عن ثباته- رابح للأجر والخير مهما كانت حاله، عند المرض أو الجوع، في حضره أو سفره ... والسر في ذلك عدم غفلته عن ربه أبدا[2].

هذه أهم الآثار والثمار الإيمانية التي وجدنا الشيخ بيوض يركز عليها في تفسيره، من الجانب الفردي، أما الجانب الاجتماعي فيكاد يكون ذكره منعدما –كما ذكرنا قبل- ولعل طبيعة التفسير التحليلي، والأسلوب الشفهي الذي ميز دروس الشيخ؛ فَرضا عليه ضعف الربط للمقومات الاجتماعية بأصل الإيمان والتوحيد.

---

[1]- رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم 5318، «...عن صهيبٍ قَالَ قَالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليهِ وسلم عجبا لِأمرِ الْمؤمِنِ إن أمره كُله خير وليس ذَاك لِأحدٍ إلا لِلْمؤمِنِ إنْ أصابته سراءُ شكر فَكَانَ خيرا له وإِنْ أصابته ضراءُ صبر فَكَانَ خيرا له»، ورواه أحمد في أول مسند الكوفيين، رقم 18175. **موسوعة الحديث الشريف**.

[2]- **تفسير سورة الحج**: ص 600.

نتائج الفصـل الثـــالث

من خلال ما سبق من علاجنا لمسألة وحدانية الله تعالى عند الشيخ بيوض، يمكن الخلوص إلى النقاط الآتية:

أولا/ تعني وحدانية الله عند الشيخ بيوض؛ تفرده تعالى في الذات والصفات والأفعال، بحيث لا يشاركه فيها أحد، وفي الحكم والعبودية من دون سواه.

ثانيا/ ما ميز الشيخ عند تطرقه لوحدانية الصفات، هو تنبيهه إلى المُباينة بين معاني صفات الخالق وصفات الخلق، وإن اشتركت في التسمية اللفظية، ذلك لأن الأولى حقيقية مطلقة، بينما الثانية مجازية ونسبية.

ثالثا/ يرى الشيخ أن الله تعالى هو الفاعل الحقيقي لكل أحداث وأفعال الكون. والنظام الكوني القائم على السببية؛ متعلق بإرادة الله القادر على تعطيله متى شاء، ومن أوجه الحكمة في ذلك النظام –كما يرى الشيخ- هو تربية الإنسان على الجِدّ والعمل.

رابعا/ يميل الشيخ إلى التفسير التفاؤلي لكل الأحداث والمصائب الكونية، مهما بدا في ظاهرها من شرور، إذ يرى وجوب اعتبارها بلاءً، قد دفع الله به بلاءً أكبر منه، وذلك تنزيها لله عن الشرور في أفعاله.

خامسا/ في بيان الشيخ لوحدانية الله في الحُكم والتشريع، كان يقنع مستمعيه بوجوب الاحتكام إلى شرعه تعالى بجملة من الدواعي لذلك، قسمناها إلى اعتبارين؛ الاعتبار الأول: استشهاده بكمال الصفات الإلهية، أما الاعتبار الثاني: فاستشهاده بصفات النقصان البشرية، التي لا تؤهلهم بحالٍ إلى تشريع نظام شامل لحياتهم يكفل لهم سعادة الدارين.

سادسا/ يسلك الشيخ المسلك العقلي الذي سلكه القرآن في إثبات وحدانية المعبودية، إذ يعتبر توحيد الله في العبادة والشكر؛ نتيجة منطقية لتوحيده في الخلق والرزق، والنفع والضر.

سابعا/ يعني الشرك بالله تعالى عند الشيخ بيوض: نسبة شيء من التصرف الغيبي في الكون؛ لغير الله مع الله، اعتقادا في قوته على جلب النفع ودفع الضر، أو طاعته فيما يدعو إليه طاعة عمياء دون تقيد بالشرع.

ثامنا/ لقد كان الشيخ بيوض ممن تأثر بالمفهوم الشائع للشرك؛ وهو مرادفته لمصطلح الكفر الذي

يعني: إنكار أصل من أصول الإيمان، ولذا أدرج الشيخ الإلحاد بالله تعالى ضمن أقسام الشرك، مع أن حقيقة الشرك هي إيجاد آلهة مع الله أو دونه، ونقيضه الإخلاص أو التوحيد.

تاسعا/ لقد كان الشيخ بيوض واقعيا في تناول قضية الإلحاد بـالله، فلـم يعالجهـا كتعريفـات اصطلاحية جافة، بل انطلق من موارد ذِكْر القضية في القرآن، ثم أنزلها على واقعه الذي كان ولا يزال يشهد مظاهر متجددة من الإلحاد، متمثلة في التيارات الفكرية التي نشأت في الغرب واستهوت معها طوائف من الشباب المسلم، وقد ركّز الشيخ على تياري: الشيوعية والعلمانية، بتبيين مضامين كـلّ منهما، وأسباب انتشاره بين الشباب المسلم، ثم تقديم العلاج الرباني للقضية؛ بعودته إلى القرآن مـرة ثانية.

عاشرا/ للشيخ بيوض منهج متميز في معالجة مختلف مظاهر الشرك، يتمثل في انطلاقه من الحُجج والدوافع التي تدفع المشركين إلى فعلهم، فيحللها ثم يبين بطلا ا وتهافُتها بقوة الحُجـة، إلى جانـب وصفه الدقيق لطقوس المشركين، وبيان غرابتها ومتناقِضا ا مع الشرع والعقل.

أخيرا/ لقد كان الشيخ يبرز كثيرا قيمة الإيمان بالوحدانية في تفسيره، ببيان آثارها في حياة الفـرد المسلم، التي تنصب على اتزان الشخصية المسلمة وفعاليتها في الحياة، لكـن الشـيخ لم يـول ذات الاهتمام لآثار التوحيد على الجماعة أو ا تمع المسلم.

الفصل الرابع

منهج الشيخ بيوض

في بيان صفات الله تعالى

تمـــهيـــــــــد: الصـــفات وأقـــسامـــــــها

- **أولا/ مفهوم الصفات الذاتية**
- **ثانيا/ مفهوم الصفات الفعلية**

المبحـــــــث الأول: الصفـــــات الذاتيــــــــة

- **أولا/ صفة العلم**
- **ثانيا/ صفة القدرة**
- **ثالثا/ صفة الإرادة**

المبحـــــــث الثاني: الصفـــات الفعليــــــــة

- **أولا/ صفة الرزق**
- **ثانيا/ صفة الرحمة**

المبحـــــــث الثالث: الصفـــات المتشابهـــــة

- **أولا/ ثبوت الصفات المتشابهة والخلاف في فهمها**
- **ثانيا/ موقف الشيخ بيوض من الصفات المتشابهة**
- **ثالثا/ نماذج من تفسير الشيخ بيوض لآيات الصفات**

1. **صفة النفس**
2. **صفة العين**
3. **صفة الوجه**
4. **صفات اليد والقبضة واليمين**
5. **صفة العرش والاستواء عليه**
6. **صفة رؤية المؤمنين لله تعالى**

المبحث الرابع: منهج الشيخ بيوض في عرض الصفات

أولا/ تناسب الصفات في أسمائها مع مدارك العقول

ثانيا/ تناسب الصفات مع سياقها القرآني

ثالثا/ تناسب الصفات مع تجلياتها الكونية

رابعا/ أثر الإيمان بالصفات

نتائج الفصـــــل الرابـــــــع

تمـــــهيـــــــــد: الصـــفات وأقـــسامــــــــها

يعتبر الإيمان بصفات الله تعالى من أهم مباحث عقيدة الألوهية، وذلك لأ ا تزيد المؤمن معرفـةً بربه تعالى؛ الذي احتجبت حقيقة ذاته عن عباده، فبقي أن يعرفوه من صفاته وتجليا ا في مخلوقاته، وبما أن دراستنا تتعامل مع تفسيرٍ للقرآن الكريم -والذي استغرقت فيه أسماء الله وصفاته؛ حيزا غير يسير- فقد وجدنا المفسر لكتاب الله، الشيخ بيوض –رحمه الله- أولى عناية كبيرة ذا الموضوع.

وصفات الله التي ينبغي على المؤمن معرفتها والإيمان ا، هي صفات كثيرة، غير منحصرة تحت عدد معين، فقد حاول علماء العقيدة في مؤلفا م أن يحصوها ويقسموها أقساما، لكنهم –حسب رأي عبد ا يد النجار- لم يكونوا يقصدون بذلك إلا أغراضا تعليمية، دون أن يقصدوا الحصـر النهائي والتقسيم اللازم، ولذلك كان بينهم اختلافات في عد الصفات وتسـميتها، وفي طرائـق التنويع ونتائجه[1].

مما سبق نتساءل: ما مفهوم الصفات الإلهية عند الشيخ بيوض ؟ وهل اعتمد تقسيما معينا؛ وهو يفسر كتاب الله تعالى؟

لقد وجدنا للشيخ تعريفا جزئيا للصفات؛ وهو يعرف معنى أسماء الله الحسنى، إذِ اعتبرهما شـيئا واحدا فقال: «وأسماء الله هي صفاته، وهذه الصفات ألفاظ عربية، لها معان معروفة معقولة، وهذه المعاني تستعمل ويوصف ا أناس، فيقال: فلان رحيم، وفلان جبار، وفلان عزيز، وهذه الصفات إذا أُجريت على الله تعالى فهي حقيقية، فهو الرحيم حقا والجبار حقّا والعزيـز حقّـا، وأمـا إذا أجريت على غير الله تعالى فهي غير حقيقية، وإنما تدل على شيء بسيط من هذه المعاني لا تقـاس ولا توزن بصفات الله تعالى»[2].

إن هذا كل ما وجدناه في تعريف الصفات عند الشيخ بيوض –من خلال ما اطلعنا عليه مـن تفسيره-، وما نلاحظه في هذا التعريف أنه لم يميز بين صفات الله تعالى وأسمائه، وأنه ركّز علـى التفرقة بين صفات الله وصفات خلقه، والتي تشترك في الألفاظ دون المعـاني، فصـفات الخـالق حقيقية مطلقة، وصفات الخلق غير حقيقية ونسبية.

---

[1]- النجار: مرجع سابق، ص 112.

[2]- **تفسير سورة مريم**: ص 151-152.

وقد ضرب الشيخ أمثلة واقعية؛ بين فيها المفارقة بين النوعين من الصفات، وأنه لا يوجد لأحد صفاتٌ كصفات الله، فقد يوصف شخص بأنه مِلك، لكن ملْكه نسبي، لأنه محفوف بالمكاره، لم يكن ثم كان، وهو بعد ذلك إلى الزوال، وقد يوصف آخر بأنه عليم، لكن –يتساءل الشيخ- ما هو علمه إزاء علم الله؟ فقد كان جاهلا ثم لقّنه إياه غيره، فعلمه غير ذاتي، ومهما بلغ فيه من درجات، فإنه لا يذكر أمام علم الله الذي يقول عن نفسه[1]: (ولَو أنما في الأرض مِن شجرةٍ أَقْلاَمٌ والْبحر يمده مِن بعدِهِ سبعةُ أَبحرٍ ما نَفِدت كَلِمات الله) (لقمان: 27)، وهكذا انتهى الشيخ إلى نتيجة لخصها بقوله: «فالألفاظ إذن تتشابه بين صفات الله وصفات عباده، ولكن يستحيل المقارنة بينها»[2].

وما نحسب هذا التركيز على التفرقة بين النوعين من الصفات؛ إلا حِرصا من الشيخ على تثبيت مبدأ التنزيه في النفوس؛ تنزيه الله عن مشابهة خلقه له، في أي صفة من صفاته العلا أو اسم من أسمائه الحسنى.

أما عن تنويع الصفات، فقد تعددت تقسيمات العلماء لها، والمعروف منها عند علماء الإباضية ثلاثة هي:

1. تقسيمها إلى صفات ذاتية، وصفات فعلية.
2. تقسيمها إلى صفات ذاتية، وصفات فعلية، وصفات ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار.
3. تقسيمها إلى صفات جائزة، وصفات واجبة، وصفات مستحيلة[3].

والتقسيم الأكثر شهرة واستعمالا عند الإباضية –كما يرى مصطفى وينتن– هو التقسيم الأول[4]، وقد أشار إليه الشيخ بيوض في موضع من مواضع تفسيره حين كان يتحدث عن الأسماء الحسنى فقال: «... وكل اسم من أسمائه يدل على صفة جميلة حسنة، إما صفة ذاتية، وإما صفة

---

[1] - (م.س)، ص152.

[2] - (م.ن).

[3] - وينتن: مرجع سابق، ص119-120.

وانظر: السالمي، أبو محمد عبد الله بن حميد: **مشارق أنوار العقول**، طبع في مطابع العقيدة، سلطنة عمان، ط2: 1398 هـ/1978م، ص169-175. والجيطالي: مصدر سابق، ج1/ ص7-9. والجعبيري: مرجع سابق، ج1/ ص229-250.

[4] - وينتن: مرجع سابق، ص 120.

فعلية»[1]، ولذا سنعتمد هذا التقسيم ونحن ندرس الصفات الإلهية عند الشيخ بيوض، مع أن تقسيم الصفات أمر اعتباري، ولا يعني التقسيم اللازم –كما ذكرنا ذلك عن عبد ا يد النجار سـابقا- خاصة وأن دراستنا تنصب على تفسير تحليلي للقرآن، لا على مؤلف مستقل في العقيدة مصـنف على أبوا ا ومسائلها، فما هي صفات الذات وما هي صفات الأفعال؟

أولا/ مفهوم الصفات الذاتية:

«هي الصفات التي لا أول لها، ولا يوصف الله تعالى بضدها، أزلية لا تتجدد، ولا تجتمع مـع ضِدها في الوجود ولو اختلف محل تعلقها؛ فالعلم مثلا: صفة لله تعالى ذاتية؛ بمعنى أنه عـالم منـذ الأزل، وعلمه لا يتجدد، ولا يكتسب مثل علم مخلوقاته، ولا يوصف بضد العلم وهـو الجهـل، سواء تعلق العلم بشيء واحد أو أشياء متعددة»[2].

وأهم الصفات الذاتية هي الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والإبصار، والسـمع[3]، ونحن نقتصر في هذه الدراسة على صفات ثلاثة: العلم والقدرة والإرادة، نظرا لبروز تحليلها أكثـر في تفسير الشيخ بيوض.

ثانيا/ مفهوم الصفات الفعلية:

«هي ما دل على أفعال الله تعالى، وتختلف عن صفات الذات؛ في أن صفات الأفعال محـدودة البداية، مرتبطة بالزمان غير قديمة، يمكن أن يتصف الله تعالى بضدها، ومثل ذلك فعل الخلق: فالله خالق، والخلق صفة فعل، وقع بعده في الزمن، يخلق متى شاء ويمكن ألا يخلق، وكـذلك الإحيـاء والإماتة والرزق، فهي أفعال متجددة غير محصورة»[4].

ونحن نقتصر في هذه الدراسة على صفتي: الرزق والرحمة، لننظر تصور الشيخ بيوض لهما.

المبحـــــث الأول: الصفـــــات الذاتيـــــــة

---

[1]- **تفسير سورة الإسراء**، ص241.

[2]- وينتن: مرجع سابق، ص120. وانظر: اطفيش: **الذهب الخالص**، ص29. والسالمي: مصدر سابق، ص172-175.

[3]- الجعبيري: مرجع سابق، ج1/ص230.

[4]- وينتن: مرجع سابق، ص124، وانظر: اطفيش: **الذهب الخالص**، ص29. والسالمي: مصدر سابق، ص172-175. والجعبيري: مرجع سابق، ج1/ص245.

أولا/ صفة العلم

نود أن نشير بداية إلى أن الشيخ لم يكن في تفسيره يشرح صفات الله تعالى شرحا اصطلاحيا دقيقا، بل كان يهتم أكثر بذكر متعلقا ا، وشواهدها الكونية، ومقاصدها العملية.

1/ العلم الإلهي ومتعلقاته:

يركز الشيخ –كلما تطرق إلى العلم الإلهي- على الإحاطة المطلقة لهذا العلم وشموله لكل شيء[1]، مع أنه لم يذكر أنواع هذه الإحاطة باسمها وإنْ ضمنها في حديثه، وقد وجدنا تقسيم هذه الأنواع عند عبد ا يد النجار، حيث قال: «وتتفرع إحاطة علم الله بالمعلومات إلى إحاطة زمانية، يكون ا كل شيء معلوما له، في كل الأزمان ماضيا وحاضرا ومستقبلا منذ الأزل وإلى الأبد، وقبل أن يوجد وعند وجوده وبعد فنائه ... وإحاطة مكانية يكون ا كل شيء معلوما لله في كل مكان كان فيه؛ سواء أكان ظاهرا أو خفيا، وإحاطة موضوعية يكون ا كل شيء معلوما له على تنوع موضوعه، سواء أكان أجساما أو حركات أو أفكارا وخواطر ونوايا تخالج الصدور»[2]، فإحاطة علم الله –حسب رأي النجار- تتنوع إلى إحاطة زمانية ومكانية وموضوعية.

وقد تطرق الشيخ بيوض إلى الإحاطة المكانية والموضوعية في تفسيره لقوله تعالى –على لسان لقمان وهو يعظ ابنه-: (يا بني إنهآ إن تك مِثْقَالُ حبةٍ من خردلٍ فَتكُن فِي صخرةٍ أوفِي السماواتِ أوفِي الآرضِ ياتِ بِها الله إن الله لَطِيفٌ خبِيرٌ) (لقمان: 16)، أما الإحاطة الموضوعية فقال عنها الشيخ: «أراد لقمان أن يركز في قلب ولده عقيدة كون الله تعالى عالم الغيب والشهادة، وكونه مطلعا على الخفايا والأسرار، وكونه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وكونه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ... بل ليس علمه ا فقط، وإنما بكونه يأتي بالذرات التي ربما يظن أنه يجهل مكا ا»[3].

وأما الإحاطة المكانية لعلم الله فهو موضوع الآية؛ الذي استفاض الشيخ في تحليله، وهو عبارة عن مثال ضربه الله تعالى –على لسان لقمان- لبيان شمولية علمه في المكان، واستعمل في المثال حبة

[1]- انظر: **تفسير سورة الكهف**: ص437-438، **تفسير سورة لقمان**: ص270.

[2]- النجار: مرجع سابق: ص 135.

[3]- **تفسير سورة لقمان**: ص 266.

الخردل، جريا على أسلوب العرب في التمثيل بها للشيء الحقير والقليل[1]، وتثبيتا للمعنى علل الشيخ ذكر وجود حبة الخردل في ثلاثة أماكن: في الصخرة وفي السماوات وفي الأرض.

وذلك لبيان قصور علم الإنسان وإحاطته بهذه الأماكن، حيث مثّل تعالى بالصخرة للصلابة، إذ لا يمكن التوصل إلى الحبة داخل صخرة صلبة، ومثّل بالسماوات في البعد، لأن بعد المسافات بينها لا يحيط بها الإنسان تقديرا، ومثل بالأرض للظلمة التي في جوفها[2]، يقول الشيخ: «فما يمنع مـن الوصول إلى شيء، إما كونه محاطا بشيء صلب متين لا يخترق، وإما كونه في مكان بعيد، وإما كونه في مكان مظلم، وبالجمع بين الصخرة والسماوات والأرض، ندرك أن الشيء مهما كان في مكان بعيد، أو كان في مكان مظلم، أو كان محاطا بحصن أمين، فإن الله يعلمه ويأتي به ويجـازي عليه»[3].

ويستأنف الشيخ في بيان المقصد من تصوير هذا المثال قائلا: «والمعنى المراد هو أنه ليس هناك ما يمتنع عن الله تعالى مهما صغر وحيثما كان، وهذا من بديع تصوير القرآن»[4].

2/ المقصد العملي من ذكر صفة العلم:

إن المقصد العملي من الإيمان بصفة العلم الإلهي –كما ذكر الشيخ بيوض- هو جعل المـؤمن يستقيم على صراط الله، ويستعلي على أهوائه ونزواته، فإذا تذكر المرء أنه لا شيء من أعمالـه –مهما حقُر ودق- يمكن أن ينساه الله، أو ألاّ يحضره يوم القيامة –لإحاطة علم الله به- «فكيـف يتصور مع الإيمان بهذا أن يعصي أحد الله تعالى طرفة عين، في ملأ أو خلاء، وليس هناك مكـان يوجد فيه، إلا والله معه»[5]، كما قال تعالى: (ما يكُونُ مِن نجوىا ثَلاَثَـةٍ اِلا هـو رابِعهـم...) (المجادلة: 07).

وقال الشيخ في موضع آخر عن ثمرة الإيمان بعلم الله: «فإذا رسخت هذه العقيدة في قلب إنسان

---

1 - (م.ن).
2 - (م.س) ص270.
3 - (م.ن).
4 - (م.ن).
5 - (م.س) ص271.

وكان دائم التفكير فيها، فلابد أن يستقيم ولا ينحرف، وإذا أخطأ مرة فسرعان ما يعود»[1].

وقال أيضا: «وإذا تمكن هذا الإيمان وارتكز في نفس المرء، فإنه يعينه على هواه وعلى شيطانه، فيستقيم على الصراط ويسهل عليه عمل الخير، ويصعب عليه عمل الشر»[2].

3/ علم الله والفعل الإنساني:

قد يتبادر إلى أذهان بعض الناس إشكال في العلاقة بين علم الله تعالى وفعل الإنسان، هل الله تعالى يعلم أفعال عباده بعد صدورها منهم، كما يفهم من بعض الآيات[3]، فيكون علمه ا حادثا، بعد أن لم يكن؟ أم أنه تعالى يعلمها قبل وقوعها، فتكون بسبب العلم المُسبق ا؛ واقعةً على سبيل الجبر والإكراه؛ فيكون الإنسان مجبرا في أفعاله ؟[4]

في الحقيقة هذا الإشكال قد طُرح منذ القديم، ووقع حوله جدال كبير بين المتكلمين وعلماء الفرق، وسودت بسببه صحائف كثيرة في كتب علم الكلام، فيما يعرف بـالجبر والاختيار أو الهداية والإضلال أو غيره من المصطلحات، ورغم أن الشيخ بيوض كان يعيب كثيرا على مناهج المتكلمين والمسائل الفلسفية التي يطرحو ا في العقيدة، إلا أن بعضا من هذه المسائل كان يطرحها الشيخ مراعاة لآثارها في ا تمع أو في الطبقة المثّقفة –خصوصا- والتي تمثل طلبة معهده، وقصدا إلى تصحيح المفاهيم حولها؛ انطلاقا من هدي القرآن، لا من أدلة علم الكلام، واصطلاحاته المُعقّدة، ومن ذلك هذه المسألة: علم الله وفعل الإنسان، التي وجد ويوجد في كل بيئة وفي كل عصر من قد يفهمها فهما منحرفا، بنظره القاصر في ظواهر بعض الآيات المفيدة للجبر، فيكون ذلك داعية إلى التكاسل والتسوف في العمل، اتكاء على القَدر والعلم الإلهي، فكان طرح الشيخ للمسألة –حسب رأينا- دف دفع الناس نحو الفاعلية في العمل الدنيوي والأخروي، وهجر مفاهيم العجز والتكاسل والتواكل.

ففيما يخص شبهة كون علم الله المُسبق بأفعال الإنسان، يجعلها واقعة على سبيل الجبر، فقد

---

[1]- (م.س) ص266.

[2]- (م.س) ص277.

[3]- كقوله تعالى: (لِنبلُوهم أيهم أحسن عملاً) (الكهف: 7)، وقوله: (فَلَيعلَمن الله الذِين صدقُوا ولَيعلَمن الْكَاذِبِين) (العنكبوت: 3).

[4]- النجار: مرجع سابق، ص137.

تطرق إليها الشيخ وهو يتحدث عن مسألة الهداية والإضلال؛ في تفسيره لقوله تعالى: (ومن يهدِ الله فَهو الْمهتدِي ومن يضلِلْ فَلَن تجِد لَهم أَولِيآءَ مِن دونِهِ...) (الإسراء: 97)، فقد اعتبر الشيخ بداية؛ أمر القلوب وأمر الهداية والإضلال سِرا من أسرار الله تعالى، لا يمكن لأحد الاطلاع على كنهه، تماما مثل مسألة الروح[1]؛ التي قال فيها تعالى: (ويسأَلُونك عنِ الروحِ قُلِ الروح مِن أَمرِ ربي ومآ أُوتيتم من الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً) (الإسراء: 85)، وقد أشار الشيخ إلى الجدال الطويل الذي دار بين علماء الكلام في الموضوع، والذي اعتبر الخوض فيه خطير وغير لائق، لأنه بحث في سر من أسرار الله، واعتبر أنّ كل الأقوال التي قيلت في المسألة لا تصل إلى الحد الذي تطمئن إليه النفس ائيا[2].

وللخروج من الإشكال انطلق الشيخ من أصول عقدية متفق عليها وبنى عليها تحليلاته، محاولا إيجاد الانسجام الفكري بينها حتى لا تضطرب فيها الأفهام، *فالمنطلق الأول* الذي بادر به هو وجوب الإيمان بأن الله عدل لا يجور، كما أخبر عن نفسه في آيات كثيرة: (إِن الله لاَ يظْلِم الناس شيئًا ولَكِن الناس أَنفُسهم يظْلِمونَ) (يونس: 44)، فمِن عدله تعالى أنه لم يجبر العصاة على المعاصي، ولم يرغم الكفار على الكفر[3]. أما *المنطلق الثاني* فهو التأكيد بأن علم الله بعباده وأفعالهم لا يتخلف أبدا، لأنه خلقهم بيده، وهو أعلم بمن خلق، (أَلاَ يعلَم من خلَق وهو اللطِيف الْخبِير) (الملك: 14)، يعلم ما يختار كل واحد منهم إذا مكن من الاختيار، فيعلم أن هذا الإنسان تصله دعوة ربه وتقوم عليه الحجة، لكنه يغلب على أمره من نفسه وشيطانه، ويموت على المعصية، ويعلم تعالى من الآخر أنه يتقبل هداية الله ويتبع سنن الأنبياء، ويموت مؤمنا، ولذلك كتب الله في كتابه هذا سعيد، وذاك شقي، وهو ما يتحقق في الواقع[4]. أما *المنطلق الثالث* للمسألة، فهو وجوب الإيمان بأن الله فعال لما يريد؛ لأن له الإرادة المطلقة، كما أثبت ذلك في آيات عديدة، لكنه من جهة أخرى أعطى الإنسان نوعا من الحرية والاختيار[5]، والشاهد على ذلك أوضح من أن يستدلّ

---

[1]- تفسير سورة الإسراء: ص 189.

[2]- (م.ن).

[3]- (م.س)، ص190.

[4]- (م.س)، ص190-191.

[5]- (م.س)، ص190.

عليه، لأن كل إنسان يشعر به من داخله، فنحن –كما يقول الشيخ-: «نشعر من نفوسنا أننا مريدون، بل الشعور بالاختيار في نفوسنا قد تجاوز حده إلى حد الاعتزاز والافتخار به؛ فإذا عصينا فبإرادتنا عصينا، وإذا أطعنا فبإرادتنا أطعنا، دون أن نكون مدفوعين أو مجبورين»[1].

والمنطلق الرابع للمسألة هو أن الله تعالى لم يترك عباده حيارى، يتخبطون في مسالك الحياة على غير هدى، بل تفضل عليهم بهداية السبيل، كما قال تعالى: (إِنا هديناه السبيلَ إِما شاكِرا وإِما كَفُورا) (الإنسان: 3)، فأرسل إليهم رسلا وأنزل عليهم كتبا، بين لهم فيها طريق الخير وطريق الشر،[2] إقامةً للحجة عليهم (ليهلك من هلَك عن بينةٍ ويحيا من حيي عن بينةٍ) (الأنفال: 42).

بهذا المسلك التوفيقي بين النصوص؛ حاول الشيخ بيوض الخروج من الإشكال، بما يحفظ إيمان الناس ويقوم سلوكهم، مع دعوته إلى التوقف عند هذا الحد من الفهم دون تكلف فقال: «... وهنا يجب أن ينتهي علم البشر، هذا بحر خضم لا نشغل به نفوسنا، ونصيحتي للجميع ألا نحاول الخوض فيه، فإنه لا يدخل فيه أحد إلا وتزِلّ قدمه ويغرق ولا تكون له منجاة، وعلينا أن نؤمن أن (ومن يهدِ الله فَهو الْمهتدِي ومن يضلِلْ فلَن تجِد لَهم أَولِيآءَ مِن دونِهِ)، هذا أقل ما يمكن أن يقال حتى نحفظ عقيدتنا من الزيغ، ونحفظ قلوبنا من الزلل»[3].

وقد وجدنا بيان العلاقة بين علم الله وأفعال العباد بصورة أوضح وأوجز عند الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله-؛ حين ذكر أن العلم الإلهي لا يتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك أي بصلة سببية، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح، فعلم الله يتبع الفعل الإنساني، ولا يتبعه هذا الفعل، غاية ما يمتاز به العلم الإلهي أنه لا يكشف الأشياء على حاضرها فحسب، بل يكشفها أيضا على ما كانت عليه، وعلى ما ستكون عليه سواء بسواء[4].

إن وصف علم الله بأنه كاشف ومظهر للأعمال، هو الجواب الذي أجاب به الشيخ بيوض على

---

[1] - (م.ن).

[2] - (م.ن).

[3] - (م.س)، ص191.

[4] - الغزالي، محمد: **عقيدة المسلم**، دار الشهاب، باتنة-الجزائر، ط: 1985م، ص100. وانظر مثل هذا الرأي عند: النجار: مرجع سابق: ص138.

الإشكال الآخر الوارد على العلاقة بين علم الله وأفعال العباد، وهو وجود بعض الآيات التي قد يفهم من ظاهرها، أن الله يعلم أفعال عباده بعد صدورها، وبالتالي فعلمه تعالى ا حادث بعد أن لم يكن؟!، فبمناسبة تفسيره لقوله تعالى: (إنا جعلْنا ما علَى الآرضِ زينةً لَها لِنبلُوهم أيهم أحسن عملاً) (الكهف: 7)، ودفْعا للإشكال السابق قال الشيخ في معنى (لِنبلُوهم أيهم أحسن عملاً): «ليظهر من الناس ما علمناه فيهم»[1]، ثم استأنف قائلا: «فليس الله جاهلا يطلب علما بالابتلاء –حاشاه- وإنما ليظهر فيهم مكنون علمه»[2].

وفي تفسير الشيخ لآية أخرى في موضوع الابتلاء وهي قوله تعالى: (ولَقَد فَتنا الذِين مِن قَبلِهم فَلَيعلَمن الله الذِين صدقُوا ولَيعلَمن الْكَاذِبين) (العنكبوت: 3)، بين الشيخ أن علم الله أزلي قديم، لأنه يعلم من يصدقه ومن يكذّبه قبل الاختبار، لكنه لا يحاسب عبده على أساس علمه القديم فيه –ولو أنه لا يتخلّف- وإنما يحاسبه على ما ينجزه من عمل في الواقع، محققًا به علم الله في الأزل[3].

ثانيا/ صفة القدرة

1/ القدرة الإلهية ومتعلقا ا:

القدرة الإلهية «هي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى، ا يكون كل ما تعلقت به مشيئة الله من خلق وإفناء، ومن تدبير لسيرورة الموجودات بين الخلق والإفناء»[4].

هذا تعريف من تعريفات القدرة، إلا أننا لم نجد عند الشيخ بيوض مثل هذا التعريف الاصطلاحي، لكنه كان يهتم أكثر بمتعلقات القدرة وشواهدها، فقد وصفها بأ ا: عامة شاملة لكل شيء، ولا يشذ عنها شيء، كما لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض[5]، هكذا فهم وعرض الشيخ صفة القدرة وتعلقها، ببساطة عرضها في القرآن الكريم: (إِن اللَه علَىٰ كُل شيءٍ قَدِيرٌ) (البقرة: 20)، فقدرته تعالى محيطة بكل شيء، هكذا بإجمال دون

---

[1]- **تفسير سورة الكهف**: ص52.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة العنكبوت**: ص12-13.

[4]- النجار: مرجع سابق: ص139.

[5]- **تفسير سورة الكهف**: ص200.

تفصيل، لكن بعض علماء العقيدة، تكلّفوا في فهم تعلّق القدرة، فأقحموا فيها أقسـام المعلـوم: الواجب، الممكن، والمستحيل، ومدى تعلق القدرة ا، فقالوا إنّ القدرة ليست بمحيطة؛ كـالعلم بالممكنات والواجبات والمستحيلات، بل هي متعلقة بالممكنات فقط، وهي ما يجـوز في حقـه الوجود والعدم على حد سواء، فهذه تحيط ا القدرة إحاطة مطلقة في كل زمان ومكان، وأمـا المستحيلات التي لا يمكن أن توجد بحال، والواجبات التي لا يمكن إلا أن تكون موجـودة علـى الدوام، فإن القدرة الإلهية ليس لها فيها أثر، بل ليس لها ا تعلقٌ أصلاً[1].

ويقترب من هذا الرأي ما ذهب إليه الشيخ اطفيش، حيث رأى أن قدرته تعالى تتعلق بالممكن لا بالمستحيل، فلا يقال إنه قادر على المستحيل ولا غير قادر عليه، لأن المستحيل لا يصدر منـه، ولا يعني ذلك أنه عاجز عنه، ولذا لا يقال إنه قادر على اتخاذ الصاحبة والولد ولا غير قادر، لأنه مستحيل في حقّه أن يتخذهما، وم ه عن العجز وعدم القدرة[2].

إن مسألة تعلّق القدرة بإيجاد المستحيل –كما يلاحظ- مسألة دخيلة على بساطة العقيدة كما يعرضها القرآن, وبعيدة عن مدارك عامة الناس، وليس من ورائها بعد إيماني ولا عملي، ولذلك لم يتطرق إليها الشيخ بيوض أصلا؛ في بيانه لمتعلقات القدرة، ولقد علّق مصطفى وينتن –الـدارس لآراء الشيخ اطفيش العقدية– على تلك المسألة التي طرحها شيخه بأ ا جمع للمتناقضات، واعتبر إيجاد المستحيل أمرا متناقضا مع الكمال الإلهي، والكمال الحقيقي هو إيجاد الانسجام في الوجود، فاتخاذ الصاحبة والولد –مثلا- مناقض للألوهية، وطلب إيجادهما يدل على عدم التفرقة بين عـالم الموجودات المخلوقة، والعالم الغيبي، وصفات الألوهية الحقّة، ولا يتعلق الأمر فيهما بقدرة الله تعالى وعدم قدرته[3].

2/ القدرة الإلهية وشواهدها:

إن مبدأ شمول القدرة الإلهية وإحاطتها بكل شيء، قد جسده الشيخ في بيان شواهدها، إمـا في الآفاق والأنفس أو في تاريخ الأنبياء أو في الأخبار الإيمانية الغيبية؛ الوارد ذكرها في القرآن، فلا يمر

---

[1]- النجار: مرجع سابق، ص139، وانظر في المسألة أيضا: البوطي: مرجع سابق، ص122.

[2]- وينتن: مرجع سابق، ص 122، نقلا عن: اطفيش: **هميان الزاد إلى دار المعاد**، نشر وزارة التراث القومي، عمان، ط2: 1980م، ج1/ص324- **الذخر الأسنى** في **شرح أسماء الله الحسنى**، (د.م)، ط حجرية: 1326هـ، ص203 وغيرها ...

[3]- (م.ن).

الشيخ على واحدة من تلك الموضوعات، إلا ويستنطق منها القدرة الإلهية، ويثبت في النفوس الاعتبار منها وتقوية الإيمان ا.

أ) من شواهد القدرة في الأنفس:

من شواهدها مراحل تخلّق الإنسان، التي استفاض الشيخ في تحليلها في أكثر من موضع، مشيرا إلى الحقائق العلمية الواردة فيها حديثا، ومخللاً كل ذلك بلفت الألباب إلى مظاهر عظمة الله وقدرته، وداعيا إلى ترسيخ الإيمان ا[1].

فبمناسبة قوله تعالى: (وهو الذِي خلَق مِن الْمآءِ بشرا فَجعلَه نسبا وصِهرا وكَانَ ربك قَدِيرا) (الفرقان: 54)، علّق الشيخ على قيمة الآية، فبين أ ا بسيطة وصغيرة في حروفها، ولكن لِعِظَم مدلولا ا؛ لن يستطيع البشر مجتمعين من أولهم إلى آخرهم إدراك أسرارها[2]، وأشار إلى أنه من السهولة بمكان «أن يقول أحد: حملت المرأة وولدت، هكذا بكل بساطة، ولكن العجب كل العجب يكمن في ذلك؛ سبحان الله؟ ولذلك عقب بقوله: (وكَانَ ربك قَدِيرا) »[3].

وكان الشيخ وهو يحلل حقائق تلك الآية، يستعمل أسلوبا تعجبيا، فيكثر من ألفاظ التعجب، كل ذلك قصدا منه إلى إثارة مشاعر الإيمان بعظمة الله وقدرته في نفوس مستمعيه، يقول الشيخ: «ولا يوجد في الكون أجهزة؛ إلا وفي الإنسان أدق منها، لا يدرك دقّتها إلاّ الله تعالى، والعجب كل العجب أن تكون جميع تلك الأجهزة منطوية في السلالة في النطفة، في تلك القطرة من الماء التي تخرج من صلب الرجل فتلقّح بويضة المرأة، ثم تستقر في قرار مكين، حتى تتخلّق بشرا سويا»[4].

وفي موضع قرآني آخر ذكر الله فيه باختصار مراحل الخلق عند الإنسان إذ قال تعالى: (ثُم سواه ونفَخ فِيهِ مِن روحِهِ وجعلَ لَكُم السمع والاَبصار والاَفْئِدةَ قَلِيلاً ما تشكُرونَ) (السجدة: 9)، فبمناسبة تفسير الشيخ لهذه الآية، أبدى تعجبه الإيماني من زخم الآية في معانيها، مع صِغرها

[1]- انظر مثلا: **تفسير سورة الحج**: ص310-340، **تفسير سورة المومنون**: ص93-101، **تفسير سورة الفرقان**: ص 184-188، **تفسير سورة السجدة**: ص51-69.

[2]- **تفسير سورة الفرقان**: ص 186.

[3]- (م.ن).

[4]- (م.س)، ص185.

في مبانيها فقال: «ما أيسر وأصغر كلمة "سواه"، ولكن ما أعظمها وأوسعها، فكم هي المسافة يا ترى بين الماء المهين، والحالة التامة للإنسان، بعد أن يسويه الله تعالى»[1].

ب) من شواهد القدرة في تاريخ الأنبياء:

ونقصد من تاريخ الأنبياء -خاصة- معجزاتهم التي أيدهم الله بها، فكان الشيخ كلما بلغ قصة من قصصهم، يتوقف كثيرا بالتحليل لمعجزة النبي والمقصد الإيماني الذي يريد بعثه في النفوس، وهو الإيمان بأن قدرة الله تعالى هي الفاعلة والمؤثرة في كل أحداث الكون وموجوداته، من دون حاجة إلى أسباب[2]، وأن القدرة الإلهية صالحة لكل شيء، لا يعترض طريقها فلسفة ولا علم ولا فن ولا قانون، وأن أمر الله إذا جاء -رحمة كان أو عذابا- ظهرت به قدرته، وتأثرت الأشياء بإرادته وقوله: "كُن"، فتكون[3].

ولا يعني هذا -كما ذكر الشيخ- وجود أشياء في الكون عن طريق الصدفة والاتفاق، بل اقتضت حكمة الله أن يجعل لهذا الكون سنة ونظاما وقانونا لا يتبدل، وعلّق تعالى بعض أموره بأسباب كلّف بها البشر، فالمُسببات الموجودة إنما تمثل قدرة الله التي قرنها بالأسباب[4]. وقد تساءل الشيخ بعد ذلك تساؤلاً جوهريا يتعلق بصلة القدرة بالأسباب الكونية فقال: «ولكن هل الله تعالى مقيد بهذا النظام، وبهذا القانون حتى أنه لا يخرقه أبدا؟ وإذا أراد تغيير هذا النظام فهل يفعل؟»[5]، فأجاب الشيخ بأن السنن التي وضعها الله، إذا اطردت وعرفها الناس أجيالا بعد أجيال، فإنهم يغترون ويلحدون في آيات الله بعلومهم وعقولهم، معتقدين ألا قدرةً صالحةً لتبديل ذلك الناموس المطرد، وأن الله تعالى عاجز عن ذلك، وأنه من الواجب على الكون الاطراد على نظامه!! من أجل هذه المحاذير -كما يرى الشيخ- أراد الله أن يجعل في كثير من السنن التي يشهدها البشر خرقا في وقتٍ ما -وهو ما يتمثل في معجزات الأنبياء-، حتى يؤمنوا أن الخالق إذا سن سنة مطردة؛ فتلك إرادته، مع العلم بأنه قادر على خرقها وتغييرها[6]، أو بعبارة أوضح: أن يؤمنوا بأن "قدرة الله

---

[1]- **تفسير سورة السجدة**: ص63.

[2]- **تفسير سورة القصص**: ص340-341.

[3]- **تفسير سورة الإسراء**: ص217، وانظر: **تفسير سورة مريم**: ص34-35.

[4]- (م.ن)، وانظر: **تفسير سورة القصص**: ص340-341.

[5]- **تفسير سورة مريم**: ص34-35.

[6]- (م.ن).

صالحة لكل شيء"، وهي عبارة أو مبدأ طالما أكد الشيخ على وجوب الإيمان به، لاسِـيما عنـد تطرقه إلى أخبار الأمم السابقة، أو أخبار الغيب الواردة في القرآن[1].

فبمناسبة قصة مريم بنت عمران؛ التي وردت مختصرة في قوله تعالى: (والِتي أحصنت فَرجهـا فَنفَخنا ِفيها ِمن روحِنا وجعلْناها وابنهآ ءَايةً ِللْعالَمِين) (الأنبياء: 91)، وبعد أن سرد الشيخ شيئا من قصتها، في نشأ ا وتنسكها، ثم معجزة حملها ووضعها لعيسى υ من دون أب، تساءل الشيخ عن الحكمة والمقصد من القصة ؟، فأجاب بأن حكمة الله اقتضت أن يكون التوالد في كل شـيء بالتلاقح بين زوجين: ذكر وأنثى، وهي سنة في بني آدم أيضا، واطّراد هذا النظام منـذ ملايـين السنين[2]، «قد يوهِم الناس أن الله لا يقدر على غير هذا، فأراد الله أن يخرق هذه السنة ولو مرة في تاريخ البشرية، فولِد مولود من أنثى دون ذَكَر ليكون آية للعالمين، ليبين لهم أنه غير مقيـد ـذه السنة، وأنه قادر على ما يشاء متى يشاء، بالكيفية التي يشاء»[3].

ج) من شواهد القدرة في الأخبار الإيمانية الغيبية:

ونقصد بالأخبار الإيمانية الغيبية، كل ما يتعلق بأحداث اليوم الآخر بدءا من الموت والبعث وما بعدهما، والتي كانت محل إنكار الكثير من الكفار، الذين استصعبوا على الله –مثلاً- إعادة خلـق الناس وإحيائهم من جديد بعد الموت؛ من أجل الحساب، وقد جاءت الآيات القرآنية تلو الآيات في إثبات ذلك العالم الغيبي "اليوم الآخر"، بحجج عقلية مبِينة، ترد الجاحد إلى جادة الحق، وتوقظ الغافل من غفلته.

وقد كان الشيخ بيوض يوظّف تلك الآيات في الاستشهاد على قدرة الله تعالى وعظمته وترسيخ الإيمان ا، ومن ذلك مثلا قوله تعالى: (وهو الذِي يبدؤاْ الْخلْق ثُم يعِيده وهو أهونُ علَيهِ ولَـه الْمثَلُ الاَعلَىٰ ِفي السماواتِ والاَرضِ وهو الْعزِيز الْحكِيم) (الروم: 27).

فقد استهلّ الشيخ تفسيره لتلك الآية ببيان أن الله تعالى قد كرر في القرآن –مـرات عـدة-

---

[1]- أنظر مثلا: **تفسير سورة الأنبياء**: ص 139، 140، 196، 230، 273، 274، **تفسير سورة الحج**: ص 322، **تفسير سورة الفرقان**: ص 64، **تفسير سورة مريم**: ص 34-35.

[2]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 190-196.

[3]- (م.س)، ص 196-197، أنظر أيضا: من شواهدة القدرة في تاريخ الأنبياء؛ تحليل الشيخ لمعجزة إبراهيم في **تفسير سورة الأنبياء**: ص 84-85 وغيرها من المواضع التي حلل ا الشيخ معجزات الأنبياء.

حديثه عن بدء الخلق وإعادته أو عن البعث، والمقصد من ذلك أن يذكر عباده بقدرته وسلطانه[1]، وفي مرات كثيرة يجادل الله المنكرين مباشرة، ويسجل حجتهم ومستندهم بصيغ مختلفة: (قَالُواْ أَءِذَا مِتنا وكُنا ترابا وعِظَاما إِنا لَمبعوثُونَ) (المؤمنون: 82)، (وقَالُوا أَءِذَا ضلَلْنا فِي الأَرضِ إِنا لَفِي خلْقٍ جدِيدٍ بلْ هم بِلِقَآءِ ربهِم كَافِرونَ) (السجدة: 10)، (وقَالَ الَّذِين كَفَروا إِذَا كُنا ترابا وءَابآؤنآ أَئِنا لَمخرجونَ) (النمل: 67)، وفحوى تلك الحجة هو التشكيك في قدرة الله على بعث الناس بعد فناء أجسامهم في التراب !

ويعلق الشيخ على حجة هؤلاء بقوله: «هذه هي كل حجتهم، وهي حجة صبيانية، وحجة لا يتفوه بها إلا المجانين، ولا يقولها إلا الجاهل بقدرة الله، والذي عمِيت بصيرته عن آيات الله المحيطة به»[2].

وتأكيدا للحجة على التصديق بالبعث، خاطب الله هؤلاء –والناس جميعا- في آية الروم السابقة، بقضيةٍ توائِم منطق عقولهم وطباعهم، وهي أن إعادة الخلق أهون عليه تعالى: (وهو الذِي يبدؤاْ الْخلْق ثُم يعِيده وهو أَهونُ علَيهِ)، إذ أن طبيعة المخلوقين –كما ذكر الشيخ- تقتضي أن الإعادة أسهل من الخلق الأول، فمن قَدِر على خلق شيء من عدم -على غير مثال سابق- تكون الإعادة بالنسبة إليه أيسر وأسهل[3].

إن ذلك الاعتبار إنما هو في منظور البشر وواقع معاشهم، «لكن الأمر بالنسبة لله تعالى سواء، سواء الخلق من غير مادة ولا مثال، أو جمع الخلق بعد أن تتفكّك أجزاؤهم وذراتهم، وكذا لا فرق بين خلق الفرد الواحد، وخلق البشر كلهم، فليس الخلق الثاني أسهل من الأول، أو الأول أصعب من الثاني، وإنما هكذا جاءت الآية وفق إدراكنا وإِلْفنا»[4].

فقدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، والذي أوقع المنكرين في ضلالهم، كونهم يقيسون قدرة الله بقدرتهم، فما يبدو لهم مستحيلا حكموا باستحالته على الله! ولا قياس بين الخالق والمخلوق[5]،

---

[1]- **تفسير سورة الروم**: ص 216.

[2]- **تفسير سورة النمل**: ص 156.

[3]- **تفسير سورة الروم**: ص 216.

[4]- (م.ن)، وانظر في المسألة أيضا: **تفسير سورة الأنبياء**: ص 186-187.

[5]- **تفسير سورة الروم**: ص 216-217.

ولذلك جاء التعقيب في الآية: (ولَه الْمثَلُ الاَعلَىٰ فِي السماواتِ والاَرضِ)، فذلك شاهد آخر على قدرة الله لمن أراد أن يؤمن ويهتدي.

ثالثا/ صفة الإرادة

1/ حقيقة الإرادة ومتعلقاتها:

لقد اقتصر الشيخ بيوض على ذِكر متعلقات الإرادة الإلهية من دون تعريفها تعريفا اصطلاحيا، وقد وجدنا بيانا لمفهومها، قريبا من مذهب الشيخ وتصوره، نقله البغدادي[1] إجماعا عن الأشاعرة؛ فقال: «أجمع أصحابنا على أن إرادة الله تعالى؛ مشيئته واختياره، وعلى أن إرادته للشيء كراهيته لعدم ذلك الشيء»[2]، كما نقل عنهم تعريفهم للإرادة الإلهية ومتعلقاتها بأنها «إرادة واحدة محيطة بجميع مراداته على وفق علمه بها، فما علم منها كونه أراد كونه، خيرا كان أو شرا، وما علم أنه لا يكون أراد أن لا يكون، ولا يحدث في العالم شيء لا يريده الله. ولا ينتفي ما يريده الله، وهذا معنى قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»[3]، وإلى ذات المعنى –تقريبا- ذهب الشيخ اطفيش من الإباضية[4].

وقد تحدث الشيخ بيوض عن متعلقات الإرادة بمناسبة قوله تعالى: (وربك يخلُق ما يشآءُ ويختار ما كَانَ لَهم الْخِيرةُ سبحانَ اللهِ وتعالَىٰ عما يشرِكُونَ) (القصص: 68)، إذ قال الشيخ: «فمن تدبر الآية وتفقّه فيها يؤمن إيمانا يقينيا لا يتزلزل بكون الله فعالا لما يريد، مختارا في خلقه واختياره، وما من شيء في الوجود إلا ويدخل في الخلق والاختيار، مهما كبر أو صغر، حتى في خلق الدنيا والآخرة، وكذلك الكيفيات، وتفضيل البعض على البعض، لا يستشير في ذلك أحدا من خلقه»[5].

نلاحظ في بيان الشيخ لمتعلقات الإرادة وحقيقتها، بساطة الطرح ويسر المفهوم، الذي يتلخص

1- ترجمة:

2- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر: **كتاب أصول الدين**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3: 1401هـ/1981م، ص 102.

3- (م.ن).

4- انظر وينتن: مرجع سابق، ص 121-122.

5- **تفسير سورة القصص**: ص 469.

في أن إرادة الله هي النافذة في الكون، من دون دخول في التعريف الكلامي لهذه الصفة، الذي يشرحها بأنها صفة من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من وجود وعدم ووجوه مختلفة[1]، ذلك لأن الشيخ –كما ذكرنا سالفا- كان يبتغي من وراء تفسيره عرض هداية القرآن على الناس جميعا، بأبسط عرض وأيسر أسلوب، حتى يغيروا ما بأنفسهم، فأنى لعامة الناس فهم التعريف الآنف الذكر، لصفة الإرادة ؟!

2/ صفة الإرادة أو المشيئة وبعدها التربوي:

وقد أعطى الشيخ بيوض لصفة الإرادة أو المشيئة الإلهية بعدا تربويا، بمناسبة قوله تعالى –مخاطبا نبيه ρ-: (ولاَ تقُولَن لِشيءٍ إني فَاعِلٌ ذَلِك غَدا إلاّ أنْ يشآءَ الله) (الكهف: 23-24)، إذْ بين الشيخ وسيلة من وسائل تقوية الإيمان بالمشيئة الإلهية في القلب، وهي ربط المرء كل أفعاله بمشيئة الله، فينبغي أن يقول في كل منها: سأفعل كذا –إن شاء الله-، مع اعتقادها في القلب.

ونبه الشيخ إلى الخطإ الذي قد يقع فيه البعض، بظنهم أن التلفّظ بكلمة "إن شاء الله" لا يكون إلا في الأمور الصعبة الشاقة التي يظن عدم القدرة عليها، وأما الأمور السهلة البسيطة، فلا يقال فيها: "إن شاء الله". فصحح الشيخ هذا المفهوم، ببيان أن الأمر بالتلفظ بالمشيئة عام، (ولاَ تقُولَن لِشيءٍ) يستغرق كل الأشياء والأفعال، مهما بدا للمرء أنها حقيرة أو صغيرة، وأنه قادر عليها[2].

والسبب في ذلك –كما بين الشيخ- أن الإنسان لا يملك غده، ولا يملك روحه ولا حياته ولا يملك من أمره شيئا، إذ لا يضمن ولو نفَسا واحدا بعد اللحظة التي نطق فيها بقوله: سأفعل ذلك غدا ! وما يدريه لعله بعدها في عداد الموتى ! لأن ناصيته بيد الله، وكل نفَس له هو مددٌ من الله إنعاما وتفضلا منه تعالى، ولو شاء لقطعه عنه[3].

هكذا يبرر الشيخ شدة احتياج المؤمن إلى التمسك بمشيئة الله، اعتقادا بقلبه وتلفظا بلسانه؛ وذلك بمناسبة الآية السابقة، وتأكيدا لهذه الفكرة ساق الشيخ –في ذات الموضع- مثالين من القرآن فيهما تهذيب لنفوس المؤمنين وتربية لها على التمسك بالمشيئة دوما:

1- انظر: محمد عبده: **رسالة التوحيد**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:1988م، ص35، الجعبيري: مرجع سابق، ص236، البوطي: مرجع سابق، ص120.

2- **تفسير سورة الكهف**: ص 129.

3- (م.س)، ص129-130.

المثال الأول:

قوله تعالى: (لَتدخلُن الْمسجِد الْحرام إِن شآَء الله ءَامِنين محلِقِين رءُوسكُم ومقَصـرِين) (الفتح: 27)، حيث بين الشيخ أن الآية فيها إخبار من الله ووعد لنبيه ρ بأن يـرده إلى مكـة، فيدخل المسجد الحرام هو وأصحابه لأداء العمرة آمنين –بعد أن صدهم المشركون عنـها عـام الحديبية- ومع ذلك يقول الله تعالى بنفسه: إن شاء الله، -مع أن المشيئة المطلقة له وحـده- وفي هذا –كما يقول الشيخ- تأديب من الله لنبيه ولأمته، على أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته وإرادته[1].

المثال الثاني:

وهو ذِكر الله تعالى لخلود أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وفي كلا النوعين من الخلود، يؤكد المشيئة والاستثناء، حيث يقول تعالى في كِليهما: (خالِدِين فِيها مـا دامـتِ السـماوات والأرض إِلا ما شآَء ربـك) (هود: 107و108)، ففي هذا السياق بين الشيخ بـأن الاسـتثناء بالمشيئة؛ ليس على حقيقته، إذ ربما يفهم البعض منه أنه قد يأتي زمان تفنى فيه الجنة وتفـنى فيـه النار[2]، «إنما قوله: (إِلا ما شآَء ربـك)، تهذيب لنفوس المؤمنين وتربية لهم، وملءٌ قلوبهم، حـتى يعلموا أن ذلك الخلود، إنما هو بمشيئة الله، ولو شاء ما فعل، ليس مجبـورا أو مكرهـا أن يتـرك أصحاب الجنة في الجنة خالدين، أو أهل النار في النار خالدين فيها أبدا، أو عاجزا على إفناء الجنة أو النار إنما مشيئته اقتضت، وهذا سِر هذه المشيئة»[3].

وقد لخص الشيخ ثمرة الآيات التي ساقها في المشيئة، بمناسبة الآية 24 من سورة الكهف، بقوله: «فمجموع هذه الآيات تركز وتقوي في قلب المؤمن تفويض الأمر إلى الله»[4].

بهذا المنهج العملي يطرح الشيخ بيوض صفة المشيئة، بما يجعل المؤمن دائما يفوض كـل أمـوره وشؤونه لإرادة الله تعالى -بقلبه ولسانه-، دون أن يلغي إرادته الشخصية فيما كُلف به وابتلي فيه.

المبحـــــث الثاني: الصفـــات الفعليـــــــة

1- (م.س)، ص 131.

2- (م.ن).

3- (م.ن).

4- (م.ن)..

أولا/ صفة الرزق

تناول الشيخ بيوض صفة الرزق عند الله تعالى من عدة زوايا، فتطرق إلى أوجه رزقه لخلقه، وبين الحكمة من وصفه تعالى لنفسه بأنه خير الرازقين، كما تساءل عن سر تقسيم الأرزاق، فهذه نقاط ثلاثة؛ ندرس تصور الشيخ لصفة الرزق من خلالها.

1/ أوجه رزق الله لخلقه:

لقد صحح الشيخ المفهوم الشائع والقاصر للرزق؛ في أنه ما يمن به الله على خلقه من مال، إذ بين أن حقيقته هو ما يضمن البقاء للكائن الحي طوال المدة التي قدر الله أن يقضيها على ظهر الأرض[1].

تلك الحقيقة وضحها الشيخ في معرض تحليله للأطوار التي ينتقل بينها الإنسان منذ خلقه، وذلك بمناسبة قوله تعالى: (الله الذِي خلَقَكُم ثُم رزقَكُم ثُم يمِيتكُم ثُم يحيِيكُم...) (الروم: 40)، حيث ذكر الله أطوارا أربعة يمر عليها الإنسان: الخلق، الرزق، الموت، ثم البعث من جديد.

وقد تساءل الشيخ عن الحكمة من التعبير بالرزق عن طور حياة الإنسان في الدنيا؟ فأجاب بأن المخلوق منذ نشأته جنينا في بطن أمه، لا يستطيع أن يحي ويستمر في الحياة إلا بإمداد إلهي متواصل بمقومات الحياة، واعتبر الشيخ هذا المدد سيالاً جارٍ -مشبها إياه بسيال الكهرباء- حتى إذا أراد الله أن يميت أحدا –لينتقل إلى الطور الموالي- أمسك عنه ذلك المدد؛ أي الرزق فيموت. وتقريبا للمعنى إلى الأذهان، ضرب الشيخ له مثالا بمن يضغط على الزر الكهربائي فينطفئ النور[2]، ولله المثل الأعلى، ولم يكن يقصد الشيخ بذلك أبدا تشبيه الخالق.

أما مقومات الحياة أو سبل الرزق التي يمد ا الله خلقه، فهي لا تعد ولا تحصى، وإن كان القرآن في عدد من المواضع يشير إلى منبعين أساسِيين لتلك المقومات، وهما السماء أو السماوات ثم الأرض، كقوله تعالى: (قُلْ من يرزقُكُم من السماواتِ والاَرضِ قُلِ الله) (سبأ: 24)، وقوله: (أَمن يبدأُ الْخلْق ثُم يعِيده ومن يرزقُكُم من السمآءِ والاَرضِ) (النمل: 64).

وتذكيرا بفضل الله على الإنسان، عدد الشيخ -بمناسبة تلك الآيتين- أوجها مختلفة للرزق النازل من السماء، وأوجها متعددة للرزق الصاعد من الأرض، إذ ليس رزق السماء هو المطر

[1] - **تفسير سورة الروم**: ص 268.

[2] - (م.س)، ص 269.

فحسب، وليس رزق الأرض هو النبات فقط، كما يحسب ذلك بعض الناس[1]، بل رزق الله أعظم من ذلك بكثير، فمن أرزاق السماء: الأشعة المنبعثة من الشمس والقمر والكواكب الأخرى، والحرارة المتوهجة منها أيضا، فلولا تلك الأشعة والحرارة ما نبت على الأرض نبات، ولا استطاع أن يعيش على ظهرها حيوان، أو أن تتكون في جوفها معادن وطاقات[2]، «ثم ما ينبت في الأرض من مختلف النباتات، وما ينبع منها من ماء، وما يعيش فوقها من حيوان، وما يخرج من بطنها من معادن، كل هذا رزق من الأرض»[3].

وقد تطرق الشيخ بيوض إلى الحكمة من كون الخالق تعالى، هو وحده الرازق لجميع مخلوقاته كبيرها وصغيرها؟! ذلك –كما بين الشيخ- لأن المخلوقات التي تعيش على الأرض التي نسكنها، تعد وحدها بالملايير! لا يحصيها إلا خالقها، ولا يعلم ما يليق بغذائها ورزقها مدة حياتها؛ إلا خالقها –جل شأنه- إذ هي لا تتغذى بنوع واحد من الغذاء، بل قد يكون ما يتغذى به بعض المخلوقات سببا في وفاة الأخرى، كالسم الذي تحمله العقرب في جوفها هو سبب لوفاة الإنسان لو دخل جوفه ؟[4].

ويصف الشيخ شمول رزق الله وضمانه لكل مخلوقاته، بقوله: «والأرزاق تصل إلى المخلوقات بطرق متشابكة لا يعلمها إلا الله، يوصلها إلى الحيتان في قعر البحار، وإلى الهوام والحشرات في أجواف الأرض، والطيور في أجواء الفضاء، والإنسان في مجال سعيه الواسع في الشرق والغرب»[5].

بهذه الطريقة الواقعية نجد الشيخ بيوض، يشرح صفة الرزق، إذ لم يول اهتماما بحقيقتها الاصطلاحية بقدر ما اهتم بتوضيح تجليات تلك الصفة في آفاق الأنفس والكون، ولفت العقول إلى التأمل فيها، مما يستثير عظمة الله في القلوب، ويثبت الإيمان به وبصفاته.

2/ الحكمة من وصف الله تعالى نفسه بأنه "خير الرازقين":

من الأصول الثابتة أنه: لا رازق إلا الله، كما أنه لا خالق إلا الله، فهو تعالى المتفرد بالخلق

---

[1]- **تفسير سورة النمل**: ص 141، **تفسير سورة سبأ:** ص 233-234.

[2]- **تفسير سورة النمل**: ص 141، **تفسير سورة سبأ:** ص 233-234.

[3]- **(م.س)،** ص 234.

[4]- **تفسير سورة العنكبوت:** ص 250.

[5]- (م.س)، ص 251.

والرزق –كما ذكرنا عن الشيخ سالفا-، لكن من جهة أخرى نجد الله تعالى يصف نفسه في بعض الآيات بأنه خير الرازقين، فما الحكمة من هذا الوصف؟ أو ما هو وجه الجمع بين القضيتين؟.

لقد تطرق الشيخ إلى الحكمة من ذلك، بمناسبة تفسيره لآيتين: الأولى/ قوله تعالى: (أَم تسأَلُهم خرجا فَخراج ربك خيرٌ وهو خير الرازِقين) (المؤمنون: 72)، أما الثانية/ فقوله تعالى: (وما أَنفَقْتم من شيءٍ فَهو يخلِفُه وهو خير الرازِقين) (سبأ: 39).

أما وجه الحكمة الذي ذكره الشيخ، فهو أن صفة الرزاق يستعملها البشر بعضهم لبعض، وأن اللغة قد صحت بذلك، فيقال فلان رزق فلانا إذا أعطاه شيئا، لذلك قال تعالى في شأن نفسه: "وهو خير الرازقين"، ووجه التفضيل يكمن في أنه تعالى يرزق من خزائنه التي لا تنفذ، ويعطي تفضلا؛ بغير حساب ولا سابق عمل أو طاعة، إذ ضمِن أرزاق عباده قبل أن يصلوا أو يصوموا، كما قال تعالى[1]: (وما مِن دآبةٍ فِي الارضِ إِلا علَى اللهِ رِزقُها ويعلَم مستقَرها ومستودعها كُلٌ فِي كِتابٍ مبِينٍ) (هود: 6)، بل ويرزق الناس وهم منهمكون في المعاصي[2] وفي الكفر.

أما العباد فهم لا يرزقون بعضهم بعضا إلا مجازا في التعبير، فإذا أُعطِي أحدٌ رزقًا على يد آخر –كطعام أو شراب- فهو في الحقيقة رزق ساقه الخالق له –كما ذكر الشيخ- وما المخلوق إلا واسطة وآلة موصلة، وضرب الشيخ مثالا لذلك، وهو أن المرء إذا أطعم أباه أو أمه، فليس هو الذي خلق لهم الرزق، وإنما الله تعالى هو الذي بعث إليهما الرزق على يد ابنهما، كما أن هذا الابن بدوره يرزقه الله على يد آخرين وهكذا، وما من رزق يرزقه الله لعباده؛ إلا ويمر على أيدٍ كثيرة ويطوف حول أوطان عديدة، حتى يسوقه إليهم[3].

هذه هي أوجه تفضيل الله ذاته على غيره؛ في صفة الرزق –كما ذكرها الشيخ- وقد ختمها ببيان المقصد من ذكرها فقال: «ولذلك فالله تعالى هو الذي يستحق الشكر أولا وأخيرا، لأنه خير الرازقين»[4].

3/ سر تقسيم الأرزاق بين العباد !!

---

[1]- **تفسير سورة سبأ**: ص 298-299، وانظر أيضا: **تفسير سورة المومنون**: ص 223.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة العنكبوت**: ص 250.

[4]- **تفسير سورة سبأ**: ص 299.

لقد تطرق الشيخ في تفسيره إلى قضية تقسيم الله للأرزاق بين عباده، على أي مقياس يتم؟، إذ أنه مما تشهده البصائر في الحياة، أن الناس متفاوتون في الرزق أيما تفاوت، فما هو أساس هذا التفاوت؟ هذا سؤال جوهري، لم يتناوله الشيخ ترفًا، بل لما يبتغي وراءه من مقصد عملي.

وقد أجاب الشيخ عن هذا السؤال بمناسبة قوله تعالى: (قُل إِن رَبِّي يبسطُ الرزق لِمن يشآءُ ويقْدِر ولَكِن أَكْثَر الناسِ لاَ يعلَمونَ) (سبأ: 36)، فالآية في بيان حقيقة من حقائق صفة الرزق عند الله تعالى، وهي أنه يوسع فيه لمن يشاء من عباده، ويضيق فيه على من يشاء. وجواب الشيخ عن السؤال هو أن سنته تعالى في بسط الرزق وتقديره، أو في تقسيم الأرزاق، سر اختص به وحده، لا يعلمه إلا هو، وكل أرزاق الدنيا –كما وضح الشيخ- من صحة ومال ونفوذ وعلم وسلطان...يتضمنه قوله تعالى[1]: (نحن قَسمنا بينهم معِيشتهم فِي الْحياةِ الدنيا ورفَعنا بعضهم فَوق بعضٍ درجاتٍ لِيتخِذَ بعضهم بعضا سخرِيا) (الزخرف: 32)، فتقسيم المعايش بين الناس وتفاوتهم فيه؛ شيء معلوم، لكن الكيف مجهول.

إذ لم يبين الله تعالى –كما ذكر الشيخ في موضع آخر- من هم الذين رفعهم درجات، أو الذين أراد أن يعطيهم قليلا، أو الذين أراد أن يعطيهم كثيرا، كما لم يبين أبدا أساس التقسيم، أهو على أساس العلم، أم الصحة أم العمل؟ كل ذلك أمر مغيب عن البشر[2]، ولذلك جاء التعقيب على هذه الحقيقة في آية سبأ السابقة[3]، بقوله تعالى: (ولَكِن أَكْثَر الناسِ لاَ يعلَمونَ)، أي: لا يعلمون سر البسط والتقدير في الرزق، ولا يأخذ الله برأيهم فيه، ولا يطلب رضاهم به -كما فسر ذلك الشيخ-[4].

وقد ساق الشيخ أمثلة واقعية –من دون ذكر الأسماء- يشهدها الداني والقاصي؛ على عدم وضوح أساس التقسيم الإلهي للأرزاق، لدى عقول الناس، وقد ذكر الشيخ من ذلك مثلا؛ أنه كم من عالم غزير العلم؛ يطلب الرزق في كل مكان، ولا يترك مسلكا لا يسلكه، لكن لا يجنيه إلا

---

[1]- (م.س)، ص 281.

[2]- **تفسير سورة طه**: ص 461.

[3]- الآية 36 من سورة سبأ.

[4]- **تفسير سورة سبأ**: ص 282.

بالفطرة؛ قدر ما يسد الرمق[1]، «ومن الغريب أن نرى جاهلا يكون عالما، أو ربما مجنونا يكون عاقلا، وقد يكون هذا العاقل هو الذي يوجه الناس ويرشدهم إلى الطرق السليمة فينجحون، وإذا استعملها هو نفسه فإنه يخفق»[2].

بهذه الأمثلة الحية التي لفت إليها الشيخ بصائر مستمعيه، أراد أن يرسخ في قلوبهم الإيمان بصفة من صفات الكمال وهي الرزق، وأن تقسيمه بين الخلق لا يخضع أبدا لمقاييس البشر، وإنما هو سر إلهي، والمقصد العملي الذي أراد الشيخ تثبيته في النفوس –من وراء تساؤله عن سر التقسيم- هو إراحة النفس عن حب الدنيا والحرص عليها، والإقبال على الآخرة، يقول الشيخ بهذا الصدد: «وإذا كان الأمر كذلك فلماذا العناء والشقاء في سبيل الدنيا؟ إنما عليك أن تبتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا»[3].

ثانيا/ صفة الرحمة

من أعظم الصفات الإلهية؛ صفة الرحمة، التي وسعت كل شيء، وشملت المؤمن والكافر، والبر والفاجر، واستوعبت الدنيا والآخرة، وقد اشتق المولى تبارك وتعالى لنفسه من هذه الصفة؛ اسمين من أبرز أسمائه الحسنى –بعد لفظ الجلالة: الله- وهما: الرحمن والرحيم[4]، وجعلهما في الديباجة التي يفتتح بها كل سورة من سور القرآن الكريم؛ وهي البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم.

ولصفة الرحمة متعلقات كثيرة، ومظاهر عديدة، ذكرها الله تعالى في القرآن، وتناولها الشيخ بيوض بالتفسير والتحليل، نتطرق في دراستنا إلى ثلاثة مظاهر من أهمها وهي:

1. الرحمة العامة للخلق أجمعين.
2. الرحمة الخاصة بالمؤمنين.
3. رحمة العفو عن المقصرين والمذنبين.

1/ الرحمة العامة للخلق أجمعين:

من رحمات الله تعالى: رحمته العامة التي شملت الخلق أجمعين، بأن بلّغهم رسالاته، عن طريق

[1]- **تفسير سورة سبأ**: ص 281.

[2]- **تفسير سورة طه**: ص 461.

[3]- (م.ن).

[4]- القرضاوي، يوسف: **الإيمان والحياة**، ص 243-244.

إرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، لهدايتهم إلى ما فيه صلاحهم وسعاد م في الـ دارين، فمن لطفه تعالى م أنه لم يتركهم في ظلمات الجهل حائرين، ولا بين أهواء قلو م متخبطين، ولم يكِلْهم إلى أنفسهم، إذًا لَهلكوا جميعا ولما صلُحت لهم حياة، بل زادهم رحماتٍ بـ إنزال القـ رآن عليهم؛ خالدا مستوعبا لكل زمان ومكان، وبعث خاتم الأنبياء إليهم؛ الذي وصفه تعالى بقول ه: (ومآ أرسلْناك إلا رحمةً لِلْعالَمِين) (الأنبياء: 107).

وقد تطرق الشيخ بيوض إلى هذا المظهر من رحمة الله، في سياق تفسير لقوله تعالى: (إِنا جعلْنا ما علَى الآرضِ زِينةً لَها لِنبلُوهم أيهم أحسن عملاً وإِنا لَجاعِلُونَ ما علَيها صـ عِيدا جـ رزا) (الكهف: 7-8)، إذ بين الشيخ أنه من لطف الله بعباده أنه لم يأخذهم على غِرة، وإنما نـ بههم إلى أنه خلق لهم الأرض وما عليها من زينة، ليختبرهم أيشكرون أم يكفرون، وأنه لم يدع شيئا يقرِّ م إليه إلاّ ودعاهم إليه، ولم يدع شيئا يبعدهم منه، إلا و اهم عنه –بما شرع لهم-[1]، وهذه الرحمة – من جهة أخرى- هي إقامة للحجة عليهم وإعذارا لهم، كما أعطى الشيخ بذلك مثالا فقال: «... ومن أبلَغك وأخبرك بأنك تمتحن وتختبر، ما ترك لك من حجة، وأبلغ في الإعذار من تقـ دم في الإنذار، وهذا لطف من الله ورحمة وكرامة؛ وهو الذي يقول: (وما كُنـ ا معذِبين حتىا نبعـ ثَ رسولاً) (الإسراء: 15) »[2].

2/ الرحمة الخاصة بالمؤمنين:

قبل أن نتناول رحمة الله الخاصة بالمؤمنين، نتناول رحمته الأخص بآخر الأنبياء سيدنا محمد ρ - كما يراها الشيخ بيوض- إذ بين في تفسيره أن رحمته تعالى بنبيه ρ شملته وعنايته لاحظته من عدة أوجه: فاصطفاؤه من بين الناس رحمة إلهية، واختياره محلا للوحي الخاتم -مبلّغا له- رحمة إلهيـ ة، وإنزال القرآن عليه رحمة، وتحفيظه إياه وتثبيته في قلبه رحمة[3].

وبمناسبة قوله تعالى –مخاطبا نبيه-: (ولَئِن شِئْنا لَنذْهبن بِالذِي أَوحينآ إِلَيك ثُم لاَ تجِد لَـ ك بِهِ علَينا وكِيلاً) (الإسراء: 86)، حلل الشيخ بعمق؛ وجها من أوجه الرحمة بخاتم الأنبياء، وهـ و تثبيت القرآن في قلبه بحيث لا ينسى منه شيئا، إذ ذكر الشيخ بداية أن الله وعد نبيه، بأنه تعالى هو

---

[1]- **تفسير سورة الكهف**: ص 56.

[2]- (م.ن). وانظر في هذه الرحمة أيضا: **تفسير سورة الإسراء**: ص 201، **تفسير سورة الأحزاب**: ص 388.

[3]- **تفسير سورة الإسراء**: ص 168.

المتكفل بإقرائه فلا ينساه، (سنقْرِئُك فَلاَ تنسىآ) (الأعلى: 6)، وقد كان النبي حريصـا علـى تحريك لسانه بالقرآن وتكراره حين يلقنه إياه جبريل، وذلك خشية أن يفلت منه حرف أو كلمة؛ فيعاقبه الله على عدم التبليغ، حتى طَمأنه تعالى وضمِن له جمعه في صدره، ليؤديه للناس كاملا غير منقوص، إذ قال له تعالى[1]: (لاَ تحرك ِبِهِ ِلسانك ِلتعجلَ ِبِهِ ِإن علَينا جمعه وقُرءَانه فَإِذَا قَرأْنـاه فَاتبِع قُرءَانه ثُم ِإن علَينا بيانه) (القيامة: 16-19).

ومع كل تلك الضمانات –كما بين الشيخ- قال الله لنبيه ρ: (ولَئِن شِئْنا لَنـذْهبن ِبالـذِي أَوحيناآ ِإلَيك)، بمعنى: أنه تعالى قادر على ألا يـ ل عليه القرآن من الأساس، ولما كـان الله قـد اصطفاه مبلغا لهذا الوحي، فهو تعالى قادر أيضا على أن يمحوه من صدره في لحظة، أو من صدور الناس، فتصبح قلو م خاويةً منه، لكن إرادته تعالى تعلّقت بتثبيت كلامه في قلب نبيه، وليس شيء من هذه الأمور واجبا على الله، -كما وضح الشيخ- إنما هو تفضل منه تعالى ومِنة ومزِية لنبيه[2]، ولذلك جاء بعد تلك الآية السابقة مباشرة قوله تعالى: (ِإلا رحمةً من ربـك ِإن فَضـلَه كَـانَ علَيك كَبِيرا) (الإسراء: 87).

أما رحمة الله الخاصة بالمؤمنين –عموما- فلها أوجه عديدة، تعرض إليها الشيخ في تفسيره، من بينها صلاة الله وملائكته على المؤمنين التي ورد ذكرها في قوله تعالى: (هو الذِي يصلي علَـيكُم وملَآئِكَته ِليخرِجكُم من الظلُماتِ ِإلَى النورِ وكَانَ ِبالْمومِنين رحِيما) (الأحزاب: 43)، فقـد اعتبر الشيخ صلاة الملائكة؛ فضلا كبيرا ومنة عظمى لهذه الأمة، فهؤلاء الملائكـة مـع فضـلهم وشرفهم عند بارئهم، يأمرهم ويأذن لهم بأن يصلوا على عباده المؤمنين!، وتفسير هـذه الصـلاة اعتمد فيه الشيخ[3] أثرا نسبه إلى ابن عباس τ وهو قوله: «الصلاة من الله الرحمة، ومـن الملائكـة الاستغفار»[4]، إلا أن الشيخ اعتبر تفسير صلاة الله بالرحمة، هو تقريب للمعنى إلى أفهام العامة، وإلا

---

[1]- (م.س)، ص 165.

[2]- (م.س)، ص 165-166.

[3]- **تفسير سورة الأحزاب**: ص 382.

[4]- لم نجد هذا القول منسوبا إلى بن عباس، ووجدنا عند ابن كثير قولان في تفسير تلك الصلاة، الأول: الصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، الثاني: الصلاة من الله عز وجلّ الرحمة، أما صلاة الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم. بن كثير: مصدر سابق، ج3/ص654.

فهي ألطاف إلهية ونفحات ربانية، لا يعلم حقيقتها إلا هو، لأ ا شأن من شؤونه[1].

والوجه الآخر لرحمة المؤمنين، هو حالهم يوم يلقون ر م: (تحِيتهم يوم يلْقَونه سلاَمٌ وأعـد لَهم أَجرا كَرِيما) (الأحزاب: 44)، فقد قال الشيخ في تفسيرها: «فإذا ذهب المسلمون وفْـدا إلى ر م، فإن ملك الملوك –ولله المثل الأعلى- يتلقّى عباده المؤمنين الذين قضوا أعمارهم في مخالفـة شهوا م، وعصيان شياطينهم، وتحملوا كل شيء في سبيل مرضاة ر م، فإنه يتلقاهم بالسلام، ولم يذكر كلمة غيرها»[2].

وقد سجل الشيخ لحضوره؛ إعجابه بحلاوة عبارة (تحِيتهم يوم يلْقَونه سلاَمٌ)، فمن رحمة الله بعباده المؤمنين يوم لقائه، أنه يحييهم بالسلام، والسلام من الله –كما ذكر الشيخ- يعم كل شيء، فلا خوف عليهم ولا حزن، ولا عذاب ولا نصب ولا جوع ولا عطش[3]، فإذا قـال الله لعبـاده حينها "سلام عليكم" اطمأنت نفوسهم بأ م لن يروا بعد ذلك سوءا أبدا[4].

3/ رحمة العفو عن المقصرين والمذنبين:

من رحمات الله على خلقه تجاوزه وعفوه عن المقصرين في عبادته، والمـذنبين بمعصـيته، أمـا المقصرون في عبادته، فالمقصود م عموم الخلق حتى المؤمنين منهم، وتقصيرهم من جهـة عـدم معرفتهم بر م وكمال صفاته حق المعرفة، وعدم طاعتهم له حق الطاعة، مقابل إحسـانه إلـيهم وإسباغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، ورحمته تعالى م تتمثل في عفوه عن تقصيرهم.

وذلك ما تطرق إليه الشيخ بيوض على أعقاب تفسيره للآيتين الأوليين من سورة سبأ: (الْحمد لِلهِ الذِي لَه ما فِي السماواتِ وما فِي الْأَرضِ ولَه الْحمد فِي الْآخِرةِ وهو الْحكِيم الْخبِير يعلَم ما يلِج فِي الْأَرضِ وما يخرج مِنها وما ينـزِلُ مِن السماءِ وما يعرج فِيها وهو الرحِيم الْغفُور) (سبأ: 1-2)، والآيتان في ذكر الأوصاف الإلهية العظيمة، كسِعة ملكه وسلطانه، وإحاطة علمـه بكل شيء، واستئثاره بالحمد وحده، وجاء تذييل الآية الثانية بوصفَي الرحمة والمغفـرة، (وهـو الرحِيم الْغفُور)، وهنا توقف الشيخ ببيان مناسبة هذا التذييل لما قبله، وإلى ما يشـير إليـه مـن

---

[1] - **تفسير سورة الأحزاب**: ص 382-383.

[2] - (م.س)، ص 391.

[3] - (م.ن).

[4] - (م.س)، ص 393.

معانٍ[1].

قال الشيخ في بيان المناسبة: «فما من إنسان أينما كان، إلا ويرى ويعلم بعض ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وبعض ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ولكنه لا يقدر الله حق قدره، ولا يطيعه حق طاعته، ولولا أن الله غفور رحيم لأهلك العباد كلهم، حتى المؤمنين، إذ ما هي نسبة عبادتنا إلى ما يجب علينا نحو الله؟ »[2]، وكم هو مقدار حمدنا له مقابل جزيل آلائه وأفضاله.

وقد أشار الشيخ بدقة إلى وجه تلك الرحمة الربانية وعظمتها، في أنها لا تخضع لمقاييس البشر الذين يعاملون بعضهم بعضا بالمثل، فقال: «لو كان الله تعالى يحاسب العباد بحسب ما أنعم عليهم، فإن عبادة إنسان -لو عاش عمر نوح- لا تساوي نعمة واحدة في لحظة من اللحظات، فضلا عن العمر كله، فالآية تشير إلى التجاوز عن التقصير في جنب الله»[3].

فالله تعالى –كما يبين الشيخ- يعلم ما في البشر من تقصير وقصور، كيف لا وهو الذي خلقهم، لكن رحمته سبقت غضبه –كما جاء في الحديث[4]- ورحمته هذه ومغفرته مشروطة بالتقوى –كما ذكر الشيخ- فهي للمتقين، الذين تأملوا في آيات الله فعرفوه وآمنوا به، واجتهدوا في طاعته؛ بحسب وسعهم وطاقتهم[5]، وذلك مصداقا لقوله تعالى: (ورحمتي وسعت كُل شيءٍ فَسأكْتبها لِلذِين يتقُونَ ويوتونَ الزكَاةَ والذِين هم بِئَاياتِنا يومِنونَ الذِين يتبِعونَ الرسولَ النِبيءَ الأُمي...) (الأعراف: 156-157).

فرحمته تعالى هذه –كما بين الشيخ- تتجلّى في أنه لا يحاسب عباده المتقين على ما فوق طاقتهم، وإنما يتفضل عليهم بتقبل اليسير والعفو عن الكثير، وإثابتهم بالأجر الجزيل[6].

[1]- **تفسير سورة سبأ**: ص 19.

[2]- (م.ن).

[3]- **تفسير سورة سبأ**: ص 20.

[4]- الحديث رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء...رقم 6872، «...عن أَبِي هريرةَ عن النِبِي صلى الله علَيهِ وسلم قَالَ:إِن الله لَما قَضى الْخلْق كَتب عِنده فَوق عرشِهِ إِن رحمتِي سبقَت غَضبِي». ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، (دون رقم).

شركة البرامج الإسلامية الدولية: **موسوعة الحديث الشريف**، الإصدار الثاني، (1991-1997).

[5]- **تفسير سورة سبأ**: ص 20.

[6]- (م.ن).

وأما النوع الثاني من رحمة العفو، فهي رحمته تعالى بالمذنبين العصـاة، المتمثلـة في مـرحلتين: **الأولى**؛ إمهالهم وعدم تعجيل العذاب لهم. **الثانية**؛ التوبة عن التائبين منهم، وذلك ما سنرى تصور الشيخ بيوض له، بالتفصيل.

أ/ مرحلة الإمهال وعدم تعجيل العذاب:

من كرم الله تعالى على عباده، أنه ليس من سنته أن يؤاخذ كل واحد منهم بمجرد أن يرتكـب ذنبا –أي ذنب- ويعجل له العقاب في تلك اللحظة، بل يمهله ولا يهمله، ويرخي له العنان ويمد له في الأجل رحمة به، وذلك ما جاء ذكره في عدد من الآيات، كقوله تعالى: (وربـك الْغفُور ذُو الرحمةِ لَو يواخِذُهم بِما كَسبوا لَعجلَ لَهم الْعذَاب بل لهم موعِدٌ لن يجِدوا مِن دونِهِ موئِلاً) (الكهف: 58)، وفي ذات الرحمة جاء قوله تعالى: (ولَو يواخِذُ الله الناس بِما كَسبوا مـا تـرك علَىٰ ظَهرِها مِن دآبةٍ ولَكِن يوخرهم إِلَىٰ أجلٍ مسمى فَإِذَا جآءَ أجلُهم فَإِن الله كَانَ بِعبـادِهِ بصِيرا) (فاطر: 45).

والشيخ بيوض –رحمه الله- طالما فصل في مظهر الرحمة ذاك، سواء في تفسيره للآيات المشـيرة إليه من قريب –كالآيتين السالفتين- أو الآيات التي تشير إليه من بعيد، كقوله تعالى –حين دعـا نبيه إلى تذكير المشركين بمصدر القرآن-: (قُلَ أنزلَه الذِي يعلَم السر في السماواتِ والاَرضِ إِنه كَانَ غَفُورا رحِيما) (الفرقان: 6)، وهذا رد على مشركي قريش؛ المسـتهزئين بـالنبي وكتابـه (القرآن)؛ الذي وصفوه بأنه أساطير الأولين اكتتبها، وأنه إفك افتراه.

وقد توقف الشيخ عند ذيل الآية "إنه كان غفورا رحيما"، متسائلا عن مناسبة وصف الله تعالى نفسه بالمغفرة والرحمة؟ فأجاب الشيخ بأن مقام الحديث عن خطر شرك هؤلاء، يقتضي إخبارهم بمغفرة الله ورحمته، في أنه لو شاء لعجل لهم العقوبة بمجرد أن ينطق أحدهم بقوله: (إِنْ هـذَآ إلآ إِفْكٌ اِفْتراه) (الفرقان: 4)، أو قوله: (أَساطِير الاَولِين اكْتتبها فَهي تملَىٰ علَيهِ بكْرةً وأَصِـيلاً) (الفرقان: 5)، فيخرِص لسانه، أو يـ ل عليه صاعقة من السماء، أو يبتليه بأشد أنواع البلاء، لكنه تعالى غفور رحيم، ووجه تلك الرحمة–كما بين الشيخ- أن الله يمهلهم ليتوب منهم من يتوب، أو يخرِج من أصلا م من يوحد الله ويعبده، كما وقع فعلا في التاريخ، إذ خلف الوليد بن المغـيرة "خالدا"، وأبو جهل "عكرمة"، والعاصي "عمروا"، وكل هؤلاء من أبطال الإسلام وقادة فتوحاته،

وناشري تعاليمه في أقطار الأرض[1].

ومناسبة قوله تعالى: (وربـك الغفور ذو الرحمة لو يواخذهم بما كسبوا...) (الكهف: 58)، بين الشيخ سياق ذكر تلك الرحمة، وهو وصف الكفرة -المستهزئين بالنبي ρ وأصحابه، المحتقرين لهم- وأنّ ذنوبهم تلك تستحق التعجيل بالعذاب، لكن الله غفور رحيم، يؤاخذهم نعم، لكن في مؤاخذته لهم لطف –كما ذكر الشيخ- هذا اللطف هو الإمهال وإرخاء العنان لهم زمنا معينا لعلهم يرجعون، وقد يقْصر هذا الزمن وقد يطول، كما طال على عهد نوح (عليه السلام) الذي لبث في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، ويتمثل الإمهال في إطالة حياتهم، وإسباغ النعم عليهم؛ من عِز وجاه وسلطان، وكل هذا لا يهم لأنهم لن يفلتوا من قبضة الله؛ الذي بيده النواصي والأقدام، ولأن لهم موعد آتٍ لا مفر لهم منه، وبهذا يتحقق وصف الله تعالى نفسه بالمغفرة والرحمة[2].

ومناسبة قوله تعالى: (ولو يواخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة...) (فاطر: 45)، قال الشيخ: «ولو أن كل أحد عصى الله، يهلكه لحينه ما ترك على ظهر الأرض من دابة، لا إنسانا ولا حيوانا، يهلك الناس بسبب معاصيهم، ويهلك ما في الأرض جميعا من دابة، بسبب هلاكهم [أي الناس] »[3].

وقد بين الشيخ أن لله في خلقه سنن، ولنفاذ أحكامه

أزمنة وأمكنة وكيفيات معنية، إذ لا يتعجل لتعجل عباده، (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم) (يونس: 11)، لأن القوة بيده، لا يعجزه شيء، ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة، لكنه تعالى لحلْمه ورحمته يؤخر عباده إلى أجل مسمى عنده؛ باعتبار الأفراد والجماعات، فلكل فرد أجل ينتهي إليه ويصير إلى ربه، ولكل دولة وحضارة آجالها المحددة التي تنتهي عندها[4].

ويعقّب الشيخ على آية فاطر السابقة، ببيان متعلق رحمة الله –التي نحن بصددها- فيقول:

---

[1]- **تفسير سورة الفرقان**: ص 39.

[2]- **تفسير سورة الكهف**: ص 253-255.

[3]- **تفسير سورة فاطر**: ص 555-556.

[4]- (م.س)، ص 556-557.

«وهكذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يحلم بعباده، ونحن نتمتع بِحِلم الله، نبارزه بالمعاصي ولا يعجل لنا العقوبة، وهذا فضل منه ورحمة، ولكنه فضل ورحمة لمن وفّقه الله إلى التوبة بعد ذلك، أما من اغتر وظن أن الله راضٍ عنه وهو يعصيه ... فالويل ثم الويل له»[1]، ورحمة التوفيق إلى التوبة هي المرحلة الثانية التي سنتحدث عنها بعد ذلك.

ب/ مرحلة التوبة عن التائبين:

من رحمة الله الواسعة، أنه تعالى لا يتعاظمه مغفرة ذنب؛ ارتكبه عبده مهما كان كبيرا[2]، فيغفر الذنوب، ويتقبل المنيبين إليه، ولو جاء أحدهم بِملْء الأرض خطايا، على شرط أن يتوب منها قبل الغرغرة توبة نصوحا، -كما ذكر الشيخ[3]- وللتوبة شروط بسطها القرآن في مواضع عدة، واستفاض في شرحها العلماء، كما فعل ذلك شيخنا في مواضع شتى من تفسيره، وليس المقام مقام ذكرها.

وإيضاحا لسعة الرحمة الإلهية، في مغفرة كل الذنوب وتقبل كل المذنبين، بين الشيخ أن المُذنب يرحمه الله، «حتى ولو كان واحدا من الذين كفروا به واتخذوا له شريكا وصاحبة وولدا، وكذّب بأنبيائه ورسله، كحال الكثير من الصحابة ψ، الذين كانوا يعبدون الأصنام ويئدون البنات، ويرتكبون الفواحش، ثم أسلموا وتابوا وأنابوا، فآواهم الله إليه، وجعلهم أفضل خلقه، إذِ اختارهم أصحابا لآخر وأفضل رسله، فهل هناك رحمة أكبر من هذه ؟؟»[4].

هكذا أتينا على تصور الشيخ بيوض لبعض وأهم الصفات الإلهية –الذاتية والفعلية-، لننتقل بعدها إلى الصفات الخبرية أو المتشابهة، لننظر تصور الشيخ لها؛ وذلك ما سنتناوله في المبحث الثالث –إن شاء الله-.

المبحث الثالث: الصفات المتشابهة

أولا/ ثبوت الصفات المتشابهة والخلاف في فهمها

وردت في نصوص الكتاب والسنة صفات لله تعالى؛ هي من نوع المتشابه الذي خفِي معناه

1- (م.س)، ص 559.

2- **تفسير سورة الفرقان**: ص 253.

3- (م.س)، ص 203.

4- (م.ن).

وأوهم بظاهره ما قامت الأدلة على نفيه، وهي صفات ليس من شأن العقل الاستقلال بإدراكها، فمصدر العلم ا هو الخبر الشرعي، ولذا سميت أيضا بالصفات الخبرية، والجماع بينها أ ا تثبت في حق الله تعالى؛ ما ظاهر لفظه أعضاء وأوضاع مادية، كالتي تسند للإنسان[1]، ومن هذه الصفات: اليدان كما في قوله تعالى: (بلْ يداه مبسوطَتان ينفِق كَيف يشآءُ) (المائدة: 64)، والوجه، كما في قوله: (ويبقَىٰ وجه ربك ذُو الْجلاَل والإِكْرامِ) (الرحمن: 27)، والأصابع كما في الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن»[2]، والاستواء، كما في قوله تعالى: (الرحمن علَى الْعرشِ استوى) (طه: 5)، وال ول، كما في قوله ρ: «ي ل الله تعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة جمعة، ويقول: هل من تائب فأتوب عليه»[3].

وانطلاقا من وحدانية الله تعالى ومخالفته للحوادث، وت ه عن مشا ة خلقه، وبالنظر إلى ما تحمله تلك الصفات في ظاهرها من مشا ة الخلق، فإن تحديد مفهومها اللائق به تعالى، كان مناط خلاف شديد بين علماء العقيدة، مما نتج عنه وجهات نظر مختلفة، تعود في مجملها إلى وجهتين أساسيتين: وجهة التفويض ووجهة التأويل[4].

1/ وجهة التفويض:

هي وجهة أهل الأثر من السلفية، الذين ذهبوا إلى إثبات ما أثبت الله لذاته من تلك الصفات، وعدم صرفها عن ظاهرها بأي تأويل، مع ت يهه تعالى عن مشا ة الحوادث في تلك الصفات، وتفويض العلم بكيفيا ا وحقائقها إلى الله تعالى، لقصور الإنسان عن إدراكها[5].

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسألة الصفات الخبرية؛ عن جماعة من السلف أ م «لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف، وإذا سئلوا قالوا بالأثر»[6].

---

[1]- البوطي: (م.س)، ص 137، النجار: (م.س)، ص 158، وانظر أيضا: محمد عبده: (م.س)، ص 39.

[2]- رواه مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم 4798، **موسوعة الحديث الشريف.**

[3]- رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم 1077، «...عن أَبِي هريرةَ رضِي الله عنه أَن رسولَ اللهِ صلى الله علَيه وسلم قَالَ ينزِلُ ربنا تبارك وتعالَى كُل لَيلَةٍ إِلَى السماءِ الدنيا حِين يبقَى ثُلُثُ الليل الْآخِر يقُولُ من يدعوني فَأَستجِيب لَه من يسأَلُنِي فَأُعطِيه من يستغفِرنِي فَأَغْفِر لَه» **موسوعة الحديث الشريف.**

[4]- النجار:(م.س)، ص 158-159.

[5]- انظر: بن أبي العز، مرجع سابق: ج1/ص260-263، البوطي: مرجع سابق، ص138، النجار: مرجع سابق، ص159.

[6]- بن أبي العز: مرجع سابق، ج1/ ص 262-263.

2/ وجهة التأويل:

وهي وجهة الإباضية والماتريدية والأشاعرة والمعتزلة والشيعة، وقد ذهب هؤلاء إلى أنّ إمرار تلك الصفات على ظاهرها يلحق النقْص به تعالى، ولذلك ينبغي تأويلها بما يضعها على نسق واحد مع النصوص المحكمة التي تنزه الله تعالى عن مشابهة الخلق، استعمالا في ذلك لقانون اللسان العربي فيما يسمح به من التأويل حسب قواعد المجاز، وعلى سبيل المثال: فإن الإستواء يكون معناه الاستيلاء والغلبة، والأعين معناها العناية والحفظ، والإصبعين في الحديث؛ بمعنى الإرادة والقدرة[1].

وبخصوص منهج الإباضية في التعامل مع الصفات الخبرية؛ يقول الشيخ فرحات الجعبيري: «ففلسفة الإباضية في فهم ما دل ظاهره على التجسيم من القرآن والسنة؛ واضحة غاية الوضوح، إذْ تعتمد على سياق النص، وعلى ما في اللغة من المجازات والاستعارات»[2].

وبعد هذا نتساءل؛ هل كان الشيخ بيوض على طريقة مذهبه في التعامل مع الصفات المتشابهة، أم كانت له وجهة أخرى؟

ثانيا/ موقف الشيخ بيوض من الصفات المتشابهة

إن موقف الشيخ بيوض من الصفات المتشابهة يندرج تحت موقفه العام من النص المتشابه؛ والذي درسناه في الفصل الأول من هذا البحث، حيث رأيناه يعتبر المتشابه ضمن أصعب مواضيع القرآن بحثا ومعالجة، خاصة تلك التي تتعلق بشأن من شؤون الله تعالى الخاصة به، إذ لم يغلِق الشيخ باب التأويل تماما، لكنه دعا إلى الحذر والتورع عند ولوجه، لكون الموضوع الذي يتعلق به؛ من الغيب الذي ينبغي التقيد فيه بالخبر الشرعي، ذلك لقصور العقل عن إدراك حقيقته[3].

وقد جاء موقف الشيخ من الصفات المتشابهة –مثل موقفه العام من المتشابه- موقفا وسطا، يتأرجح بين وجهة التفويض ووجهة التأويل، ويمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

(أ) التمسك بعقيدة السلف في كل ما يتعلق بشؤون الله تعالى وأسمائه وصفاته وهي: تفويض

---

[1]- انظر: اطفيش: **الذهب الخالص**، ص8. البغدادي: **كتاب أصول الدين**، ص110-114. الجويني، أبو المعالي عبد الملك: **كتاب الإرشاد** إلى **قواطع الأدلة** في **أصول الاعتقاد**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، ط1: 1405هـ/1985م، ص146-153. البوطي: مرجع سابق، ص 140-141. النجار: مرجع سابق، ص 160.

[2]- الجعبيري: مرجع سابق، ج1/ص274.

[3]- انظر: موقف الشيخ بيوض من تأويل المتشابه؛ في الفصل الأول من البحث، ص:30-32.

أمرها وحقيقتها إلى الله تعالى،[1] باعتباره منطلقا عاما.

(ب) لما كان الله تعالى قد أخبر بشؤونه وصفاته في كتابه –وقد أنزله لفهمه والتـدبر فيـه- فللعلماء حق البحث في شؤونه تعالى؛ قدر استطاعتهم، للوصول إلى شيء تطمئن إليه النفس –إن أمكن- وإلا فَوضوا الأمر إلى ر ـم[2]، لأن المرء لا يملك الحرية التامة في التأويل، كما يصنع بكلام البشر[3].

(ج) ينبغي اعتماد اللغة في تأويل الصفات المتشا ة، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، يسـتعمل الكنايات وا ـازات والاستعارات، وكل ما تستعمله العرب في لغتهم لتقريب المعاني إلى الأفهام[4]، وذلك ما استعمله القرآن في آيات الصفات وفي غيرها من الأمور الغيبية.

(د) ألاّ يؤدي تأويل الصفات إلى تجسيم الله تعالى، أو تحِييزه في مكان أو زمان[5]، لأن المقصود من التأويل هو تـ يه المولى عن كل نقص.

(هـ) ألاّ يعتقد في تأويل من تأويلات الصفات؛ أنه الحق وغيره باطل، لأ ـا كلها اجتـهادات محتملة للخطإ والصواب[6]، وبالتالي لا يجوز تضليل الآخر أو تكفيره، إذا استوفى رأيه شروطَ التأويل الشرعي.

وليتضح –بصورة أدق- موقف الشيخ من صفات الله المتشا ة، نعرض فيما يلي بعض النماذج من تفسيره لآيات الصفات، لننظر كيف يتعامل معها.

---

[1] - **تفسير سورة القصص**: ص 359.

[2] - **تفسير سورة السجدة:** ص 30.

[3] - (م.س)، ص 36.

[4] - **تفسير سورة طه**: ص 225، وانظر أيضا: **تفسير سورة الكهف**: ص 158.

[5] - **تفسير سورة السجدة**: ص 37.

[6] - (م.ن).

ثالثا/ نماذج من تفسير الشيخ بيوض لآيات الصفات

1/ صفة النفس:

جاءت هذه الصفة في قوله تعالى: (واصطَنعتك ِلنفْسِي) (طه: 41)، مخاطبا نبيه موسى υ، وذلك على أعقاب ذِكر مشاهد سريعة من تاريخه وقصة حياته، وما لامسها من ألطاف إلهية، حيث قال تعالى قبل تلك الآية: (إِذْ تمشِي أُختك فَتقُولُ هلَ اَدلكُم علَىا من يكْفُلُه فَرجعناك ِإلَىآ أُمك كَي تقر عينها ولاَ تحزنَ وقَتلْت نفْسا فَنجيناك ِمن الْغم وفَتناك فُتونا فَلَبِثْت سِنِين ِفي أَهلِ مدين ثُم جِئْت علَىا قَدرٍ يا موسىا) (طه: 40).

والشيخ في تفسيره لصفة النفس "ِلنفْسِي"، لم يتكلف في بيان ماهيتها، بل أولها بما يوحي إليه التعبير من ظِلال ومعانٍ؛ مستعينا بمعهود العرب في الكلام والبيان، فقال في تفسير (واصطَنعتك ِلنفْسِي): «اتخذتك صنيعا لي، فيه معنى الاختيار والاصطفاء، يقال: اصطَنع فلان فلانا، إذا أحسن إليه وضمه إليه، وجعله من خاصته، ومن جلسائه وأقربائه. وأنت يا موسى غَمرتك بما غمرتك به من الإحسان والفضل، لتكون لي خادما، لا لنفسك ولا لأهلك، ولا لأحد آخر، وهذه غاية الإكرام، في أعلى ذُراه»[1].

ثم استأنف الشيخ في توضيح بلاغة التعبير القرآني، ودقة الوصف لتلك الصفة الإلهية وإيحاءاتها، إذ قال: «لم يقل له: واصطنعتك لرسالتي أو لأمري، وإنما قال: "لنفسي" وفي هذا التعبير ما فيه من عمق المحبة والإكرام، وفيه أيضا معنى قولهم: ومن شرط كل شرط جزاء، فكأن قوله تعالى: (واصطَنعتك ِلنفْسِي)، نتيجة لقوله: (وفَتناك فُتونا فَلَبِثْت سِنِين ِفي أَهلِ مدين ثُم جِئْت علَىا قَدرٍ يا موسىا) لتصنع عبدا لله، متضرعا لله، يفني كله في الله، وفي تنفيذ أمر الله من تلك اللحظة التي نبئَ وأُرسِل فيها»[2].

هكذا نجد الشيخ بذل وسعه في بيان ما توحي إليه صفة النفس، من معاني الرحمة والفضل الإلهي، تأكيدا لكمال صفاته تعالى، وتنزيها له عن مشابهة خلقه في تلك الصفة، أو فهمها على ظاهرها.

---

[1] - **تفسير سورة طه**: ص 280.

[2] - (م.س).

2/ صفة العين:

وردت هذه الصفة في القرآن بصيغة المفرد، كما في قوله تعالى –مخاطبا نبيه موسى υ-: (وألْقَيت علَيك محبةً مِني ولِتصنع علَى عيني) (طه: 39)، ووردت أيضا بصيغة الجمع، كما جاء في الآية التي يحكي فيها تعالى وحيه لنوح υ بصناعة السفينة، (فَأَوحينآ إِلَيهِ أَنِ اصنعِ الْفُلْك بِأَعينِنا ووحيِنا) (المؤمنون: 27).

وبمناسبة تفسير الشيخ للآية السابقة، أول صفة "أعيننا" بالحفظ والرعاية، حيث قال: «أذِن الله تعالى لنوح في صناعة الفلك وتعهد له بحفظه، إذ لو استطاع قومه لأفسدوا عمله، فهو إذن يصنع السفينة، وعين الله ترعاه وتحفظه»[1].

وبنفس الصيغة: صيغة الجمع، وردت صفة العين في قوله تعالى –يصف حال سفينة نوح فوق الطوفان-: (تجرِي بِأَعيننا جزآءً لِمن كَانَ كُفِر) (القمر: 14)، وقال الشيخ في تفسير الآية: «وهنا يتجلّى حِفظ الله لهذه السفينة التي صنعها نوح من ألواح ودسر، وسط هذه الأمواج العاتية، ولذلك عبر الله تعالى عن هذا الحفظ بقوله: "تجري بأعيننا" (القمر: 14)، تجري بحفظنا ورعايتنا ... عناية الله رعتها وحفظتها، حتى أراد الله لها الرسو على الجودِي»[2].

3/ صفة الوجه:

وردت صفة الوجه في مثل قوله تعالى –مخاطبا نبيه: (واصبِر نفْسك مع الذِين يدعونَ ربهم بِالْغداةِ والْعشِي يريدونَ وجهه) (الكهف: 28)، فقد أول الشيخ إرادة وجه الله، بطلب رضاه، حيث قال في تفسير "يريدون وجهه": «يدعون ربهم ويذكرونه ابتغاء لوجهه، بمعنى لا مطمع لهم في عرض من أعراض الدنيا، وليسوا مدفوعين بشيء آخر ... وإنما غايتهم وجه الله ورضاه، واستعمال كلمة: وجه الله؛ معروف، نقول: أعطني كذا لوجه الله، أسألك لوجه الله أن تفعل كذا، والمراد طلب رضا الله تعالى، وطلب المنزلة عنده»[3].

نلاحظ في هذا التحليل؛ أن الشيخ ينفي عن الأذهان توهم الجارحة، في صفة "وجه الله" ببيان أنها تعبير مجازي عن إخلاص القصد لله، والشاهد على ذلك استعمال العامة في حديثهم اليومي،

---

[1]- **تفسير سورة المومنون**: ص 129.

[2]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 113.

[3]- **تفسير سورة الكهف**: ص 158.

وهم لا يتصورون في أذهانهم أبدا الجارحة في حقّه تعالى، لا المتكلم ولا المستمع.

4/ صفات: اليد والقبضة واليمين

بمناسبة قوله تعالى: (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه) (الزمر: 67)، أخذ الشيخ في تأويل صفات: اليد والقبضة واليمين؛ على أنها تعبير مجازي عن قدرة الله وإرادته، حيث قال في تفسير الآية: «كل هذا الاتساع [أي الاتساع الكوني] يطوى كما تطوى الصحيفة، ويكون بيمين الله، وتعالى الله عن اليد والقبضة واليمين، وإنما المراد هي قدرته، وأنه هو الذي يملك هذه الأجرام وهذه المخلوقات على سعتها، وهي مسيرة بقدرته وإرادته»[1].

5/ صفة العرش والاستواء عليه:

ورد في القرآن عدد من الآيات تصف الله بأنه صاحب العرش، كقوله تعالى: (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) (الأنبياء: 22)، وقوله: (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) (النمل: 26)، كما وردت آيات أخرى، تصف الله تعالى بأنه على العرش استوى، كقوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) (طه: 5)، وقوله: (الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) (السجدة: 4).

وقد أول الشيخ "الاستواء على العرش" عند تفسيره لثلاث سور: طه والفرقان؛ اللتان أول فيهما الاستواء تأويلا إجماليا، وفي تفسيره لسورة السجدة أوله تأويلا تفصيليا، وسنعرض – بالترتيب- تأويله للاستواء على العرش في المواضع الثلاث، لنرى مدى تطور فهمه وعرضه لتلك الصفة المتشابهة.

أ) تأويل الاستواء في تفسير سورة طه:

قال الله تعالى في تلك الصفة: (الرحمن على العرش استوى) (طه: 5)، وأولها الشيخ: «بالقهر والغلبة والاستيلاء على الملك كله»[2]، وبين أنّ «الاستواء على العرش، عبارة مألوفة على

---

[1] - **تفسير سورة المومنون**: ص 245-246.

[2] - **تفسير سورة طه**: ص 225.

لسان العرب، والقرآن جاء بلسان عربي مبين، يستعمل الكنايات وا ازات والاستعارات وكل ما استعمله العرب في لغتهم في تقريب المعاني، فهم يطلقون على المَلِك إذا كان متمكنا من ملْكـه: استوى على عرشه، فلا تقع حركة ولا سكون إلا بإذنه»[1].

ثم يعقّب الشيخ على هذا التحليل متسائلا، ومجيبا في ذات الوقت: «فمن المهيمن والمسيطر على الكون كله؟ الله تبارك وتعالى؛ الكل في قبضته، والكل تحت تصـرفه ... فهـو علـى العـرش استوى»[2].

نلاحظ مما سبق؛ أن الشيخ يؤول الاستواء انطلاقا من معهود العرب في كلامهـم وتعـابيرهم ا ازية، لأن القرآن نزل بلغتهم وبيا م، ففسر استواء الرحمن على العرش؛ باستيلائه على ملكـه وسلطانه -الذي وسِع السماوات والأرض- وهيمنته عليه؛ تماما كما تعبر العرب عن تمكن المَلِك من ملكه، باستوائه على عرشه، وذلك تقريبا للمعنى إلى الأفهام ليس إلاّ.

ب) تأويل الاستواء في تفسير سورة الفرقان:

قال الله تعالى في تلك الصفة: (الذِي خلَق السماواتِ والاَرض وما بينهما فِي سِتةِ أَيامٍ ثُـم استوىا علَى الْعرشِ الرحمن فَاسأَلْ بِهِ خبِيرا) (الفرقان: 59)، وهنا زاد الشيخ معنى إضـافيا في تأويله للاستواء بالاستيلاء، حيث بين أن المقصود بالاستيلاء «هو الاستيلاء بالتصريف والإدارة»،[3] والتدبير لشؤون الكون.

أما العرش فقد فوض الشيخ حقيقته إلى الله؛ حيث قال: «والعرش هو ذلك الخلق العظيم، الذي خلقه الله تعالى وسماه عرشا، وسماه كُرسيا، ولكن ما هي حقيقة العرش؟ وما هي حقيقة الكرسي؟ وهل هو شيء وراء السماوات؟ عِلم ذلك عند الله»[4].

كل ما في الأمر أن الشيخ حاول تحديد مكان العرش؛ استنتاجا من ذِكر حمله من قِبل الملائكة، بعد فناء السماوات والأرض، في قوله تعالى: (فَإِذَا نفِخ فِي الصورِ نفْخـةٌ واحِـدةٌ وحمِلَـتِ الاَرض والْجِبالُ فَدكتا دكةً واحِدةً فَيومئِذٍ وقَعتِ الْواقِعةُ وانشقتِ السمآءُ فَهي يومئِذٍ واهِيةٌ

---

[1] - **تفسير سورة طه**: ص 225.

[2] - (م.ن)

[3] - **تفسير سورة الفرقان**: ص 202.

[4] -(م.ن).

والْملَك علَى أرجآئِها **ويحمِلُ عرش ربــك فَوقَهم يومئِذٍ ثَماِنيةٌ** (الحاقة: 13-17)، حيث قال الشيخ عن مكان العرش: «ومما تدل عليه بعض آيات القرآن الكريم، أن العرش شـيء وراء السماوات والأرض، لأنه في الوقت الذي تفنى فيه السماوات والأرض يحمل عرش الله ثمانية»[1].

ج) تأويل الاستواء في تفسير سورة السجدة:

في تفسير سورة السجدة، أول الشيخ صفة الاستواء على العرش تأويلا مستفيضا؛ بما لم يفصله في تفسير السورتين السابقتين –طه والفرقان-، حيث حاول تقريب مفهوم العرش أولا، ثم مفهوم الاستواء عليه ثانيا.

وقبل شروع الشيخ في تفسير الاستواء، صرح –بوضوح- بمنهجه في التعامل مع الآيات المتعلقة بشؤون الله، وبالمتشابهات عموما، ويتلخص المنهج في تفويض حقائقهـا إلى الله أولا وأخـيرا، ثم محاولة البحث فيها قدر الاستطاعة للوصول إلى ما تطمئن إليه النفس –إن أمكن-، قال الشيخ بهذا الصدد: «أما الاستواء فحقيقته عند الله تعالى، وهو من شؤونه، لا نتكلم فيه ... والعرش كـذلك لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، فكُل من كلمة "ثم" و"الاستواء" و"العرش"، من المتشابه، وإنه لَمِـن الصعوبة الخوض في تفسير الآيات التي تتعلق بشؤون الله تعالى الخاصة به، ولكنه تعالى أخبرنا بهـا في كتابه، فلنا أن نبحث قدر طاقتنا واستطاعتنا للوصول إلى شيء تطمئن إليه النفس إن أمكـن، وإلا فَلْنفوض الأمر إلى الله»[2].

ففي تأويل العرش أولا، أكد الشيخ على عجز العقول عن إدراك حقيقته و مكان وجـوده، و مقدار عظمته والحَملة الذين يحملونه، لأن كل ذلك غيب مطلق، وبين أن كل ما يزعمه الرواة،[3] في وصف العرش ووزنه وطوله وعرضه، كل ذلك باطل لا أصل له، لعدم وجود نص من قـرآن ولا حديث، يعتمد عليه في فهم تلك الأمور، وكلّ ما يمكن عِلْمه عن العرش أنه من خلـق الله، وأنه أعظم من السماوات والأرض؛ كما وصفه تعالى[4]: (قُلْ من رب السماواتِ السـبع ورب

---

[1] - (م.ن).

[2] - **تفسير سورة السجدة**: ص 30.

[3] - انظر الروايات التي رويت في وصف العرش عند: الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود: **روح المعاني**، دار الفكر، بيروت، ط: 1398هـ/ 1978م، مج6/ص153-154.

[4] - **تفسير سورة السجدة**: ص 30.

الْعرشِ الْعظِيمِ) (المومنون: 86).

هذا وقد وردت أخبار في كتب الحديث حول وصف العرش، إلا أ ا من أحاديث الآحاد التي تفيد الظن –عند الشيخ بيوض وغيره- ولا ترقى إلى درجة اليقين الذي تبنى عليه العقائـد، إذ أن مذهب الشيخ بيوض هو عدم الاحتجاج في مسائل العقيدة إلا بالسنة المتواترة، إلى جانب القرآن –كما رأينا ذلك سالفا-[1].

ومن تلك الأخبار ما روي في وصف العرش بأن له قوائم؛ «...عن أَبِي سعِيدٍ رضِي الله عنـه عن النبِي صلى الله علَيهِ وسلم قَالَ الناس يصعقُونَ يوم الْقِيامةِ فَأَكُونُ أَولَ من يفِيـق فَـإِذَا أَنـا بِموسى **آخِذٌ بِقَائِمةٍ مِن قَوائِمِ الْعرشِ** فَلَا أَدرِي أَفَاق قَبلِي أَم جوزِي بِصعقَةِ الطورِ»[2].

فالشيخ بيوض إذًا، لم يعتمد على تلك الأخبار الأحادية في تأويل العرش وإنما اعتمد على اللغة، وعلى ما يتواضع عليه البشر في كلامهم ويستعمله القرآن في سياقاته، إذ بين الشيخ أن العرش في اصطلاح البشر ومعهودهم، يطلق على الكرسي الذي يصنع للسلطان أو الرئيس أو من بيده الحل والعقد، وهو الكرسي الذي يجلس عليه الحاكم، ومنه يصدر الأوامر التي يجب تنفيذها في الدولة، كما بين الشيخ أن القرآن استعمل مصطلح العرش في هذا المعنى، ففي سياق الحديث عن ملكـة سبأ وسليمان، قال تعالى –على لسان سليمان وهو يطلب إحضار عرش بلقيس-[3]: (يآ أيـ ـها الْملأُ أَيـكُم يأتِينِي بِعرشِها قَبلَ أَنْ يـأتونِي مسلِمِين) (النمل: 38)، وقال أيضا: (نكروا لَها عرشها ننظُر أتهتدِي أَم تكُونُ مِن الذِين لاَ يهتدونَ) (النمل: 41).

وهكذا اعتبر الشيخ أنه لما كان المعنى الذي ذكره للعرش مستعملًا في الكلام، ولما كان القـرآن قد نزل بأساليب العرب، وقد يسره الله للذكر؛ بحيث يفهم منه قدر ما يهتدى به، فالنتيجة أنـه تعالى جاء بتلك المصطلحات -أي مصطلحات الآية المتشا ة- وأطلقها على الأمور الغيبية الـتي

---

[1]- أنظر: مسألة تأسيس العقيدة على اليقين في **الفصل الأول من البحث**، ص41-42.

[2]- رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: وواعدنا موسى ثلاثين ليلة...رقم 3136. ورواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله، باب من سورة الزمر، رقم 3168، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. **موسوعة الحديث الشريف**.

[3]- **تفسير سورة السجدة**: ص 30-31.

تتعلق بالله تعالى أو باليوم الآخر، حتى يمكن للبشر إدراكها[1]، «وإن الله تعالى ليتنزل في عليائه، وفي عظمته وسلطانه، ليخاطبنا بلغة نفهمها! »[2].

كما بين الشيخ أنه تعالى مِلك الملوك، اختار العرش مصدرا لأوامره ونواهيه، وشؤونه التي ينفذها في خلقه على أيدي من يشاء من جنوده، وأن هذا النظام المحكم تخضع له كل المخلوقات، فهي مسخرة لإرادة الله الصادرة من العرش، ودليل الشيخ على هذا المعنى هو سياق تلك الصفة[3] "ثم استوى على العرش"، فقد جاءت بعد قوله تعالى: (الله الذِي خلَق السماواتِ والآرض وما بينهما فِي سِتةِ أيامٍ) (السجدة: 4)، وهذا التأويل طبعا هو مجرد تقريب للمعنى إلى الأذهان لتفهم شيئا ما؛ من صفة العرش، وتزداد إيمانا ببارئها، وإلا فحقيقته عند الله أعظم من ذلك.

أما صفة "استوى" فقد أولها الشيخ بالاستيلاء، بعد أن نزه اللهَ عن التجسم والتحيز، أي عن مظنة جلوسه أو حلوله في الأمكنة، لأنه تعالى لا تحويه الأقطار والجهات، وليس بجسم مصور ولا جوهر مقدر[4].

ومعتمد الشيخ في تأويله هو لغة العرب –كما مر بنا-، إذِ استشهد على معنى الاستيلاء؛ بالبيت الشعري الذي اعتاد علماء العقيدة الاستشهاد به[5]، وهو:

قد استوى بِشرٌ على العراق ... من غير سيفٍ ودمٍ مِهراق[6].

كما استند الشيخ إلى الاستعمال الشائع "للاستواء"، حيث «يقول الناس: استوى فلان على المملكة الفلانية، وليس مرادهم الجلوس على الكرسي، وإنما أخذ الأمر بيده، وأصبح مِلكا مطلقا نافذَ الأمر، وكذلك استولى الله تعالى على السماوات والأرض يدبر أمرها، ويدل على هذا المعنى إسناد التدبير إليه، وهو المدبر حقا»[7]، وذلك ما جاء بعد آية الاستواء مباشرة حيث قال تعالى: (يدبر الآمر مِن السمآءِ إِلى الآرضِ) (السجدة: 5)، فالله تعالى –كما وضح الشيخ- لم يخلق

---

[1] - (م.س)، ص 31.
[2] - (م.ن).
[3] - (م.س)، ص 32.
[4] - **تفسير سورة السجدة**: ص 32.
[5] - (م.س)، ص 33.
[6] - ابن منظور: مصدر سابق، ج14/ ص414.
[7] - **تفسير سورة السجدة**: ص 33-34.

الخلق وضيعه، بل خلقه وهو يدبره في كل حين؛ كما تدل على ذلك كلمة "ثم" في الآية: (خلق السماواتِ والأرض وما بينهما في ستةِ أيامٍ **ثُم** استوى على العرشِ)، وكما تدل على ذلك أيضا الآية: (ألا له الخلق والأمر) (الأعراف: 54)، التي فسر الشيخ الأمر فيها؛ بتدبير المخلوقات[1].

وتدبير أمر المخلوقات، وإدارة شؤونها وتسييرها؛ لا يتم إلا بعد خلقها -كما ذكر الشيخ-، فبعد أن تعلقت إرادة الله بخلق الخلق، فكانت في ستة أيام، استوى على العرش يدبر أمرها وفق سننه، وذلك ما تدل عليه كلمة "ثم"، التي لا تفيد في حق الله تعالى تراخٍ ولا ترتيبا زمنيا، وإنما هي أمور تحدث بمقتضى الحكمة، فالخلق أولا ثم التدبير ثانيا، بتمكين كل ما خلق من أداء وظيفته، وفق سنن مقدرة فهو تعالى المُسير لهذا النظام كله[2].

وبعد ذلك التحليل العميق لصفة الاستواء على العرش، عقب الشيخ لمستمعيه، ببيان نسبية التأويل وفهم مثل تلك الصفة الإلهية، فقال: «وهذا قُصارى ما نستطيع أن نقوله للإيضاح والبيان، ويبدو أنكم تصورتم المعنى المقصود نسبيا»[3].

هذا وبعد أن تبينا رأي الشيخ في صفة الاستواء؛ الذي كان يتأرجح فيه بين التفويض والتأويل، لم نجده يتعصب لرأيه، بل سجلنا له موقفا منصفا من الرأي الآخر -الذي يتمسك بالتفويض المطلق- وهو رأي أهل الأثر من السلفية، لأنهم ما راموا إلا تنزيه الله تعالى، فهم الذين يثبتون لله ما أثبت لنفسه من صفات من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، وهم الذين روي عنهم في الاستواء، مقولة: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»[4]، يقول الشيخ في إنصافهم: «... فنحن لا نضللهم ولا نتهمهم أبدا بأنهم مشبهة، فهذا ظلم. هذا وإننا لم نر عالما من علماء أهل السنة، أو من انشق منهم -كالأشاعرة- لا ينزه الله تعالى عن الأقطار والجهات، وعن الحدية والتصوير، والاستقرار في

---

[1] - (م.س)، ص 34.

[2] - (م.س)، ص 32-33.

[3] - (م.س)، ص 33.

[4] - المقولة منسوبة إلى الإمام مالك بن أنس، حيث روى «أبو الشيخ الأصبهاني، وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال: كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه...ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعا. ثم أمر به أن يخرج». بن تيمية: مصدر سابق، مج5/ص40-41.

مكان، وهذا المُصرح به في كتبهم، فهم ي هون الخالق ت يها عجيبا، ويفوضون الأمر إليه في هذه الأمور الغيبية، وهذا هو الواجب»[1].

6/ صفة رؤية المؤمنين لله تعالى:

يمكن اعتبار هذه الصفة من الصفات الخبرية؛ من حيث أن العلم ا يتوقف على الخبر الشرعي، ولا يمكن للعقل إدراكها بالاستقلال، وكذلك من حيث ما تناولتها الأفهام في ورودها الخبري بين تفويض وتأويل[2]، لخفاء معناها وظنية دلالتها، وبالتالي فهي من المتشابه.

ومحور الخلاف في هذا الصفة؛ يدور حول السؤال التالي: هل يمكن للإنسان أن يرى الله تعـالى في الدنيا والآخرة؟، وبعد الاتفاق على استحالة رؤيته تعالى في الدنيا، انشقت الآراء إلى وجهـتين أساسيتين: رأي يثبت رؤيته تعالى في الآخرة، ورأي ينفي ذلك[3].

* الرأي الأول:

هو رأي أهل السنة بمختلف طوائفهم، وقد بنوه على ظواهر نصوص الوحي، من مثـل قولـه تعالى: (وجوهٌ يومئِذٍ ناضِرةٌ ِالَىٰ ربـها ناظِرةٌ) (القيامة: 22-23)، وقوله ρ: «إنكم سـترون ربكم عيانا كما ترون هذا [أي القمر] لا تضامون في رؤيته»[4]، وأكثر أصحاب هـذا الـرأي؛ يقولون أن رؤية الله ليست رؤية إحاطة، بل هي رؤية خاصة بأحكام اليوم الآخر، وبكيفية لا نعلم كنهها[5].

* الرأي الثانـي:

ذهب إليه الإباضية والمعتزلة الذي نفوا الرؤية؛ محتجين بأ ا لا تتم إلا بشروط محسوسة؛ مـن تجسم وتحيز في مكان وجهة للمقابلة، وذلك مستحيل وغير جائز في حقه تعالى، ولهـم في تأييـد

1- **تفسير سورة السجدة**: ص 33.

2- النجار: مرجع سابق، ص 161.

3- (م.ن).

4- رواه البخاري، كتاب المواقيت، باب فضل صلاة العصر، رقم 521. ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم 267. **موسوعة الحديث الشريف**.

5- النجار: مرجع سابق، ص161-162، وانظر: البغدادي: **كتاب أصول الدين**، ص99. وابن أبي العز: مرجع سابق، ص207.

وجهتهم أدلة نقلية وتأويلات للنصوص التي استدلّ ا الطرف الآخر[1].

أما الشيخ بيوض فقد تبنى رأي مذهبه في المسألة، وذلك ما تناوله في موضع واحد –مما اطلعنا عليه من تفسيره-، عند تفسيره لقوله تعالى: (فَمن كَانَ يرجو لِقَآءَ ربـهِ فَلْيعملْ عملاً صالِحا ولاَ يشرِك بِعِبادةِ ربـهِ أحدا) (الكهف: 110)، حيث دخل الشيخ إلى مسألة الرؤية؛ من مدخل: "لقاء الله" -الوارد في الآية-، فذكر أولا رأيين قِيلَا في قوله تعالى: "لقاء ربه"، ثم رجح رأيه الذي يميل إليه، أما الرأيان فالأول يرى أن لقاء الله، معناه الإيمان بالوقوف بين يديه، والثاني يفسر الرجاء بالخوف، يرجو لقاء ربه، بمعنى: يخاف لقاء ربه[2].

أما الرأي الذي رجحه الشيخ، فقد استهله ببيان أن لقاء الله مطلقا، هو مصير الخلق إلى ر م والوقوف بين يديه للحساب ثم الجزاء، أما لقاء الله للمؤمنين؛ فهو رضاه عنهم وإكرامه لهم؛ بإدخالهم دار كرامته، وإعداد الجنة لهم نزلا خالدين فيها، -كما فسره الشيخ-، وأما الكفار فهم عن ر م محجوبون لأنه تعالى لا يقيم لهم وزنا، وإنما يركُمهم جميعا فيجعلهم في جهنم، وبين الشيخ أن هذا هو معنى لقاء الله، كما ورد في آيات وأحاديث كثيرة[3]، منها قوله تعالى: (يا أيـتها النفْس الْمطْمئنةُ ارجِعي إِلَى ربـكِ راضِيةً مرضِيةً فَادخلِي فِي عِبادِي وادخلِي جنتِي) (الفجر: 27-30)، وكقوله ρ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[4].

وعقّب الشيخ على تفسيره للآية السابقة بقوله: «هذا هو لقاء الله تعالى وليس –كما يقول البعض- رؤيته، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فالله تعالى لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة»[5].

هذا كل ما وجدناه من رأي الشيخ في المسألة –التي شغلت حيزا لا بأس به من مباحث علماء العقيدة- حيث استدل –باختصار- لرأيه بالآية التي كان بصدد تفسيرها فحسب، دون أن يناقش

---

[1]- النجار: مرجع سابق، ص 162، وانظر: اطفيش: **شرح عقيدة التوحيد**، ص 497، السالمي: مصدر سابق، ص 186-205، الزمخشري: مصدر سابق، ج2/ص54، وج4/ص662.

[2]- **تفسير سورة الكهف**: ص 452.

[3]- (م.س)، ص 452-453.

[4]- رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم 6026. ورواه مسلم، كتاب الذكر، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم 4844. **موسوعة الحديث الشريف**.

[5]- **تفسير سورة الكهف**: ص 453.

أو يعرض أدلة الرأي الآخر، ولعله قد فصل في ذلك عند تفسيره للآيات المباشرة في الموضوع[1]، والتي لم تصل أيدينا إلى أجزاء تفسيرها.

المبحث الرابع: منهج الشيخ بيوض في عرض الصفات

للشيخ بيوض في تفسيره لكتاب الله العزيز –عموما- منهج متميز في فهم وعرض صفات الله تعالى، يمكن دراسته من خلال أربعة نقاط؛ الأولى: بيانه لتناسب الصفات في أسمائها مع مدارك العقول، الثانية: بيانه لتناسب الصفات مع سياقها القرآني، الثالثة: بيانه لتناسب الصفات مع تجلياتها الكونية، أما النقطة الرابعة والأخيرة فهي بيانه لأثر الإيمان بالصفات في الحياة.

أولا/ تناسب الصفات في أسمائها مع مدارك العقول

لما كانت معرفة الإنسان بربه لا تتم إلا بمعرفة صفاته تعالى التي أخبرنا بها في كتبه وعلى ألسنة رسله، فكيف يمكن فهم تلك الصفات وإدراك معانيها إدراكا سليما من أوهام التشبيه والإشراك؟ لقد أولى الشيخ بيوض لهذه القضية المنهجية عناية كبيرة في تفسيره حيث وجدناه في مواضع عديدة يبدئ ويعيد في تنزيه الخالق –جل وعلا- عن مشابهة الخلق له؛ في صفاته العلا وأسمائه الحسنى، باعتباره قانونا عاما، وركيزة أساسية في فهم الأسماء والصفات عموما، كما ورد في قوله تعالى: (لَيس كَمِثْلِهِ شيءٌ) (الشورى: 11)، وقوله: (قُلْ هو الله أحدٌ الله الصمد لَم يلِد ولَم يولَد ولَم يكُن له كُفُؤا أحدٌ) (الإخلاص).

ويرى الشيخ أن المذهب الأصوب والأقرب إلى تحقيق مبدأ التنزيه هو مذهب السلف، حيث يدعو إلى الاعتقاد بأن لله أسماء وصفاتا –من دون أن يفرق الشيخ بينهما-، لكن لا يعرف الإنسان حقائقها، فيؤمن بما أسنده تعالى إلى نفسه من أسماء وصفات وأفعال؛ من غيره تشبيه ولا تعطيل، فوجوده تعالى –مثلا- ليس كوجود غيره من المخلوقات، وكذا حياته وسمعه وبصره وإرادته وحبه وبغضه، وولايته وعدواته، وكل شأن من شؤون تعالى هو خاص به لا يشبهه شيء[2].

---

[1]- كقوله تعالى: (لا تدرِكُه الأبصار وهو يدرِك الأبصار وهو اللطِيف الْخبِير) (الأنعام: 103)، وقوله:(وجوهٌ يومئِذٍ ناضِرةٌ إِلَىٰ ربِّها ناظِرةٌ) (القيامة: 22-23)، وغيرهما من الآيات.

[2]- **تفسير سورة القصص**: ص 361.

ونجد الشيخ يدعو صراحة إلى التمسك ذا المذهب في العقيدة فيقول: «... فدعوا هذا الجدل، وتمسكوا بمذهب السلف الذي فيه كل السلامة»[1]، وفي موضع آخر يبين من هم السلف الـذين يدعو إلى تبني مذهبهم لسلامته، فيقول: «هذا هو الطريق الأقوم، وهذا الصراط المستقيم الـذي سلكه النبي الأعظم، وسلكه الخلفاء الراشدون، والصحابة من بعـده ψ، فَلْنسـلك طـريقهم، ولْنتجنب هذا الجدل حتى نضمن السلامة»[2].

كما سمى الشيخ المذهب الذي دعا إلى التمسك به في العقيدة، بإيمان العجائز أو إيمان المُقلـد، واعتبره هو الإيمان الصحيح[3]، وكلها تسميات تعني في اية المطاف؛ التفـويض والتسـليم لله في معرفة حقيقة ذاته وصفاته، والإيمان ا من غير تكلف أو جدال في الفهم والإفهام.

هذا ومن جهة أخرى وجدنا الشيخ يؤكد على أن الله تعالى في التعريـف بصـفاته لعبـاده، خاطبهم بلغة تناسب مدارك أفهامهم ومنطق عقولهم، ولا يمكن إفهامهم بطريقة أخرى غير تلـك اللغة، مع أن حقائق صفاته تعالى وذاته العلية، تقصر العقول عن بلوغها وإدراكها، وهذا ما يؤكد مبدأ الت يه مرة أخرى، إذ لا يجوز للبشر قياس صفات الله الكاملة؛ بصفا م التي عرفوها بعقولهم، ومشاهدا م الواقعية القاصرة.

يقول الشيخ ذا الصدد: «نؤمن بأن الله تبارك وتعالى واحد في ذاته، وواحـد في صـفاته لا شريك له فيها وإن تشا ت الألفاظ؛ ففرق بين سمع مخلوق وسمع الله، وبين بصره وبصر الله، فإذا أُضِيف السمع والبصر والقدرة والرحمة والإرادة لغير الله، كانت لها معان محدودة قاصرة، بخـلاف صفات الله تبارك وتعالى، فهي كاملة الكمال المطلق، فالله قدير القدرة المطلقة، الـتي لا يعتريهـا عجز ولم يسبقها عجز ولا يأتي بعدها عاجز ... أما المخلوق فإذا قال: أقدر على كذا، فهو يقدر على شيء ولا يقدر على شيء آخر، وقبل قدرته تلك كان عاجزا وبعد ذلك يكون العجز»[4].

وبمناسبة قوله تعالى: (اللهُ نور السماواتِ والآرضِ ...) (النور: 35)، بين الشيخ أن الأسـاء

---

[1]- **تفسير سورة القصص**: ص 361.

[2]- (م.س)، ص 365.

[3]- (م.س)، ص 362.

[4]- بيوض، إبراهيم بن عمر: **فتاوى الإمام الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر**، ترتيب وتخريج: بكير محمد الشيخ بالحاج، المطبعة العربية، غرداية، ط: 1988، ج1/ص33، وانظر أيضا: ص 36، و**تفسير سورة القصص**، ص 361.

والصفات وردت بلغة عربية يستطيع الإنسان فهمها، لكن لا يجوز له فهمها على معاني أوصاف الخلق، إذ لا توجد طريقة أخرى لفهم حقيقة الخالق وكمالاته، وأنى للبشر إدراكها ؟![1].

ثم ضرب الشيخ أمثلة؛ لتثبيت قضية تناسب أسماء الصفات مع الأفهام، فقال: «فإذا قلنا مثلا: إن الله سميع بصير، فلا يخطر ببالنا أبدا أنه يسمع بأصمخة وآذان، أو يبصر بحدقة وأجفان، فليس سمع الله وبصره كسمعنا وبصرنا ... وإنما علينا أن نفهم أن الله سميع لا تخفى عليه الأصوات، بصير لا تخفى عليه الألوان، قدير كل شيء في قبضته، جبار له القوة والسيطرة ...» [2]، ثم استأنف الشيخ قائلا: «أما أن نتساءل عن الكيفية: كيف يخلق؟ وكيف يرزق؟ وكيف يحيي وكيف يميت؟ وكيف يسمع وكيف يبصر؟ هذا ما لا مطمع فيه للخلق ولن يستطيع أحد إدراكه، ولو اجتمع أهل السماوات والأرض ... وعلى هذا يجب أن نفهم أسماء الله الحسنى»[3].

وفي موضع آخر تحدث الشيخ عن كلمة التكوين "كُن" المتعلقة بإرادة الله في الخلق؛ قبل أن يخلقه، التي وردت مِرارا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنمآ أمره إذَآ أراد شيئًا أنْ يقُولَ لَه كُن فَيكُونُ﴾ (يس: 82)، وذكر الشيخ أنها توجه للشيء في العدم قبل إيجاده؛ وهو لا يسمع، ثم عقب على هذه الكلمة بأنها في الحقيقة عبارةٌ تقرب الفهم ليس إلاّ، فعندما يخبرنا الله أن إرادته إذا تعلقت بشيء: قال له: كن فيكون[4]، فقد «أراد أن يصور لنا، ويعبر تعبيرا نفهمه عن طواعية الأمور لإرادته، وإلا في الحقيقة ليس هناك كاف ولا نون، حتى يكون الرد مفحِما على من يريد التفلسف؛ فيقول: كيف يسمع الشيء المعدوم، وهل هو موجود حتى يسمع ؟»[5].

هكذا في كل مرة، يبين الشيخ مدى لطف الله بعباده، في تعريفهم بأسمائه وصفاته، إذ يتنزل تعالى من عليائه؛ فيخاطبهم بعبارات تناسب أفهامهم ويجري أحكامه على قدر عقولهم، وبتلك العبارات يستطيعون تصور أشياء على قَدر ما يؤمنون به تعالى، ويتيقنوا من قوته وجبروته، وعدله

---

[1]- **تفسير سورة النور**: ص 288-289.

[2]- (م.س)، ص 289.

[3]- (م.ن).

[4]- **تفسير سورة الأنبياء**: ص 85-86.

[5]- (م.س)، ص 86. وانظر أيضا في قضية تناسب أسماء الصفات مع العقول: **تفسير سورة مريم**: ص 90-91، و**تفسير سورة السجدة**: 49-50.

وسلطانه، وذلك ما يدفعهم إلى اتباع شرعه[1].

ثانيا/ تناسب الصفات مع سياقها القرآني

كثيرا ما تنتهي آيات قرآنية وتذَيل بذِكر صفة أو أكثر من صفات الله وأسمائه، وكثيرا ما يجمع ذيل الآية بين وصفين من أوصاف الله تعالى، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر، ولما كان القرآن تنزيلا من حكيم حميد، فإن لكل وصف أو وصفين ذُيلت بهما الآية؛ مناسبة وانسجام مع موضوع الآية أو سياق الآيات التي ورد الوصفان بعده، وتنزه المولى أن يسرد صفة أو أكثر من صفاته في آية؛ صدفة واتفاقا، من غير حكمة ولا مناسبة، وهو القائل: (... وإنه لَكِتابٌ عزِيزٌ لا يأتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بينِ يديهِ ولاَ مِن خلْفِهِ تنزِيلٌ من حكِيمٍ حمِيدٍ) (فصلت: 41-42).

وهذه القضية المنهجية أولاها الشيخ بيوض -هي الأخرى- اهتماما كبيرا، فكان في مواضع كثيرة من تفسيره يبين تناسب الأسماء والصفات الإلهية مع سياقها القرآني، ونحسب أن اهتمامه ذاك يهدف إلى ربط المسلمين بإعجاز كتابهم وبلاغة نظْمه وتناسب آياته وسوره من جهة، ثم ترسيخ الإيمان بكمال صفاته تعالى من جهة أخرى.

ومن أمثلة ذلك من تفسير الشيخ؛ تحليله لقوله تعالى: (وإن ربك لَهو الْعزِيز الرحِيم) (الشعراء: 9)، وهي آية ذَيل الله بها قصصا للأنبياء وردت في تلك السورة، وعند أول ورود لها ذكر الشيخ مناسبة الجمع بين صِفَتي العِزة والرحمة في الآية، ومناسبتهما لسياقهما، حيث جاءت الآية بعد حديث الله عن المشركين المكذبين للنبي ورسالته، وتسلية الله لنبيه ρ: (لَعلك باخِعٌ نفْسك ألا يكُونواْ مومِنين) (الشعراء: 3)، يقول الشيخ في ذلك التناسب: «والله تعالى جمع بين العزة والرحمة، رحيم بأن أنزل إليكم الكتاب، يذكركم ويريكم آيات الله في أنفسكم، وفي الأرض التي تحتكم، وفي السماء التي فوقكم، ثم يترككم زمنا طويلا لعلكم تتذكرون، وإذا لم تتذكروا فحينئذ يستعمل عِزته، ويومئذ يقول للكفرة إذا استغاثوا أو طلبوا الخروج من النار: (أَولَم نعمركُم ما يتذَكر فِيهِ من تذَكر وجآءَكُم النذِير) (فاطر: 37)، وفي هذا تسلية للنبي ρ وللمؤمنين، لأن المسلمين يغيظُهم أن يروا أنفسهم أذِلّاء تحت سلطة المشركين، وهم أقوياء بالحق

---

[1] - **تفسير سورة الأنبياء**: ص 214، **تفسير سورة السجدة**: ص 50.

المبين»[1].

وعند تفسير الشيخ لقوله تعالى –على لسان إبراهيم υ وهو يخاطب أباه-: (يآأبتِ لاَ تعبـدِ الشيطَانَ إن الشيطَانَ كَانَ للرحمنِ عصِيا) (مريم: 44)، بين الشيخ الحكمة الإلهية في اختيار اسم "الرحمان"، ومناسبته للسياق، بدل أن يقول تعالى: "إنه كان لله عصيا"، وذلك أن قوم إبراهيم υ، يعتقدون أن ما م من نعمة فمن الله وحده، وأنه تعالى هو الذي يرحمهم في الشدائد، فإذا كـانوا يعتقدون هذا في الرحمان، فكيف يعبدون من عصاه؛ وهو إبليس ؟ ألا يخافون أن يمسك علـيهم باب رحمته ؟[2]

ومناسبة قوله تعالى –مخاطبا نبيه ρ-: (وإنـك لَتلَقى الْقُرءَانَ مِن لدنْ حكِيمٍ علِيمٍ) (النمل: 6)، بين الشيخ أولا معنى العلم الإلهي، وهو انكشاف المعلومات له تعالى، من غير شك أو ظن أو تبديل يعتريه، ثم معنى الحكمة الإلهية، التي تعني وضعه تعالى الأشياءَ في مواضعها؛ بالقدر والوقـت المناسب، وبعد تحديد مفهوم الصفتين، أخذ الشيخ يذكر أوجها لمناسـبتهما للآيـة أو السـياق الواردتين فيهما، ومن تلك الأوجه قال: «ومناسبة الوصفَين لهذه الآية، هي في كون القرآن نفسه من نسج الله ونظمه، ليس فيه إلا ما تقتضيه الحكمة، وما يقتضيه العلم، أما الكُتـاب والشـعراء والمؤلفون فقد يقعون في الخطإ بجهلهم أو لعدم حكمتهم»[3].

هكذا نجد الشيخ؛ لا يدع –غالبا- تذييلا من تذييلات الآيات، التي ترد فيهـا الصـفات، إلا ويحكِم صلتها ومناسبتها للسياق القرآني، وتلك نقطة منهجية ممتـازة في عـرض صـفات الله وكمالاته عرضا مبينا، بما يرسخ الإيمان ا في القلوب، بعد أن تتجلّى معانيها في العقول.

ثالثا/ تناسب الصفات مع تجلياتها الكونية

تطرقنا سابقا في الفصل الثاني: "منهج الشيخ بيوض في بيان وجود الله تعالى"، إلى أنواع الأدلة التي استدل ا الشيخ بيوض على وجود الله، وهي نوعان أدلة الآفاق وأدلـة الأنفـس، وهـي بمجموعها تشكل أدلة مشهودة –من عالم الشهادة- يشهدها الإنسان كل حين في أعماق نفسه،

---

[1] - **تفسير سورة الشعراء**: ص 303-304.

[2] - **تفسير سورة مريم**: ص 106.

[3] - **تفسير سورة النمل**: ص 16-17، وانظر أيضا في تناسب الصفات مع سياقها القرآني: **تفسير سورة الفرقان:** ص 38-39، **تفسير سورة الحج:** ص 549، **تفسير سورة طه:** ص 224-225.

وفي صفحات الكون بعوالمه المختلفة، وهي الآيات المحسوسة التي دعا القرآن إلى تدبرها وتأملها – في مواضع عديدة جدا- ليصل منها العقل إلى معرفة ربه ووحدانيته، وقد رأينا كيف كان الشيخ يولي تلك الآيات أهميتها التي شغلتها في القرآن، وكيف كان يوظف الحقائق العلمية الحديثـة في تفسيرها.

وفي باب الصفات وجدنا الشيخ أيضا –في مواضع من تفسيره- ينهج إلى توضيح صـفات الله وأسمائه، ببيان تجليا ا في الكون، وكان كثيرا ما يعقب على تحليلاته العلمية للآيات الكونيـة – السالفة الذكر- بربطها بكمال صفاته تعالى، وتناسبها مع طلاقة القدرة الإلهية، وإحاطـة علمـه تعالى بكل شيء، وسعة ملكوته، ونفوذ إرادته ومشيئته.

فبمناسبة قوله تعالى: (أَلَم تر أن اللهَ أنزلَ مِن السمآءِ مآءً فَتصبِح الارض مخضرةً إن اللهَ لَطِيفٌ خبِيرٌ) (الحج: 63)، أخذ الشيخ يحلل تجليات صِفَتي: اللطف والخبرة؛ في عالم النبات، فبعـد أن ذكر المعاني المستعملة لكلمة اللطيف، وهي الشيء الخفيف العميق الذي لا يكاد يـدرك، وتعـني أيضا: المسالك والحِيل الخفية، بعد هذا؛ ذكر الشيخ مناسبة وصف الله نفسه باللطيف علـى إثـر تلك الآية الكونية، وذلك ليشير تعالى إلى لطف النباتات[1] وما تحويها بداخلها، حتى يفهم الإنسان بعض ما تعنيه صفة اللطف الإلهي، فقال الشيخ في أسلوب تعجبي إيماني: «فكم هي قـوة هـذه البذور، وكم هي قوة هذه الفروع التي تخرج من الأرض، والتي إذا مسها أحد بيده تذوب مـاءً، أي قوة أخرجته وقد كانت الأرض مطموسة عليه، كانت رتقًا ففَتقها الله، حقا ما ألْطف ذلـك النبات الذي يبدأ بصورة لا يمكن رؤيته، وحديد البصر لا يرى سوى الخُضرة، وإذا رآهـا أحـد با هر فإنه يجد تلك الخضرة كلها شبكة من نبات داخل بعضه على بعض، ثم يكبر قلـيلا قلـيلا حتى يتمايز فيشتد»[2].

ثم بين الشيخ بعد ذلك صفة الخبرة الإلهية، كيف تتجلى في النبات، والخبرة تعـني: الدقـة في العلم، فالله تعالى خبير بما يحتاجه كل مخلوق، وما يصلح لكل ذرة من الذرات من مـاء وغـذاء، عليم بطريقة امتصاصها للماء والغذاء، ثم أخذ الشيخ يتساءل أسئلة إيمانية بأسلوب تعجبي، عـن بعض أجهزة النبات ووظائفها الدقيقة، التي هي أثر من آثار الخبرة الإلهية، فأبدى تعجبه عن عـدد

[1]- **تفسير سورة الحج**: ص 563.
[2]- (م.ن).

عروق النبات التي يصعد معها الماء والغذاء، وطريقة امتصاصهما، وعن دِقة الجذور التي هي عبارة عن شعيرات مجوفة كالأنابيب، و ا يمتص النبات غذاءه[1]، ثم يستأنف الشيخ متعجبـا: «تـرى كيف اتخذ هذا العِرق سبيله في بطن الأرض؟ ... فخروج النبات فوق الأرض عجيب، وتسـرب العروق داخل الأرض عجيب، وامتصاصها للغذاء عجيب، ذلك هو صنع العليم الخبير»[2].

وبمناسبة قوله تعالى: (اللهُ نور السماواتِ والآرضِ ...) (النور: 35)، وضح الشـيخ بعـض تجليات اسم الله "النور" في الخلق:

* التجلي الأول:

يتمثل فيما اكتشفه علماء الكون من الأشعة التي تنقل الصوت والصورة من مكان إلى آخـر، فاستخدموها في نقل الأصوات بطريق الراديو، كما وظفوها في صنع الأسلحة الفتاكة، كصـنع الإشعاع الذري، وصارت الأشعة تستعمل في ا ال الطبي للكشف عـن بعـض الأمـراض أو علاجها، ثم يعقب الشيخ أن كل هذه الأشعة هي نور من أنوار الله تعالى[3].

* التجلي الثاني:

يتمثل في الخلق والإبداع، فهو تعالى مبدع السماوات والأرض، هو الذي كشف عنها حجاب العدم وظُلمته، وأخرجها إلى نور الوجود، فالله تعالى –كما يبين الشيخ- نور بذاته، مفَيض نوره على غيره، وذلك بإعطائه كل شيء خلقه، ثم هدايته إلى نظامه الذي يسير عليه[4].

رابعا/ أثر الإيمان بالصفات

بعد أن رأينا أن الشيخ بيوض يميل إلى مذهب السلف في مباحث الإلهيات –عموما-، الـذي ينبني على التفويض لله تعالى في حقائق صفاته وكيفيا ا، والوقوف عند ما أخبر ووصف به نفسه تعالى، دون خوض أو جدال فلسفي فيه[5]، بقي أن نتساءل: ما هو المطلوب من المسلم تجاه صفات الله تعالى؟ وما المقصد من ذِكرها في كتابه الكريم؟ كما يتصور ذلك الشيخ بيوض.

---

[1]- (م.س)، ص 563-564.

[2]- (م.س)، ص 564.

[3]- **تفسير سورة النور**: ص 293 وما بعدها.

[4]- (م.ن)، وانظر أيضا: تجليات القدرة الإلهية في خلق الإنسان –على سبيل المثال- في: **تفسير سورة الحج**: ص 310- 340، **تفسير سورة المومنون**: ص 93-101، **تفسير سورة الفرقان**: ص 184-188.

[5]- انظر مثلا: **تفسير سورة القصص**: ص 359.

يرى الشيخ أن الله تعالى، أراد بالإخبار عن صفاته في كتابه أن يركّز التصديق بعظمته وقوته وسلطانه وسائر صفاته في قلوب المؤمنين، الذين يجب عليهم استحضار تلك الصفات واستشعارها في كل حركاتهم وسكناتهم، وأن تظهر آثارها في استقامة سلوكهم وصلاح أعمالهم، فيقدروا الله حق قدره، ويفردوه بالعبادة والطاعة، ويؤثروا رضاه على رضا غيره[1].

ففي سياق تفسيره للآيات 26-30 من سورة لقمان؛ الواردة في بعض صفات الله وأفعاله في الكون، يقول الشيخ بيوض عن مقصده تعالى من التذكير بصفاته: «هذا ما يريده الله تعالى من هذه الآيات، أن يركز عظمته وقوته وسلطانه في قلوب المؤمنين، وإذا تركزت هذه العقيدة في قلب إنسان، وكان يحصِر الحق والعلو والكِبر في ذات الله وحده، فعندئذ يقدره حق قدره ويفرده بعبادته، يطيعه ولا يعصيه، ويقدم رضاه على سخط غيره، وسخطه على رضا غيره»[2].

ويقول الشيخ في المطلوب من المسلم تجاه صفات ربه: «ولو كنا نستحضر كل هذه الصفات في جميع حركاتنا وسكناتنا، لاستقَمنا ولصلُحت أعمالنا وأحوالنا، لأننا نكون حينئذ نراقب الله تعالى في كل وقت، وهذا من أدب الله تعالى الذي أدبنا به، فلْنتمسك به، ولْنلتزمه حتى نكون من المفلحين»[3].

وقد جسد الشيخ تصوره للمطلوب في الصفات والمقصد من ذِكرها، منهجا في تفسيره لكثير من الآيات المتضمنة لأسماء الله وصفاته.

فعند تفسره –مثلا- لقوله تعالى: (وأن الله هو الْعِلي الْكَبِير) (لقمان: 30)، استخلص الشيخ من اسمي: العلي والكبير؛ فائدتين يستفيدها المؤمن سلوكا واقعيا في حياته عند تدبرهما، فقال: «الفائدة الأولى: أن يتصاغر الإنسان ولا يتعالى ولا يتكبر على غيره، ويعلم أنه ضعيف مهما بدا له أنه قوي ... الفائدة الثانية: أن يعلم أن جميع المخلوقين ضعاف، وإن تعاظموا واستعلَوا وادعوا السلطان، فسلطان الله أعظم، وكبرياؤه أكثر، فلا تطِع مخلوقا في معصية الخالق»[4].

ومناسبة قوله تعالى: (قُل لو كَانَ الْبحر مِدادا لكَلِماتِ ربي لَنفِد الْبحر قَبلَ أن تنفَد

---

[1] - انظر: **تفسير سورة النور**: ص 436، **تفسير سورة لقمان:** 534.

[2] - (م.ن).

[3] - **تفسير سورة النور**: ص 436.

[4] - **تفسير سورة لقمان**: ص 534.

كَلِمات ربـي ولَو جِئْـنا بِمِثْلِهِ مددا) (الكهف: 109)، وبعد تحليل الشيخ لسِـعة علـم الله تعالى، تساءل عن الحكمة والمقصد من تذكير الله بسعة علمه؟، فأجاب: «الحكمة هي أن تصـغر نفوسنا، وتتضاءل علومنا بالنسبة لعلم الله، فلا نطغى ولا نغتر إذا تعلمنا شيئا، أو اكتشفنا شـيئا، فما أوتيتم من العلم إلا قليلا»[1].

وقد عقّب الشيخ على تلك الآية؛ قارنا إياها بآية أخرى في ذات الموضوع، وهي قوله تعـالى: (وفَوق كُل ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ) (يوسف: 76)، إذْ دعا الشيخ الناس عامةً، والعلماء خصوصـا إلى التحلّي بأثرهما العملي -بعد استحضاره في الشعور والوجدان- وهو التواضع وعدم الغرور، يقول الشيخ: «فإذا بلغت أيها الإنسان أي درجة من العلم، فتذكر سعة علم الله الذي صوره في هـاتين الآيتين تصويرا بديعا؛ لا يترك ذرةً من الغرور تتسرب إلى قلب أي إنسان في الدنيا مهمـا بلـغ، فالعلم الحقيقي هو الذي يدعو إلى الإيمان، والعلم الحقيقي هو الذي يدعو إلى التواضع»[2].

وبمناسبة قوله تعالى: (والْقَواعِد مِن النسآءِ اللاتِي لاَ يرجونَ نِكَاحا فَلَيس علَيهن جنـاحٌ اَنْ يضعن ثِيابهن غَير متبرجاتٍ بِزِينةٍ وأَنْ يستعفِفْن خيرٌ لهن واللّهُ سمِيعٌ عِلِيمٌ) (النـور: 60)، بين الشيخ الحكمة أو المقصد من وصف الله نفسه بالسميع العليم في هذا المقام، إذ أن فيه إشـارة إلى أنه تعالى يعلم ما يتهامس به الناس فيما بينهم، إذا رأوا فتاة أو امرأة متكشفة، مشيرا بعضـهم إلى بعض بالنظر الحرام إليها، بل رأى الشيخ أن أول ما يراد بقوله: "والله سميع علـيم" حـديث النفس، لأن الإنسان -رجلا كان أو امرأة- تحدثه نفسه بخواطر، إذا رأى شيئا مما يثير مكـامن الغريزة، فذلك الحديث وتلك الخواطر التي تجري في سويداء القلب، الله مطلع عليهـا، يسـمعها ويعلمها، وإن كان صاحبها لا يسمعها بأذنه[3]، فإذا تدبر المؤمن هذا الوصـف، واستشـعره في وجدانه كل حين، فلا محالة تتعفف نفسه عن الحرام، وتستقيم حاله وسيرته.

وفي المقصد العملي للصفات وأثر الإيمان ا، يقول عبد ا يد النجار: «والإيمان الحق بصـفات الله تعالى، هو ذلك الإيمان الذي يتعدى التصديق الذهني بمدلول الصفة صحيحا شاملا، ليـؤثر في

---

[1]- **تفسير سورة الكهف**: ص 438.

[2]- (م.س)، ص 442.

[3]- **تفسير سورة النور**: ص 435-436، وانظر أيضا في أثر الإيمان بالصفات: **تفسير سورة طه**: ص 227-228، **تفسير سورة الروم**: ص 49-51، **تفسير سورة الأحزاب**: ص 311-312.

النفس تأثيرا تصبح به منفعلة بذلك المدلول، متكيفة به في منازعها السلوكية، بحيث ترى في أفعال المؤمن آثار ما يؤمن به من الصفات، فيكون لصفة العلم على سبيل المثال أثر في توخي الصدق في السر والعلن ... ولصفة الرزق التعفّف عن كل ما فيه شبهة مذلة في طلب المعـاش، إذ الله هـو وحده الرزاق»[1].

ذلك هو تصور الشيخ بيوض للمطلوب من المسلم؛ تجاه صفات الله وأسمائه الحسـنى الـوارد ذكرها في القرآن الكريم، وهو ترجمة معانيها سلوكا وواقعا، بعد فهمها فهما سليما –بعيدا عـن التكلف والخوض في حقائقها- والإيمان ا إيمانا جازما.

[1]- النجار: (م.س)، ص 114.

نتائج الفصـــــل الرابـــــــع

من خلال ما سبق من علاجنا لمسألة الإيمان بصفات الله تعالى عند الشيخ بيوض يمكن أن نخلُص إلى النقاط الآتية:

أولا/ لم يفرق الشيخ بين أسماء الله وصفاته، بل اعتبرهما شيئا واحدا، وهي ألفاظ لهـا معـان معقولة. إذا أُطلقت على الخالق فهي حقيقية، وإذا أطلقت على خلقه فهي نسبية غير حقيقيـة؛ لا تقاس بصفاته تعالى.

ثانيا/ لقد تطرق الشيخ إلى إشكال العلاقة بين علم الله تعالى الأزلي وأفعال الإنسـان؛ كيـف ينفى عنها وقوعها على سبيل الجبر؟ وحاول الشيخ الخروج من الإشكال بانطلاقه مـن أصـول عقدية مسلمٌ ا، وبنى عليها تحليلاته، محاولا إيجاد الانسجام الفكري بينها؛ حتى لا تضطرب فيها الأفهام، ونحسب أن طرحه لهذا الإشكال، كان دف دفع الناس نحو الفاعلية في العمل للـدارين، وهجر مفاهيم التكاسل والتواكل؛ استنادا على القَدر.

ثالثا/ لم يكن الشيخ في تفسيره؛ يشرح صفات الله تعالى شرحا اصطلاحيا دقيقا، بل كان يهتم أكثر بذِكر متعلقا ا وشواهدها الكونية، وآثارها الإيمانية، ومقاصدها العملية.

رابعا/ من متعلقات القدرة الإلهية -التي كان الشيخ يركز عليها كثيرا-: خرقه تعالى لكثير من السنن المطرِدة، والمُتمثل في معجزات الأنبياء عبر التاريخ، والمقصد الإلهي من ذلك –كمـا يـرى الشيخ- هو بيان صلاح القدرة لكل شيء، وتأثيرها في حـوادث الكـون كلـها، دون تقيـد بالأسباب؛ لأ ا هي الخالقة للأسباب.

خامسا/ أعطى الشيخ لصفة الإرادة الإلهية بعدا تربويا، ببيان وجوب التمسك بمشيئة الله علـى المؤمن؛ تلفظا باللسان واعتقادا بالقلب، لأنه لا يملك لنفسه شيئا، مما يجعله يفوض أمره كلـه إلى الله، دون أن يلغِي فاعليته وإرادته الشخصية فيما كُلّف وابتلي فيه.

سادسا/ لقد أوضح الشيخ المفهوم الشامل لرزق الله –كما يعرضه القرآن- وهو كل ما يضمن البقاء للكائن الحي من مقومات؛ طول المدة التي قدر الله أن يقضيها في الحياة، وليس الرزق قاصرا على المال فحسب -كما يفهم البعض-.

سابعا/ طرح الشيخ تساؤلا في صفة الرزق؛ عن أساس تقسيمه بين العباد، وتفاضل بعضـهم

على بعض فيه، فأجاب بأن ذلك سِر استأثر الله بعلمه، والمقصد العملي الذي أراده الشيخ من هذا التساؤل، هو دفع الناس إلى إراحة نفوسهم من حب الدنيا والحرص عليها، والإقبال على الآخرة، من دون إغفال نصيبهم من الدنيا.

ثامنا/ لقد جاء موقف الشيخ من الصفات المتشا ة موقفا وسطًا بين وجهة التفويض ووجهـة التأويل، ويمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

1. التمسك بعقيدة السلف، بتفويض حقائق الصفات إلى الله تعالى، كمنطلَق عام.
2. للعلماء حق البحث في الصفات المتشا ة قدر المُستطاع؛ للوصول إلى ما تطمئن إليه النفس منها –إن أمكن-، وإلا صاروا إلى التفويض.
3. ينبغي اعتماد اللغة في تأويل الصفات المتشا ة، لأن القرآن نزل بلسان عربي.
4. ألاّ يؤدي التأويل إلى تشبيه الله أو تجسيمه، لأن المقصد من التأويل هو ت يهه تعالى.
5. كل تأويلٍ للصفات المتشا ة، هو اجتهاد ظني، فلا يجوز فيه تضليل الآخر.

تاسعا/ للشيخ منهج متميز في الصفات، يتركز أساسا على فهمها وعرضها من مبدأ التناسب؛ سواء في تناسب أسمائها مع مدارك العقول، أو تناسبها مع سياقها القرآني، أو تناسبها مع تجليا ا الكونية.

عاشرا/ يرى الشيخ أن المطلوب من المسلم تجاه صفات الله وأسمائه؛ أن يعيشـها في شـعوره ووجدانه، ويترجمها في سلوكه وواقعه، بعد أن يفهمها فهما سليما، ويؤمن ا إيمانا جازما.

خاتمـــــة البحـــــث

بعد أن توقفنا مع الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض، من خلال منهجه في عـرض المسـائل المتعلقـة بالإيمان بالله تعالى –على ضوء تفسيره-، يمكن أن نستخلص جملة نتائج مما سبق:

1. يعتبر الشيخ القرآنَ الكريم، المعلم والمصدر الأساس في فهم العقيدة، بتفسير بعضه ببعض:
   - لضمان الفهم السليم للمصطلحات العقدية، وطريقة استعمال القرآن لها.
   - ولحل الإشكالات العقدية الواردة في الأذهان.

كما أن لتفسير السورة على أساس وحدة موضوعها، والتناسب بين آيا ا، دور كبير في الفهـم الأمثل لمسائل العقيدة المبثوثة فيها.

2. الروايات الواردة في تفسير آيات الأخبار والقصص، يتعامل معها الشيخ بالنقد والتمحـيص، فما كان منها مخالفا للشرع، يذكره الشيخ لبيان بطلانه والتحذير من اعتقاده، وما كان منها غير مخالف للشرع، فإما أن يحِقه إذا توافق مع الشرع، وإما أن يذكره استئناسا -مع التوقف عن تصديقه- إذا سكت عنه الشرع، وقد يرجح بالقرائن عند اختلاف الروايات، مع عـدم الجزم لما يتوصل إليه.
3. يعتبر الشيخ قصص القرآن أهم وسيلة لتقرير العقائد، وإصلاح النفوس، ويرى أن المنهج الأمثل في فهمها هو الاكتفاء بمواطن العبرة منها، وعدم الخوض فيما سكت عنه القرآن من تفاصيلها، لأنه لا يأخذ من التاريخ إلا ما فيه العبرة.
4. يقف الشيخ من المسائل المُغيبية عن العقل -التي لم يرد في بيا ا النص-، موقف التصديق ـا وتفويض حقيقتها إلى الله تعالى، مع التورع في تأويل المتشابه منها، وذلك ببحـث معانيهـا المحتملة في النص، اعتمادا على القرائن، ودون القطع بنتيجة البحث.
5. أعطى الشيخ بيوض -في تفسيره- لمعرفة الله تعالى قيمة كبرى، باعتبارها شرطا أساسيا في انطلاق العقل في مختلف ميادين المعرفة، بل جعل التلازم متبادلاً بين العلم والإيمان، من منطلق القرآن، من غير أن يغفل واقع التاريخ والعصر، لتوضيح أمثلة متكررة لتلك السنة البشرية، وهي حال الإنسان حين يسير في دروب العلم بغير هدى من الله، وحاله حين ينطلق بفطرة التوحيد متعلّما، أو كان علمه يدعوه إلى الإيمان.
6. يرى الشيخ بيوض أن الطريق الصحيح إلى معرفة الله والإيمان بوجوده، هو التفكر والتدبر في آياته؛ على طريق الانتقال من الأثر إلى المؤثر، وآيات الله تشمل: الآيات المتلوة في القرآن،

والآيات المجلوة في الأنفس والأكوان، مع ملاحظة تركيز الشيخ أكثر على النوع الثاني من الآيات باعتبارها المسلك الأوضح والأشمل لكل الناس؛ على اختلاف مداركهم ولغا م.

7. ينظر الشيخ بيوض إلى علم الكلام ومناهج المتكلمين باعتبارها تراثا تاريخيا للأمة، أملْته ظروف معينة، فلا ينبغي أن يتجاوزها أو أن تستحضر مباحثه في العصر الراهن، و إلا رسخ الفُرقة بين المسلمين أكثر، والبديل الذي يراه أصوب هو مذهب السلف، في الإيمان بما أسند الله إلى نفسه مع التفويض له، وت يهه عن مشا ة خلقه، وقد دعا الشيخ إلى التمسك ذا المذهب لسلامته.

8. يتعامل الشيخ مع الآيات الكونية بمنهج متميز، حيث يفسرها في سياقها القرآني، ويؤكّدها بما توصل إليه العلم –بمختلف شعبه- من حقائق ومعلومات حديثة، وذلك جمعا بين القراءتين –القرآنية والكونية- في تقرير دعائم الإيمان بالله تعالى في العقول، وترسيخها في النفوس، واقتناعا من الشيخ بجدوى توظيف نتائج العلوم المعاصرة في فهم كتاب الله تعالى، لأنه كتاب العلم.

9. في بيان الشيخ لوحدانية الله في الحُكم والتشريع، كان يقنع مستمعيه بوجوب الاحتكام إلى شرعه تعالى بجملة من الدواعي لذلك، قسمناها إلى اعتبارين؛ الاعتبار الأول: استشهاده بكمال الصفات الإلهية، أما الاعتبار الثاني: فاستشهاده بصفات النقصان البشرية، التي لا تؤهلهم بحالٍ إلى تشريع نظام شامل لحيا م يكفل لهم سعادة الدارين.

10. يسلك الشيخ المسلك العقلي الذي سلكه القرآن في إثبات وحدانية المعبودية، إذ يعتبر توحيد الله في العبادة والشكر؛ نتيجة منطقية لتوحيده في الخلق والرزق، والنفع والضر.

11. لقد كان الشيخ بيوض ممن تأثر بالمفهوم الشائع للشرك؛ وهو مرادفته لمصطلح الكفر الذي يعني: إنكار أصل من أصول الإيمان، ولذا أدرج الشيخ الإلحاد بالله تعالى ضمن أقسام الشرك، مع أن حقيقة الشرك هي إيجاد آلهة مع الله أو دونه، ونقيضه الإخلاص أو التوحيد.

12. لقد كان الشيخ بيوض واقعيا في تناول قضية الإلحاد بالله، فلم يعالجها كتعريفات اصطلاحية جافة، بل انطلق من موارد ذِكْر القضية في القرآن، ثم أنزلها على واقعه الذي كان ولا يزال يشهد مظاهر متجددة من الإلحاد، متمثلة في التيارات الفكرية التي نشأت في الغرب واستهوت معها الشباب المسلم، وقد ركّز الشيخ على تياريْ: الشيوعية والعلمانية، ببيان مضامين كلّ منهما، وأسباب انتشاره بين هؤلاء الشباب، ثم تقديم العلاج الرباني للقضية؛ بعودته إلى القرآن مرة أخرى.

13. للشيخ بيوض منهج متميز في معالجة مختلف مظاهر الشرك، يتمثل في انطلاقه من الحُجج والدوافع

التي تدفع المشركين إلى فعلهم، فيحللها ثم يبين بطلا ا وتهافُتها بقوة الحُجة، إلى جانب وصـفه الدقيق لطقوس المشركين، وبيان غرابتها ومتناقِضا ا مع الشرع والعقل.

14. لقد كان الشيخ يبرز كثيرا قيمة الإيمان بالوحدانية في تفسيره، ببيان آثارها في حياة الفرد المسلم، التي تْنصب على اتزان الشخصية المسلمة وفعاليتها في الحياة، لكن الشيخ لم يول ذات الاهتمـام لآثار التوحيد على الجماعة أو ا تمع المسلم.

15. لم يفرق الشيخ بين أسماء الله وصفاته، بل اعتبرهما شيئا واحدا، وهي ألفاظ لها معان معقولـة، لكن ما ميز الشيخ عند تطرقه لوحدانية الصفات، هو تنبيهه إلى المُباينة بين معاني صفات الخالق Y وصفات الخلق -وإن اشتركت في التسمية اللفظية- ذلك لأن الأولى حقيقية مطلقة، بينما الثانية مجازية ونِسْبية.

16. لم يكن الشيخ في تفسيره؛ يشرح صفات الله تعالى شرحا اصطلاحيا دقيقا، بل كان يهتم أكثر بذِكر متعلقا ا وشواهدها الكونية، وآثارها الإيمانية، ومقاصدها العملية.

17. من متعلقات القدرة الإلهية -التي كان الشيخ يركز عليها كثيرا-: خرْقه تعالى لكثير من السنن المطردة، والمُتمثل في معجزات الأنبياء عبر التاريخ، والمقصد الإلهي من ذلـك –كمـا يـرى الشيخ- هو بيان صلاح القدرة لكل شيء، وتأثيرها في حوادث الكون كلـها، دون تقيـد بالأسباب؛ لأ ا هي الخالقة للأسباب.

18. أعطى الشيخ لصفة الإرادة الإلهية بعدا تربويا، ببيان وجوب التمسك بمشيئة الله على المـؤمن؛ تلفظا باللسان واعتقادا بالقلب، لأنه لا يملك لنفسه شيئا، مما يجعله يفوض أمره كلـه إلى الله، دون أن يلغِي فاعليته وإرادته الشخصية فيما كُلّف وابتلي فيه.

19. لقد أوضح الشيخ المفهوم الشامل لرزق الله –كما يعرضه القرآن- وهو كل ما يضمن البقـاء للكائن الحي من مقومات؛ طول المدة التي قدر الله أن يقضيها في الحياة، وليس الرزق قاصـرا على المال -كما قد يفهم-. ومن المقاصد العملية التي ركّز الشيخ عليها –في صفة الـرزق- دفْع الناس إلى إراحة نفوسهم من الحرص على الدنيا، والإقبال على الآخرة.

20. لقد جاء موقف الشيخ من الصفات المتشا ة موقفا وسطًا بين وجهة التفويض ووجهة التأويل، ويمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

- ✓ التمسك بعقيدة السلف، بتفويض حقائق الصفات إلى الله تعالى، كمنطلَق عام.
- ✓ للعلماء حق البحث في الصفات المتشا ة قدْر المُستطاع؛ للوصول إلى ما تطمئن إليه النفس منها –إن أمكن-، وإلا صاروا إلى التفويض.

- ✓ ينبغي اعتماد اللغة في تأويل الصفات المتشا ة، لأن القرآن نزل بلسان عربي.
- ✓ ألاّ يؤدي التأويل إلى تشبيه الله أو تجسيمه، لأن المقصد من التأويل هو تـ يهه تعالى.
- ✓ كل تأويلٍ للصفات المتشا ة، هو اجتهاد ظني، فلا يجوز فيه القطع أو تضليل الآخر.

21. للشيخ منهج متميز في الصفات، يتركز أساسا على فهمها وعرضها من مبـدأ التناسـب؛ سواء في تناسب أسمائها مع مدارك العقول، أو تناسبها مع سياقها القرآني، أو تناسبها مع تجليا ا الكونية.

22. يرى الشيخ أن المطلوب من المسلم تجاه صفات الله وأسمائه؛ أن يعيشها في شعوره ووجْدانه، ويترجمها في سلوكه وواقعه، بعد أن يفهمها فهما سليما، ويؤمن ا إيمانا جازما.

ختاما نرجو أن نكون – ـذا البحث- قد وضعنا لبنة في دراسة الإلهيات عند الشيخ إبراهيم بيوض من خلال تفسيره، وأن تفتح هذه الدراسة للباحثين مجالاً لاكتشاف الجوانب العقدية الأخرى المبثوثة في رحاب تفسيره القَيم، ولدراسة فكره التربوي والاجتماعي من خلال هذا التفسير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفــهارس العامـــة

فهرس الآيات القــــــرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المحـــــــــــــــتويات

فهرس الآيات القــــــرآنية

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة ياسين

سورة الصافات

سورة ص

سورة الزمر

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس المصادر والمراجع

1. ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم: **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، د.م، د.ت.
2. ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للطبع والنشر.
3. ابن كثير، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل الدمشقي، **تفسير القرآن العظـيم**، دار الفيحـاء- دمشق، ط1: 1414هـ/1994م.
4. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي: **لسان العرب**، دار حياء التراث العربي؛ دار صادر، بيروت –لبنان، د.ت.
5. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل: **الفروق في اللغة**، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، بيروت–لبنان، ط 1: 1422 هـ/ 2002م.
6. أحمد شفيق الخطيب ويوسف سليمان خير الله: **الموسوعة العلمية الشاملة**، مكتبـة لبنـان ناشرون (لبنان)، ط 1: 1998.

7. آدم فتحي: **موسوعة جسم الإنسان (أجهزته ووظائفها)**، دار الفكر العربي، بيروت – لبنان، ط 1: 2000م-1421هـ.
8. اطفيش، امحمد بن يوسف: **تيسير التفسير**، تحقيق: إبراهيم محمد طلاّي، المطبعة العربية، غرداية، ط1: 1422هـ/2001م.
9. اطفيش، امحمد بن يوسف: **الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**، (د.م)، ط حجرية: 1326هـ.
10. اطفيش، امحمد بن يوسف: **الذهب الخالص المُنوه بالعلم القالص**، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، دار البعث، قسنطينة-الجزائر، ط2: 1400هـ/1980م.
11. اطفيش، امحمد بن يوسف: **شامل الأصل والفرع**، د.م، د.ت.
12. اطفَيش، امحمد بن يوسف: **شرح عقيدة التوحيد**، تحقيق: مصطفى بن الناصر وينتن، نشر جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، ط1: 1422هـ/2001م.
13. اطفيش، امحمد بن يوسف: **هميان الزاد إلى دار المعاد**، نشر وزارة التراث القومي، عمان، ط2: 1980م.
14. إقبال، محمد: **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، دار آسيا، ط: 1985.
15. الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود: **روح المعاني**، دار الفكر، بيروت، ط: 1398هـ/ 1978م.
16. الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب: **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، ط3: 1414هـ/1993م.
17. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر: **الفَرق بين الفِرق**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د.ت
18. البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر: **كتاب أصول الدين**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط3: 1401هـ/1981م.
19. البوطي، محمد سعيد رمضان: **كبرى اليقينيات الكونية**، دار الفكر، سوريا، ودار الفكر، لبنان، تصوير عن ط8: 1423هـ/2002م.

20. بيوض، إبراهيم بن عمر: **فتاوى الإمام الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر**، ترتيب وتخريج: بكير محمد الشيخ بالحاج، المطبعة العربية، غرداية، ط: 1988.
21. بيوض، إبراهيم بن عمر: في **رحاب القرآن**، ج1: **تفسير سورة الإسراء**، نشر: جمعية التراث –القرارة- غرداية، ط2: 1993، ج2:**تفسير سورة الكهف** ط:1994، ج3: **تفسير سورتي مريم وطه** ط:1995، ج4: **تفسير سورتي الأنبياء والحج** ط: 1997، ج5: **تفسير سورة المومنون** ط:1998، ج6: **تفسير سورة النور** ط:1998، ج7: **تفسير سورتي الفرقان والشعراء** ط:1999، ج8: **تفسير سورتي النمل والقصص** ط:2000، ج9: **تفسير سورة العنكبوت** ط:2001، ج10: **تفسير سورة الروم** ط:2001، ج11:**تفسير سورة لقمان** ط:2002، ج12: **تفسير سورتي السجدة والأحزاب** ط:2003، ج13: **تفسير سورتي سبأ وفاطر**ط:2004.
22. الجعبيري، فرحات: **البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية**، نشر: جمعية التراث –القرارة، ط: 1987.
23. جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب الإسلامي)** من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، نشر جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، طبع دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2: 1421هـ/2000م.
24. الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية: **الموسوعة العربية المُيسرة**، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط2: 2001م.
25. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: **الصحاح (تاج اللغة وصِحاح العربية)**، تحقيق: إميل بديع يعقوب ومحمد طريف نبيلي، دار الكتب العلمية (لبنان)، ط 1: 1420 هـ - 1999.
26. الجويني، أبو المعالي عبد الملك: **كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة** في **أصول الاعتقاد**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان، ط1: 1405هـ/1985م.
27. الجيطالي، أبو طاهر إسماعيل بن موسى: **كتاب قواعد الإسلام**، تصحيح وتعليق: عبد الرحمن بن عمر بكلي، المطبعة العربية، غرداية-الجزائر، ط1: 1977م.
28. دبوز، محمد علي: **أعلام الإصلاح** في **الجزائر**، مطبعة البعث، قسنطينة-الجزائر، ط1: 1394هـ/1974م.

29. دبوز، محمد علي: **ضة الجزائر الحديثة وثور ا المباركة**، المطبعة العربية، غرداية – الجزائر، ط1: 1969م.

30. دندل جبر: **الشيوعية منشأ ومسلكًا**، شركة الشهاب الجزائر، د.ت.

31. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: **التفسير الكبير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط3: د.ت.

32. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحُسين بن محمد، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1: 1418هـ/1997م.

33. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: **الكشاف عن حقـائق التـ يـل وعيـون الأقاويل** في **وجوه التأويل**، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د.ت.

34. السالمي، أبو محمد عبد الله بن حمَيد: **كتاب شرح طلعة الشمس على الألفية**، وزارة التراث القومي، عمان، ط3: 1413هـ/1993م، ص169.

35. السالمي، أبو محمد عبد الله بن حميد: **مشارق أنوار العقول**، طبع في مطابع العقيدة، سـلطنة عمان، ط2: 1398 هـ/1978م.

36. سليمان بن عبد الله: **تيسير العزيز الحميد** في **شرح كتاب التوحيد**، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ت.

37. سيد قطب: في **ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت-لبنان، ط3: 1397هـ/1977م.

38. شركة البرامج الإسلامية الدولية: **موسوعة الحديث الشريف**، الإصدار الثـاني، (1991-1997).

39. الشعراوي، محمد متولي: **معجزة القرآن**، إعداد: أحمد زين، شركة الشهاب، الجزائر، ط: 1990.

40. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: **الـلل والنـحل**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار صعب، بيروت، ط: 1986.

41. صبحي الصالح: **مباحث** في **علوم القرآن**، دار العلم للملايـين، بـيروت-لبنـان، ط21: 1997م.

42. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **جامع البيان** في **تفسير القرآن**، دار المعرفـة، بـيروت-لبنان، ط:4، 1400هـ/1980م.

43. عبد ا يد عمر النجار، **الإيمان بالله وأثره في الحياة**، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنـان، ط1: 1997.
44. عبد الوهاب خلاف: **أصول الفقه**، دار القلم، بيروت.
45. عدنان الشريف: **من علم الطب القرآني**، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط 1: 1990.
46. علي بن أبي طالب: **ديوان الإمام علي بن أبي طالب (ديوان شعر إمام البلغاء)**، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الهدى، عين امليلة-الجزائر.
47. علي يحي امعمر: **الإباضية (دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم)**، المطبعة العربية، غرداية.
48. علي يحي امعمر: **الإباضية في موكب التاريخ**، ج1: نشأة المذهب الإباضي، مكتبة الاستقامة –سلطنة عمان، ط2: 1989، ج2: الإباضية في ليبيا، ج3: الإباضية في تونس، ج4: الإباضية في الجزائر.
49. الغزالي، محمد: **عقيدة المسلم**، دار الشهاب، باتنة-الجزائر، ط: 1985.
50. الغزالي، محمد: **كيف نتعامل مع القرآن**، في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسـنة، دار الرجاء، عنابة-الجزائر، د.ت.
51. الغزالي، محمد: **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، دار القلم، دمشق، ط3: 2000م.
52. الغزالي، محمد: **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم**، دار بغدادي للطباعـة والنشـر، الرويبة- الجزائر، ط:2000م.
53. الغزالي، محمد: **نظرات في القرآن**، دار الكتب الحديثة، ط3: 1962م.
54. الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، توزيع: مكتبة النوري - دمشق، د.ت.
55. القرضاوي، يوسف: **الإيمان والحياة**، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط 19: 1419 هـ/ 1998.
56. القرضاوي، يوسف: **حقيقة التوحيد**، دار البعث، قسنطينة-الجزائر.
57. اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: **فتاوى اللجنة**، جمع وترتيب: أحمد بن عبد الـرزاق الدويش، دار المؤيد، الرياض-السعودية، ط3: 1421هـ/2000م.
58. مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع: **الموسوعة العربية العالمية**، الرياض-السعودية، ط2: 1419 هـ/ 1999.

59. محمد بن أبي العز الدمشقي: **شرح العقيدة الطحاوية**، تح: عبـد الله التركـي، وشـعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط8: 1416هـ/1995م.
60. محمد بن صالح ناصر: **حلقة العزابة ودورها** في **بناء المجتمع المسجدي**، نشر جمعية التراث – القرارة.
61. محمد بن صالح ناصر: في **رحاب القرآن** (**الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض**) مهرجـان ختم تفسير القرآن الكريم، مقدمة محمد بن صالح ناصر، نشر جمعية التراث –العطف- غرداية، ط: 1989.
62. محمد بن صالح ناصر: **المقالة الصحفية الجزائرية (نشأتها، تطورها، أعلامها)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/ 1978م.
63. محمد بن قاسم ناصر بوحجام: **الشيخ إبراهيم بيوض (المصلح المربي)**، مكتبة الجيل الواعد، سلطة عمان، ط1: 1425 هـ/2004م.
64. محمد بن موسى بابا عمي: **الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض**، نشر: الكشافة الإسلامية الجزائرية –القيادة العامة والمحافظة الولائية غرداية، ط: 1417 هـ/ 1996م.
65. محمد رشيد رضا: **تفسير المنـار**، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط2: د.ت.
66. محمد عبده: **رسالة التوحيد**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:1988م.
67. محمد فتحي الدرَيني: **المناهج الأصولية** في **الاجتهاد بالرأي** في **التشريع الإسلامي**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3: 1418هـ/1997م.
68. محمد قطب: **لا إله إلا الله (عقيدة وشريعة ومنهاج حياة)**، دار الشروق، بـيروت-لبنـان، ط2: 1414هـ/1993م.
69. محمد قطب: **مذاهب فكرية معاصرة**، دار الشروق –بيروت، ط 8: 1993/1414.
70. مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، **المكتبة الألفيـة للسـنة النبويـة**، الإصـدار 1.5، 1419هـ/1999م، الأردن.
71. منى حسين الدسوقي: **الشيخ مصطفى الغلاييني** في **مفاهيمه الإصلاحية (دراسة مقارنة بينه وبين الشيخين: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده)**، المكتبة العصـرية، صـيدا-بـيروت، ط1: 1419هـ/1999م.

72. موريس أسعد ورشيد فرحات: **موسوعة الكون والفضاء والأرض**، دار الفكـر العـربي، بيروت- لبنان، ط 2: 2002م.
73. الميلي، مبارك بن محمد: **رسالة الشرك ومظاهره**، نشر: دار البعث، قسـنطينة – الجزائـر، د.ت.
74. ناهد الخراشي: **أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي**، دار الكتاب الحديث، القـاهرة، ط 4: 1423 هـ/ 2003م.
75. هود بن محكم الهواري: **تفسير كتاب الله العزيز**، تحقيق: بالحـاج شـريفي، دار الغـرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1: 1990م.

فهرس المحتويات